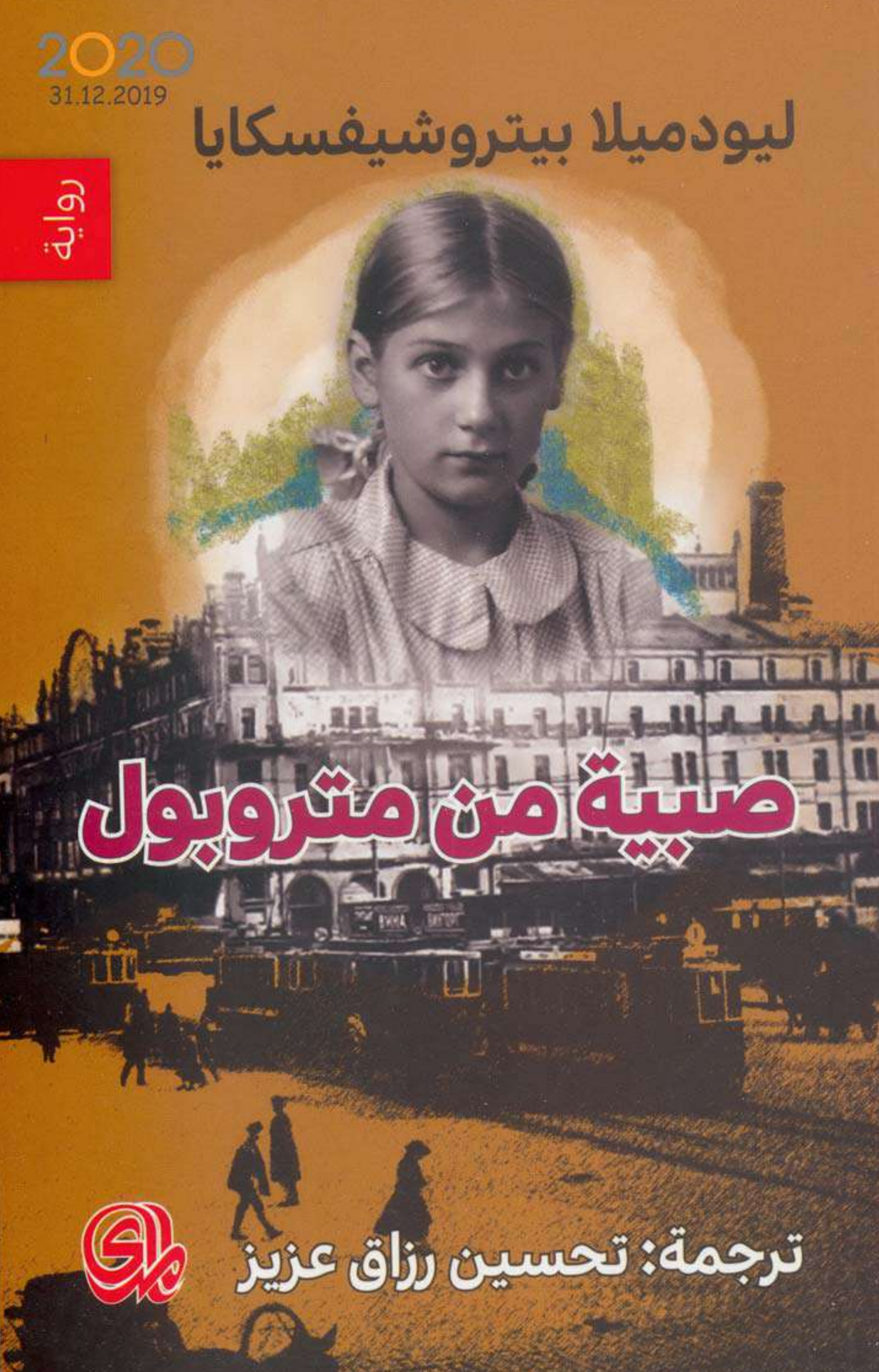

2020
31.12.2019
ليودميلا بيتروشيفسكايا
رواية
صبية من متروبول
ترجمة: تحسين رزاق عزيز

ليودميلا بيتروشيفسكايا

صبية من متروبول

ترجمة : د. تحسين رزاق عزيز





صبية من متروبول



Author: **Lyudmila Petrushevskaya**	اسم المؤلف: ليودميلا بيتروشيفسكايا
Title: **A Little Girl** from the **Metropol Hotel**	عنوان الكتاب: صبية من متروبول
Translated by: **Dr. Tahseen Razik Aziz**	ترجمة: د. تحسين رزاق عزيز
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: 2019	الطبعة الأولى: 2019



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

بدلاً عن المقابلة الصحفية

عزيزتي م. المحترمة! إني أعلم أنكِ تنوين التمتع بإجازة الحمل والأمومة، وأنا إحدى المهام الخاصة بكِ. دائماً ما كنتُ أحترم الحوامل العاملات. لن أدلي بأيّ حوار صحفي، وهذا بمثابة العهد عليَّ تقريباً. وبدلاً عن الحوار الضروري معكِ، ها أنا ذي أجلس لأكتب لك هذه الرسالة.

أوصلي سلامي إلى كُنَيْغَرُكِ. هو (هي) يسمع. قولي له: «تحية لك!» بالمناسبة، يبدو لي، أنَّ الطفل بنفسه يوحي لنا باسمه. وها هو قد قال لك إن اسمه هو كُنَيْغِر. أحد أقاربي الصغير كان يُدعى في البداية مارتيش، ثم كوزيا وبعد ذلك كوزيافا. كان ثمة أحد الأولاد في عمر الرضاعة يعرف باسم ميتريتش، والآخر يُكنّى ميشبوتام ثم صار شيديا بالاش. وإحدى الصبايا كانت تُدعى (في مرحلة الطفولة) أُتيا (بطة)، ثم موروتشكا ثم سميتانا (قشطة). والطفلة آنيا في طفولتها تُدعى ميش (فأرة). وكانت إحدى الجدات تدعو بيتيا الأشقر الأشعث البالغ من العمر ثلاث سنوات حصراً بطرس الأكبر. والطفلة تماروتشكا (وهي الآن مهندسة معمارية) تدعى وهي في المهد تريكاسوليا (ثلاثة غزلان الرنة).

الطفلة مانكا، وهي صبية ذات عينين واسعتين، كانت تُدعى بوكاشكا (برغشة)، الآن هي متوفاة. وعندما وُدِّعَتْ، غمغم الكثير من الناس: «إلى الملتقى». وقال والدها في وقت لاحق، سيكون من الصعب اللقاء بماشا هناك، يجب الإصرار في المحاولة.

كلّما ازدادت أسماء الشخص، كان ذلك أفضل. ولا بدّ أن نذكر هنا أنَّ الناس في روسيا، حتى يُبعِدوا عن الفرد الموت المبكر والسحر والعين والحسد، يطلقون على الطفل أسوأ الأسماء، لكي لا يجتذب قوى الظلام: بلوخ (طالح)، نيخوروش (سيّئ)، نيميل (مكروه)، نيناش (دخيل، مخالف)، نيفير (كافر)، نيأوستروي (مبعثر، مشتت)، نيغوش (أخرق، تافه)، نيفزغلاد (عمي، جهل)، نيكراس (قبيح)، نيفزور (عديم النظر). ومن هذه الأسماء اشتُقَّت فيما بعد ألقاب بعض العائلات، على سبيل المثال، نيكراسوف.

هذه طبيعتنا، أبعد الله عنّا السوء. والدنيا متقلبة لا تثبت على حال. وهكذا هم ناسنا، عندما يقصون حكاياتهم بعضهم لبعض. على مقاعد البدلاء وفي القطار وفي الحانة وفي المترو.

وقد أُتيحَ لي سماع العديد من الحالات المختلفة.

هذه قصة رهيبة عن مقتل صبي صغير، قتله صديقه الأكبر سناً، إذ تشاجرا بكل بساطة بسبب الصبية لينتشكا. كان الأصغر سناً يدعى فولوديا، والأكبر جينيا. ((تعال غداً))، نتعارك، قال فولوديا الصغير. وجاء إلى اللقاء، مع اثنين من أصدقائه. وهذا الصبي الساخن فولوديا، له من العمر ثماني عشرة سنة، وقد كتب قصائد حاكى فيها بوشكين، وكان وسيماً، مجعد الشعر، درس في الخارج، كما حصل على منحة بوصفه موهوباً. وكل شيء من أجل ماذا؟ حتى في النتيجة يقتله جينيا هذا بغير قصد. وتبين أنّ فولوديا قبل هذا كان الليل كله يصلي ويكتب الشعر قبل وفاته. وكما توقع. بقيت القصائد. وبعد ذلك. امرأة متزوجة، وقورة، هي العمة آنيا، تركت زوجها، وكان هو أيضاً مديراً وقوراً على مستوى الدولة. كانت تحترمه، لكن لم تحبه، لم تكن تعرف حتى ما إذا كان هو يحبها. ثم فجأة وقعت في الحب لأول مرة. إذ أحبَّت رائداً شابّاً من هيئة الأركان العامة، أو شيء من هذا القبيل. ذهبت إلى الشاب، وتركت الطفل لدى زوجها والمربية، حتى لا تجرجره معها في الشقق

التي تؤجرها. وقد تخلى عنها الشاب فيما بعد، فذهبت، العمة آنيا، إلى محطة سكة حديد فرع غوركي، وهناك ألقت بنفسها تحت القطار. هذه الحكاية أرويها بكلماتي الخاصة، كما كنتِ تخمنين، محتوى رواية بوشكين «يفغيني أونيغين» ورواية تولستوي «آنا كارينينا».

وهذا يعني، أني لست أول من يتحدث بمثل هذه الأشياء الفظيعة.

وها أنا ذي أجيب عن السؤال الذي يوجه إليَّ في كل مكان، وحتى في الخارج أيضاً. لا بمعنى أنه يوجه إليَّ بصورة مباشرة - لماذا أنتِ كاتبة – كلا، إذ تُنشَر ببساطة دراسات نقدية، لنفترض مثلاً، في إيطاليا، ويقولون إن المؤلفة تتحدث لنا عن محنة النساء الروسيات. لا أعرف لماذا.

من قبيل اطمئنوا، نحن إيطاليون، لا يحدث مثل هذا مع نسائنا الجميلات! ببساطة، المؤلفة هي حزينة هكذا، لأنها تكتب عن النقائص والعيوب في بلادها.

ولا شيء، في الحقيقة، من هذا القبيل.

في جميع البلدان وفي جميع الأوقات، كان الكُتّاب يؤلفون القصص الصعبة والحزينة.

وعندما أتحدث إلى جمهور من الأجانب (وهم يسألونني دائماً هذا السؤال، لماذا وضع النساء في الاتحاد الروسي بهذا السوء؟)، فدائماً ما أقول لهم بالروحية تلك نفسها تقريباً، ((اعذروني، أليس لدى شكسبير ويوربيديس وسوفوكليس ولدى جميع مؤلفي الدراما الكلاسيكيين، أعمال كلها تقريباً تنتهي بشكل سيّئ. الجميع لديهم قتَلَة. إنه كابوس حقيقي! ففي أعمال موريس دريون تُسلَخ جلود الأبطال عموماً وهم أحياء. ولدى موباسان في كثير من الأحيان التفكك الأسري والحياتي والعاهرات، وبعض أبطاله يَطعن بسكين وآخر يرمي طفلاً، ولديه مآسٍ شخصية. ولدى تشيخوف مَن يُطلق النار ومَن يَقتل، أو طفل ميت))...

يومئ قرائي الأجانب برؤوسهم وكأنهم فهموا ما أقول.

عندما يقوم بعض الباحثين الروسيين لدينا بحشر مقالاتهم لي، التي يتحدثون فيها عن كوني مهتمة بشكل كبير ومتزايد بنوع من القصص المرعبة والفظيعة، أتساءل بصفة عامة، إن كان كل شيء فيما يخص الطيبة على ما يرام عند هذا الكاتب، وأقول إني لست أول من نوَّه إلى حالة الذعر. فعند كارامزين أغرقت ليزا نفسها، وعند غوغول أيضاً ثمة غريقة، ولديه أيضاً شخصيات مكروهة مثل بلوشكين ونوزدريف مع فيه، إذ إنَّ شخصياته الواحد أفظع من الآخر. وعند تشيخوف وعند بونين في «المماشي المعتمة» (الدروب الظليلة). وعند دوستويفسكي بالذات! وعند نابوكوف! يجلس شخص في السجن ويتذكر كيف كان يعيش مع طفل زوجته. بيد أنَّ هؤلاء هم كلاسيكيونا ومعلّمونا.

الشيء الثاني الذي لا يريدون أن يغفروه للكُتّاب: حسناً، هكذا هم ولِدوا كئيبين مفعمين بالتشاؤم (أو يتحامقون عن عمد، إنهم هكذا)، ولكن لماذا، عندما يصور الكاتب مصيراً خاطئاً للإنسان، لا يقول بشكل مباشر – لا يجوز أن يعيش الإنسان بهذا الشكل! ولا يدين الأوغاد! ولا يبيّن كيف يمكن العيش عموماً بشكل طبيعي.

أجيب: الكُتّاب القدماء عموماً عادة ما حاولوا التلميح والإيحاء بمهارة وبلطف للقراء إلى مَن هو المحق في نتاجاتهم الأدبية. وللقيام بذلك، اختاروا للبطل السلبي نقيضاً إيجابياً. فالرديء أبلوموف يقابله الصائب شتولتس. المتقلب أونيغين مقابل الوفية تاتيانا. والزانية آنا كارينينا مقابل الصالحة كيتي.

الحقيقة، أن تولستوي لا يقدم تعليمات مباشرة أنَّ عليك، في سبيل المثال، أن تتصرف مثل كيتي، لا مثل آنّا الخائنة. يبدو أنه ينتظر حُكم القرّاء. ألقى بآنّا تحت عجلات القاطرة في شكل إيحاء وظلَّ صامتاً. لا يقول، لا ينبغي العيش بهذا الشكل. وأحياناً يبدو ثمة التباس: فمثلاً، إنَّ القارئ المرتبك لا يحب من كل قلبه كيتي الصالحة، وإنما آنّا كارينينا، وفي المسرح والسينما جميع الممثلات غير الشابات يحلمن بأداء

دورها. أبلوموف أيضاً الناس يرثون لحاله ويتذكرونه أكثر من شتولتس. بالمناسبة، عندما توفي أبلوموف، أخذ شتولتس من زوجته، المرأة الوديعة، ابن أبلوموف، بهدف تربيته بشكل صحيح، في الظاهر. أنا أحب رواية «أبلوموف» كثيراً، لكني لا أشيد بشتولتس من جراء أفعاله تلك. وها هم يحبون في أونيغين كل شيء بلا استثناء، من دون النظر إلى حقيقة أنه قاتل وكسول كالجذمور وأنانيّ من الدرجة الأولى.

إذن، حتى الكتّاب العظماء لا يخرجون بأمثلة إيجابية بطريقة أو بأخرى.

وثمة ما هو أسوأ من ذلك، عندما لا يوجد هناك نموذج موحد للسلوك والتصرف الصحيح. كما عند زوشينكو، على سبيل المثال. فما قيمة هذه القصة عن أحد أطباء الأسنان. إذ توجد فيها هذه الفقرة: (إذن، قد توفي زوجها. إنها في البداية، على الأرجح، تفاعلت بسهولة مع هذا الحدث. «آه، إنَّ تفكيرها هراء! » وبعد ذلك ترى - كلا، ليس هراء!... فالعرسان في هذا العالم لا يتدافعون زرافات!).

ولا توجد في القصة أيّ شخصية إيجابية! ليس فيها إلّا الوضيعون من البشر.

علاوة على ذلك، لا أحد يلوم زوشينكو. ولا يتكلم بكلمات غاضبة ضده.

كتبَ تشيخوف أيضاً العديد من القصص المضحكة الهزلية، التي تنشط فيها تارة الفتاة بودزاتيلكينا، وتارة واحدة تدعى بشيكوفا، وتارة ماكار بالدستوف.

ولم يدَّعِ أحد بشكل مباشر وغاضب أنَّ هؤلاء حثالة البشر...

قبل سنوات عديدة، عندما كتبتُ آخر مقابلة صحفية، كان عندي فيها سطور حول أن الأدب ليس مكتب المدعي العام وأن الكاتب ليس القاضي، وإنما أغلب الظن المتهم نفسه، وأنَّ المهم في الأدب عدم الإجابة عن الأسئلة، بل طرح هذه الأسئلة بشكل صحيح ومرتب.

هذه الكلمات الساذجة تسببت لي بموجة من السخط عند نقاد ذلك الزمان (منتصف الثمانينيات). الآن لا أحد يتذكرها. الأدب هو الذي يجب أن يوضِّح، كتب أحدهم، ويبيّن التربية وفق الأمثلة الإيجابية! كان حامياً جدّاً.

ثم اتصل بي بعض منظّري الأدب وهو يضحك وقال إنَّ كلماتي هذه ((ليس من الضروري الإجابة عن الأسئلة))، في الحقيقة، قالها تشيخوف قبل مئة عام، حرفياً في الشكل نفسه، وهذه كانت رسالته إلى سوفورين.

الآن حاولت أن أجد هذه الرسالة، وقد أملاها عليَّ من خلال الهاتف العلّامة الشهير، الناقد الأدبي سيرغي غيورغييفيتش بوكاروف، الذي يعرف كل شيء.

والمثير للدهشة، أنَّ تشيخوف يورد في رسالته الأمثلة الأدبية نفسها، التي ذكرتها في بداية رسالتي!

كتب تشيخوف لسوفورين: (عندما تطالِب الكاتب بموقف واعٍ من العمل، أنت على حق. ولكنك تخلط بين مفهومين: حل المسألةً والصياغة الصحيحة لها. المفهوم الثاني وحده ضروري للكاتب. ففي «آنّا كارينينا» و«يفغيني أونيغين» لم تُحلّ أيّ مسألة. لكنَّ هذين العملين يُشعِرانك بالرضا تماماً، لأن الأسئلة مطروحة بشكل صحيح).

في الحقيقة، لديَّ في ذخيرتي اقتباس آخر من بوشكين، إنَّ تصوير أوهام الناس وعواطفهم ليست جريمة، «كما أنَّ علم التشريح لا يمثل جريمة قتل». دائماً ما كنت أورد هذا التعبير للجمهور. الآن أنا نادراً ما أتحدث أمام الجمهور. فقد صار الناشرون ينشرون نتاجاتي، وليس ثمة حاجة للدفاع عن أعمالي شفهياً. الآن من يريد يستطيع أن يقرأها في المجلات وفي الكتب وحتى على الإنترنت. وفي الواقع، هذه الرسالة لا معنى لها. فقرّائي من دونها يفهمون كل شيء، أما القراء الآخرون فلا يحتاجون إلى توضيحات. وكما نوَّهَتْ لي إحدى أمينات المكتبات: «كم أنا أحبكِ، يا ليودميلا ستيفانوفنا! لكنني لا أستطيع أن أقرأ ما تكتبين».

لكن على كل حال، كم هو مدهش أن تمرّ السنون، وبعد أن صرنا نقرأ كل ما كان ممنوعاً من قبل، وصارت الصحف تنشر أخباراً شائكة وغير مألوفة وتعرض صور الجثث، ويبقى الذين يبحثون في أعمالي كما هم على حالهم. لا يتساهلون ولا يغفرون! ويقولون إنها، يا شباب، تعرض الجوانب القاتمة والمخيفة من الحياة اليومية، وليس لنا مع روايتها هذه سوى أن نستغيث. كان من الصعب أن تقرأ لمثل هذا المؤلف بشكل عام، وفي بعض الأحيان تقرؤه بتثاقل وحتى يستحيل عليك فعل ذلك! ولكن في حالتي بشكل عام. وكأنهم يخاطبون القراء: دعكم من تعذيب أنفسكم معها. ألم تجدوا غيرها...

بعضهم يعبِّر كتابةً عن ارتيابه في كوني أسوأ من أبطالي. يا لها من وحش لا يرحم. أو هل هي مريضة، أم ماذا؟ بعد أن تقرأ لها، قالت امرأة عجوز بحدة، لن تعود ترغب بالإنجاب.

وحتى حكاياتي (وكلها نهايتها جيدة ومن النوع الممتاز) لا تروق لهم. السوداوية تبقى سوداوية ولا تعرض إلّا الجوانب البشعة!

(أحد رفاقي في الاستوديو غضب ذات مرة وردَّ عليهم: «تقولون سوداوية وهل الحصبة الحمراء أفضل؟» الحادثة تلك جرت في الاتحاد السوفياتي، حيث ساد فيه اللون الأحمر في كل مكان، بما في ذلك في مجال الفنون. الآن يهيمن أساساً «الصَفَر – اليرقان»، حيث الصحافة الصفراء...)

إنَّ لعثمتي المثيرة للشفقة في إيجاد الأعذار ، تشبه القصة – وهي عموماً كانت دائماً نوعاً أدبياً محزناً وصعباً، وجوابي هذا لم يؤخَذ بعين الاعتبار. يستحيل قراءة نتاجاتها، وهذا كل شيء!

كما لو أنهم مجبرون على أخذِ كتبي!

وهنا اتصلت بي امرأة أخرى: «كم من الصعب قراءة أعمالكِ!» – «لا تقرئي ما أكتب». – «إذا لم أقرأ لك فلمن أقرأ؟»

اقرئي تولستوي، غوغول، بونين، ليونيد أندرييف، اقرئي بلاتونوف، تشيخوف، اقرئي تورغينيف. تعلّمي القراءة.

انظري إلى قصة «مومو» (لتورغينيف) الشهيرة، التي مثّلت الحزن والتعاسة لجميع طلاب المدارس الثانوية في الاتحاد السوفياتي. إنها ليست عن نظام القنانة. لقد أقحم المشوهون وعديمو النظر من واضعي المناهج الدراسية في زمن الاتحاد السوفياتي «مومو» إلى المقرَّر الدراسي، حتى يعرف الأطفال أن الاشتراكية قد انتصرت نهائيّاً ولن يحدث لدينا في المستقبل مثل هذا، وعودة الماضي الإقطاعي المظلم غير مرغوب فيها، فعندما تكون أصمّ وأبكم، وإضافةً إلى ذلك تُؤخَذ منك الفتاة التي تُحِبها ويجبرونك على إغراق كلب. في الواقع، «مومو» تدور حول شيء آخر. لن أتحدث عن ذلك لأن كل واحدٍ منّا سيفهم الموضوع بطريقته الخاصة، إذا ما حُذِفَت هذه القصة من المنهج الدراسي ووقعت بيد شخصٍ بالغ. إذ إنَّ مضامين الموضوعات تتكرّر، لأن عنف القدر على الإنسان يتكرر.

مرِضَت عند بعض الناس كلبتهم، المحبوبة ومحل فخرهم، التي ربّوها منذ أن كانت جروة صغيرة. وضعوها في سيارة وقادوها إلى الغابة. جميعهم. الزوج كان عاملاً رصيناً وزوجته أيضاً. الحُقَن، الأطباء، ليالٍ من دون نوم –لقد تصوّروا ذلك كلهم– فأبعدوها. وتركوا هناك كلبتهم المشلولة التعيسة. سمعتُ قصتهم هذه عندما كنت في زيارة لأحدهم. كان علينا أن نتعاطف مع أصحاب الكلبة المساكين، لما حلَّ بهم. لأنّه قد حصل لهم أن أبعدوا عنهم صورة الكلبة المحتضرة التي ربوها بأيديهم، والتي هي الآن ترقد وحيدة في الغابة ليلاً، ولم تعد قادرة على الزحف... من دون ماء، ولا كسرة من الخبز الأسمر. والغربان تنقرها...

مثل هذا المزيج لـ«مومو» و«أريد أن أنام» (قصة تشيخوف)، هو رعب آخر من المنهاج المدرسي.

إحدى النساء (هذه قصتي الثانية لكِ)، مطلّقة، لديها طفلتان، فقيرة

جدّاً، أصبحت حاملاً عن طريق الخطأ. كانت تأمل، ربما، بالزواج، لكنها لم تتزوج. فأرادت أن تخضع للإجهاض، وهنا حالفها الحظ، إذ صادفت وجود تذكرة سياحية إلى الجنوب تُباع في اللحظة الأخيرة، تقريباً مجاناً، فسافرت المرأة، وبعد شهر أصبحت مدة الحمل طويلة، ورفض جميع الأطباء إجراء عملية الإجهاض أو طلبوا مبالغ كبيرة من المال لا طاقة لها بها، وفي النهاية عثرت المرأة المسكينة على مضمد متشرد، فأرسلت بناتها إلى إحدى صديقاتها، أعطاها المضمد حقنة وهرب عندما جاءها المخاض وأخذها الطلق. فولَدَت طفلاً في شهره الخامس، وبدأ في الصراخ. ما العمل؟ حملته إلى غرفة أخرى، وفتحت النافذة، وكان قد حلَّ البرد آنذاك. وبينما كانت تغسل الأرضية من الدم، ظل الطفل يُصأصئ واختنق ثم مات. حملت اللفة وذهبت بها إلى مقبرة فاغانكوفو ، ووضعتها في كومة من الأغصان والأوراق الجافة. وزحفت إلى الكنيسة، وطلبت أن يُجرى قداس جنائزي لأجل الموتى. و-انتبهي- منذ ذلك الحين صارت تحدِّثُ الجميع بقصتها هذه. بدأت النسوة بالابتعاد عنها. ولقد حُذِّرتُ، لأنه كان من المفترض أن تأتيَ، لإحضار بعض الأوراق المهمة. قالوا إنها لا تستطيع رؤية الصغار. وكان آنذاك عندي فيديا بسنِّ أربعة أشهر في القماط يهزّ برجليه على الأريكة، وهنا شاهدته على الفور فجثت على ركبتيها أمامه وقبّلت القماط...

وثمة نوع آخر من اللوم يوجّه إليَّ: «ماذا أردتِ أن تقولي بهذا النتاج الأدبي؟» فالأميركيون مباشرة بعد كل عرض لمسرحية «سينزانو» في ولاية كنتاكي، مدينة لويزفيل، عندما أخرج لتناول وجبة خفيفة، كانوا يعودون، يجلسون ويوجهون إليَّ سؤالاً: «ما هي فكرتك هنا؟» إنهم ناس محبون للمعرفة، مبدعو الوجبات السريعة على شكل دجاج مقلي، كينتاكي تشيكين. وآخرون، أكثر قراءة، معظمهم من المدرسين الجامعيين، يأتون من الجانب الآخر: «أين هو بطلكِ الإيجابي؟ أين مُثُلُكِ؟».

اضطررت إلى التذرّع ببعض الأشياء التافهة مثل: «بطلي الإيجابي يجلس في القاعة، إنه المتفرجون». - «ولماذا؟» - «هكذا بكل بساطة... فإذا ما كان ثمة مئة شخص يضحكون معاً، هذا يعني على الفور أنهم فهموا شيئاً ما. وإذا ما فهموا - فهُمْ أذكياء ويتمتعون بروح الدعابة. وهذا يعني أيضاً، أنهم قرؤوا ما أراد المؤلف قوله بين السطور». - «وماذا أردتِ أن تقولي؟» - «إنه ما ستفكر به عندما تصل إلى المنزل». - «ولكن ماذا عن القرّاء؟» - «والقراء يفهمون، لا تقلق. لو لم يفهم القراء كُتّابهم، لما أمكنت طباعة العمل لعدة مرّات، ولما ظهر ثمة قراصنة للكتب».

نعم، نسيت أن أقول: إنَّ الكاتب لا يكون موجوداً إلّا عندما يكون لديه قرّاء. وهناك أمثلة معاكسة، لم يدرك فيها الفرد أنه كاتب -في سبيل المثال، كافكا، العامل البسيط الذي أوصى بحرق جميع مخطوطاته التعيسة، ولكن صديقه لم يُعِر انتباهاً لذلك، وطبعها... ولكن هذا أمر نادر الحدوث. كافكا يتطلب التفكير، وكان بالإمكان تماماً أنْ يجد شخصاً غير صديقه هذا الناكر للذات لقراءة هذه النصوص الصعبة على الفهم.

وثمة أدب، مخصص لتعطيل التفكير مؤقتاً. والانقطاع عن العالم. وهذا مهم أيضاً. شيء من قبيل التأمل. كي لا يجلس المرء في وضعية زهرة اللوتس في اليوغا ويسترجع ما في عقله كما تفتح سمكة الكارب الصغيرة فمها وتغلقه في الحوض، بل يقرأ أجاثا كريستي أو كلارك. أو كتّابنا. «انتصار مريض نفسي». «مريض نفسي يستعيد سلوكه». يقرؤها المرء - فيمرّ الوقت، وكأنه لم يكن. هذه هي السعادة بعينها لبعض الناس. أنا أتكلم بجدية. مثلاً عند الأرق، أو المشاكل وعند الحزن. في هذه الحالة، إذا علِقَت الحياة في طريق مسدود ودخل المرء في مأزق، فمثل هذا الأدب (أو موسيقى التوكتوك، الشبيهة بنبضات قلب لاعب كرة القدم أمام المرمى)، أو المسلسلات التلفزيونية الطويلة، أو ألعاب الكمبيوتر كأداة مساعدة على النوم ليلاً - هذا مهم. فالكثيرون يصعقون

أنفسهم بطرق عديدة مثلما يصعقون السمكة - لتطفو إلى الأعلى على بطنها وهذا كل شيء. كلما كان ذلك أسرع، كان أفضل.

لكن بعض الناس يعتقدون أحياناً أنهم يحبون التفكير. وهنا، على وجه الخصوص، تكون القراءة لمثل هذه اللحظات. فبالنسبة للذي يفكر، كلما أعطيته مسألة أصعب، يكون ممتناً لك أكثر.

والناس حتى إلى المسرح يذهبون لأسباب مختلفة: قسم منهم يذهب لينسى - والقسم الآخر - ليتذكر.

وبالنسبة لمثل هؤلاء الناس فإن الحقيقة (التي وصفها بوشكين وليرمونتوف وشكسبير)، ليست مهمة جداً بقدْر أهمية التأمل، والتحدث مع الذات، وتسوية الموقف مع الذات. وحسم مشكلة ما.

لديَّ أيضاً مثل هؤلاء القراء الذين لا يعملون على حلّ مشاكلهم، بل يروق لهم ببساطة أن يتحدثوا عنها. فهُم، مثلاً، يعتقدون أن هذا هو الشعر، ويقولون، هذه هي حالاتي الفظيعة. وحتى إنهم في بعض الأحيان يكتبون عن ذلك مقالات في الصحف. وأنا ممتنة جداً لهؤلاء الناس.

* * *

قبل مدة قصيرة، اقتربت مني سيدة لطيفة، طبيبة نفسانية من لندن، وقالت إنها ستكون تلميذتي في المسرح، وما هي النصيحة الأولى التي يمكن أن أقدمها لها. (والحبكة، بالمناسبة، في الوقت نفسه).

أعطيتها الحبكة على الفور، أمٌّ تزوجت. الجميع عالجوا هذا الموضوع، بدءاً من إسخيلوس وحتى شكسبير وفامبيلوف. الموضوع لا ينضب.

- والنصيحة، قدمي لي نصيحة، - أصرت السيدة.

كانت مخمورة قليلاً. وجميع الحاضرين كانوا، تقريباً، مثل حالتها. كنّا نحتفل بافتتاح معرض الفنان الرائع م. روغينسكي الذي توفي مؤخراً. وقد جرت الحادثة في ورشة عمل شخص آخر.

لم يكن من الممكن التنصل من الجواب في منطقة محدودة. أمّا أن أتأبّط معطفي وقبعتي فذلك يعني أني سألحِق إساءة بإنسان ضعيف لا ذنب له، مع العلم أنّها طبيبة. بالإضافة إلى ذلك، دعتنا كلنا إلى لندن وأعلنت أن هذا هو مهرجان «نساء روسيا».

جمعت كل قوتي وقلت:

- يجب أن تكون القضية غير قابلة للحل!

- ماذا؟ عذراً، ماذا قلتِ؟ قالت الطبيبة بشكل غير واضح.

- يجب أن يكون لديك مشكلة غير قابلة للحل في المسرحية!

اختلجت تلميذتي المُقبِلَة وخرجت.

هذه هي الطريقة التي يتشكَّل بها السبب الرئيس لكتابة المسرحية - فهناك مشكلة غير قابلة للحل، وستبقى هكذا، حتى يتمكن المخرجون والمشاهدون من التفكير في حلّها.

ومرة أخرى سأحاول أن أشرح أن كل نوع أدبي يتطلب وسائل تعبير خاصة به.

وكما توجد أجواء مختلفة وأوقات مختلفة في اليوم - توجد كذلك أنواع أدبية مختلفة. ففي فصل الصيف، في نهارٍ صحوٍ، وعندما تكون ثمة خضرة والنسيم عبِق وعليل، وعندما تترقرق المياه وتعلو في السماء سحابة رقيقة وخفيفة - هذا يشبه الحكاية القصيرة الممتعة. ويشبه النكتة، والقصيدة الفكاهية الهزلية القصيرة. ويشبه الكلمات المعادة صياغتها، والتي يجب إضافتها من أجل الفهم. هذا كله يمثل النوع الأدبي للنهار، النوع الأدبي لفن الحكاية والقصيدة الفكاهية.

وفي المساء، عندما تتطاول الغابة إلى الشرفة، ويرتفع القمر ثقيلاً وذهبياً، عندما تفوح في الظلام والرطوبة الرائحة الحلوة لزهور التبغ

الأبيض، ومن السماور يتصاعد الدخان الراتنجي - قد تكون هذه حكاية أخرى، طويلة وممتعة. حكاية لليل، ذات مغامرات، وأحزان، ولكن دائماً فيها انتصار في النهاية.

لأن هذا النوع الأدبي - الحكاية - يتطلب دائماً نهاية جيدة.

والشيء الآخر هو النوع الفني المعروف بالقصة. هناك قصة غنائية عاطفية، «المنزل ذو العلية» قصة تشيخوف، وهناك قصة غنائية وهزلية ساخرة، كما هو الحال عند أو. هنري. وهذا كله - مثل أمسية طيّبة على الشرفة الأرضية، وحديث ممتع مع الأصدقاء، وحوار مع إنسان لطيف، وفراق ورحيل، ربما إلى الأبد.

لكن القصة الحقيقية - هي نوع أدبي للنوم الثقيل. إنها مثل ضربة الشمس. يتطلب المرء بعدها وقتاً طويلاً لكي يصحو منها. بعدها لا بدّ من التذكر والتفكير. إنها تلتصق في ذاكرتك ولا تغادرها أبداً، وتصبح حقيقة في حياتك. القصص العظيمة في القرن العشرين - قصة «التنفس الخفيف» لبونين، و«قصة السبعة الذين أُعدموا شنقاً» لليونيد أندرييف التي حلمت بها في المنام مرات كثيرة، وجدتي بعدما خرجت من الشاحنة إلى الإعدام ربطت الأوشحة للجميع على الرقبة وقبّلت الجميع بقوة... وقصة نابوكوف «الربيع في مدينة فياليت» وقصة بلاتونوف «العودة». القصة نادراً ما تنتهي بشكل جيد، هذه هي طبيعة هذا النوع من الأدب. إنها تثير البكاء.

الرواية لا تنتهي لا بشكل جيد ولا بشكل سيّئ، إنها تدوم كالحياة، هذا النوع مفضّل، إذ تُرتِّبينَ أموركِ فيه بشكل مريح ومن ثم يمكنك أن تبدئي قراءته ولو على شكل مقاطع. وحتى كتابتها تتطلب وقتاً طويلاً، أحياناً يقتل الكاتب نفسه، كما قتل مارسيل بروست نفسه بالعمل الذي لا يطيقه الإنسان المريض، بعد أن ألّف رواية «البحث عن الزمن المفقود» العظيمة التي تعدّ أصعب كتاب في القرن العشرين. وكما أنهكَ بولغاكوف نفسه واستنفد قوته، عندما عمل حتى الرمق الأخير على

روايته «المعلم ومارغريتا». ومثل جويس – الذي ظل لسنوات عديدة وهو يُملي روايته الأخيرة «يقظة فينيغان»، وهي نصوص غير مفهومة تماماً، إذ أمضى الباحث البولندي م. سلومتشينسكي من أجل فك شفرة فصل واحد فقط من هذه الرواية عشرين عاماً... لقد فقد جويس بصره تماماً في عمله هذا وسرعان ما توفي. إنَّ حلَّ لغز هذا النص الغريب، في رأيي، قريب المنال وسهل – فقد جُنَّت لدى جويس المسكين ابنته العزيزة، وحاول، ربما، أن يكتب رواية بلغتها، باللغة التي فيها جميع الكلمات المنفصلة مفهومة، لكنها معاً لا تعني شيئاً – أو تعني كل شيء.

حاولي أن تؤلِّفي عبارة لا تعني أيَّ شيء. لن تنجحي. لقد أدرجت بطريقة أو بأخرى مثل هذه النصوص في مسرحيتي «بيفيم». لكنها كانت تشير ببساطة إلى الصدى في الميكروفون، وإلى عدم الوضوح. بينما كتب جويس رواية كاملة!

وهناك المسرح. ففي نوع المسرحية الشيء الأكثر أهمية، وإن بدا هذا غريباً، هو أن يضحك المتفرج في التمثيلية – حتى النهاية تقريباً. وفي النهاية، ينبغي أن تسمح له بالبكاء. هو ذا جنس الدراما – سواءً التراجيدية أو التراجيدية الهزلية – لا ينبغي تأليفه بعنوان فرعي. مثلاً، النتاج الدرامي «أحلام في حديقة التفاهات»، وبين قوسين «ملهاة مأساوية». لأنه إذا كانت هذه ملهاة مأساوية، فهي ليست نوعاً أدبيّاً، بل حظ ونجاح. نتج عنه جنس أدبي وليس ملهاة مأساوية اعذريني، كيف تكون ملهاة مأساوية، إن لم يتهيج المتفرجون حتى ولو مرة واحدة، ويعودون إلى منازلهم كما كانوا، بأحاسيس جديدة على شكل زجاجات «بيبسي» وكعكة مشبوهة في المعدة من تلك التي تباع في المسرح؟

وما هي، مثلاً، الأجناس الأدبية لليل؟ الليل بالنسبة لبعض الناس وُهِبَ للنوم العميق، ولآخرين – وُهِب للولائم وللتنزه، ولصنف ثالثٍ من الناس – وهِبَ للذكريات، وللرسائل غير المكتوبة والدموع، ولصنف رابع – وهِبَ للأفكار الدفينة السيئة وللخطايا.

نوع النوم العميق الممتع أُعرِّفه على أنه الرواية الطويلة، ونوع الولائم والتنزه - هو الكوميديا (المتضمنة في كثير من الأحيان وجود صلة مباشرة لتاريخ مرض أو تقرير للشرطة)، ونوع الأفكار الخفيّة - كما تعلمين، هو النتاجات البوليسية الخفيفة، أو الأصناف الإباحية الخليعة ومقالات الغزل والمداعبة القصيرة في المجلات الرجالية.

لكن الحب والذكريات والدموع - فهي القصة.

واتركي لكل نوع أدبي وقته. وسيكون لها جميعها مكان على رفّ الكتب.

ولكن ماذا يحصل للكاتب الذي أجهش بالبكاء، بعد أن كتب قصة له عن الحب؟ كيف يمكنه أن يعزي نفسه؟ وبأيّ شيء يمكن تهدئتها؟

كان لي مثل هذه الطريقة عندما كان أطفالي جميعاً لا يزالون صغاراً. ينبغي عليكِ فقط أن تقصي على الأطفال (على كوزيا وميشيبوتام وأوتيا وميش والصبي الخنزير الصغير بطرس الأكبر، وكذلك على كُنَيْغر، الذي لا يزال جالساً في اللفة) - تحكي لهم حكايات قبل النوم! ومن ثم، في الصباح، إذا أمكن، اكتبي هذه الحكاية الخيالية، و-في يوم ما- انشريها...

أما بالنسبة للقارئ - فهو لا يتذكر الخير، ولا يتذكر الحكايات. تتأرجح في قلبه المسكين القصة التي قرأها أو المسرحية، كالهسهسة. والقراء يوبخون الكاتب بمرارة، ولا يغفرون له، ولا ينسون... أحياناً لمدة طويلة.

شكراً لهم.

أبقى مخلصة لكِ

ليودميلا بيتروشيفسكايا

البداية

عندما أفكر في الجنس البشري، فإني لا أتخيّله في شكل شجرة أنساب لها فروع.

الجنس البشري يبدو مثل الغابة، إذ يُرى من بعيد - وعلى شكل سلسلة من «الأشخاص- الأشجار» الذين يمسكون بعضهم بعضاً بالأيادي. لسبب ما هكذا تصورتهم. إنهم يقفون هناك، في ضباب الزمان والقرون، الأجيال السابقة - أشجار كثيرة الأيدي. وكل سلف يتصل بالفروع من أحد جانبيه مع الوالدين، ومن الجانب الآخر يتصل مع الأبناء. وكل رجل هو الأب وهو الابن في الوقت نفسه، وهو في حدّ ذاته الوحيد في هذا العالم. وكل امرأة منهن – هي طفلة أمها وأم ابنتها أو ابنها وفي الوقت نفسه مخلوق منفصل لا يشبه أيّ شخص. وكل فرد واحد في ثلاثة أشخاص – ابن ووالد وإنسان.

وطالما أنَّ الذي في المركز قويٌّ، فهو يدعم كلا الجانبين، مَن يقفون قبله، ومَن قاموا بعد ذلك على حدٍّ سواء. وهذا المركز ينتقل مع القرون. يضعف الإنسان، فتتحول قوته إلى الجيل القادم. ويذهب عقله وعلمه معه، لا يمكن أن ينتقل، أما الصفات فيمكن أن تتحول إلى الأحفاد - كالمثابرة، وحتى العناد الوحشي على حساب النفس؛ وقوة الروح؛ والاعتقاد بوجوب التشديد والصرامة في الطعام، ولزوم استعمال الماء البارد للاغتسال؛ والنهم والشراهة في أيام العطل والأعياد؛ ومعارضة السلطات والاختلاف معهم؛ والأمانة في الموقف حتى مع الإضرار

بالنفس وبالأقرباء؛ والعاطفية، وحب الموسيقى والشعر ونبذ التفاهات؛ والأمانة الشديدة والاستحالة الكاملة للوصول إلى مكان ما في الوقت المناسب؛ وطهارة الأفكار والرغبة في مساعدة الجميع وكراهية الجيران؛ وحبّ الصمت وارتفاع صوت الصراخ عند مناقشة القضايا المعاشية؛ والقدرة على العيش من دون المال والإسراف المحموم في الإنفاق على الهدايا؛ والضوضاء المطْبِقة في المنزل والمطالَبة الصارمة للأهل من أجل تنظيف مخلفاتهم- وحبّ الأطفال الذي لا حدود له، وخاصة وهم نائمون في نضارتهم كلها وزهوهم كله.

ماتت آسيا أم جدتي من الإنتان (تعفن الدم) في سن السابعة والثلاثين، تاركةً ستة أطفال. ذهب زوجها، جدي الأكبر إيليا سيرغييفيتش، وهو طبيب، إلى النهر ليلقي بنفسه. حسِبَ نفسه مذنباً بوفاة زوجته. ركض الأطفال الخمسة كلهم خلفه، ولحقوا به إلى الشاطئ، وتشبّثوا بوالدهم، وأوقفوه. وكانت فيرا كبيرتهم تحمل الطفلة الصغيرة. عندما دفنت الوالدة آسيا، سارت الابنة فاليا، (جدتي المستقبلية) التي كان عمرها آنذاك ثماني سنوات، خلف والدها كالظل، تخطو على خطاه، وتتمتم مع نفسها: «سأبقى حياتي كلها أسير على خطاك».

وفعلاً، انخرطن كلهن تقريباً في العمل في التنظيم السري، فقد كان الجد من البلاشفة، مناضلاً من أجل حقوق المظلومين. كان يعمل عادة بصفة طبيب في إدارة أحد المصانع، وتدفق عليه المرضى الفقراء من البلدة والقرى المحيطة. ولم يكن يتقاضى نقوداً مقابل العلاج على الإطلاق. ولا يستلم سوى الراتب الشهري. في الأساس، كان يستقبل جميع المحرومين، بينما واجبه ينحصر في علاج المراجعين من ملاكات المصنع فحسب. ولذلك، عادة، ما كانوا يقومون بفصله بأسرع وقت، وكان يجد عملاً بشكل رئيس في المناطق التي تنشب فيها الأوبئة - كالكوليرا والطاعون - حيث يُقبَل للعمل هناك جميع الأطباء، حتى المنفيون.

بمجرد أن بدأتُ أتكلم، جعلتُ أناديه ديديا.

فيغيرا

ولدتُ في فندق «متروبول» الشهير في موسكو، الذي كان يُعدّ المقرّ الثاني لمجلس السوفيات، فقد شغل الغرف الفندقية فيه قدامى البلاشفة، بما في ذلك ديديا، إيليا سيرغييفيتش فيغير، والد جدتي، العضو في حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الروسي منذ عام 1898. وكانت تسكن في الفندق نفسه ابنته، جدتي، فالنتينا إلينيتشنا ياكوفليفا، بعد طلاقها من زوجها نيكولاي سيرغييفيتش ياكوفليف، وهي أيضاً عضو في الحزب منذ عام 1912، مع ابنتيها فيرا نيكولايفنا وفالنتينا نيكولايفنا، والدتي في المستقبل. والثلاث كلهنَّ، كما يقال في الحكايات، كُنَّ رائعات الجمال. فقد لاحق جدتي فاليا (فالنتينا)، الشاعر ماياكوفسكي الذي كان شاباً آنذاك، وغازلها، لكنها فضلت الطالب كوليا (نيكولاي) ياكوفليف. كبرت ابنتهما فافا (فيرا) لتصبح أجمل فتاة (ابتسامة تُنبئ عن أسنان كبياض الثلج، وضفائر طويلة، وعيون زُرق) في أكاديمية المدرعات، وكانت والدتي ذات الأربعة عشر عاماً، لأنها فتاة طويلة جدّاً، عندما تخرج إلى الشارع، دائماً ما تثير انتباه المعجَبين، وخاصة الجنود، إضافة إلى ذلك كانت تجيب بكل سرور عن الأسئلة التي يطرحونها، مثل ما اسمكِ وأين تسكنين، لكنها لم تذكر عمرها، وهذا ما أزعج أمها وأختها. في العائلة، كانت والدتي تدعى لوليا، وكانت هي الصغرى، ودائماً ما عُدَّت طفلة عديمة الخبرة. على الرغم من أنها استمرت في الدراسة بمثابرة، فقد قرأت العديد من الكتب في المدرسة وفي كليتها الأدبية. وكانت على الطاولة، التي تقرأ عليها، أكوام من المجلدات (عن العصور

الوسطى وحدها لديها ثلاثة من كتب المختارات الضخمة). لقد انهمكت في الأدب بجدية إلى درجة اعتبرت فيها القراءة العادية بمثابة الكفر والتجديف. وقد تحدثت لوليا عن ابنة أخي الزوجة الثالثة لجدها (ديديا)، التي في أيام المجاعة الأكثر شدة غالباً ما تأتي إلى ديديا في فندق «متروبول» من أجل الكتب، وقالت: «حسناً، بالطبع، إنها من نمط فتيات روايات تورغينيف تجلس على مسطبة عند البركة والرواية في يديها». لكن البنت، في الحقيقة، كانت تبقى لكي تتناول طعام العشاء.

الأدب بالنسبة للوليا الشابة يمثّل موضوعاً للدراسة! ففي سرّها، كانت تحب ماكسيم غوركي الشاب.

ولكن اتضح أن لوليا، فتاة ساذجة وجادة وبريئة تماماً، فقد حَبِلَتْ في عيد ميلادها، 23 أغسطس (آب) 1937، في البيت الريفي الصيفي في منطقة سِريبريني بور في ضواحي موسكو.

فقد سمعتُ في طفولتي بأُذنَيَّ، أنها قالت لغرانيا زوجة البواب لدينا، الحامل في شهرها الثامن، التي كانت تشتكي من أنّها لم تتمكن من الحمل لمدة طويلة. كنا واقفتين عند البوابة، ضحكت أمي، وأشارت إليَّ: «هاكِ انظري، من أول مرة...»

خلال ذلك الصيف كانوا يعيشون في سِريبريني بور.

وكان ذلك المنزل الريفي الصيفي الحكومي يسكنه فلاديمير إيليتش فيغير الأخ الأكبر لجدتي، وهو من قدامى البلاشفة، ومسؤول الخلية الحزبية لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي في شارع كراسنايا بريسنايا في موسكو، وأحد منظمي انتفاضة كراسنايا بريسنايا الشهيرة ذات المتاريس في عام 1905. كان اسمه الحركي السري ابن حوض الفولغا.

(أنا أعمل حالياً بين محطات مترو «باريكادنايا» و«شارع 1905»، ولا أحد يعرف أنَّ كل هذه الأعمال لشقيق جدي فلاديمير إليتش، هذه الحجارة المقلوعة للرصيف والمتاريس، كل هذه التماثيل التي نُصِبَتْ

فيما بعد، مثل تمثال «الحجر - سلاح البروليتاريا». وحتى الآن، حركة المرور في موسكو لا تزال مستمرة من الحجر التاريخي المتروك خصيصاً بين ساحة فوستانيا (الانتفاضة) ومحطة مترو «باريكادنايا» (المتاريس).)

ابن حوض الفولغا، بالمناسبة، قَبِلَ في صفوف الحزب الشاب المراهق ماياكوفسكي ذا الخمسة عشر عاماً، وبعد ذلك دخل سجن بوتيرسكايا ونتيجة لذلك غادر صفوف الحزب.

جعل ماياكوفسكي يتردد إلى منزل فلاديمير إليتش - ابن الفولغا، والتقى هناك بأختيه الصغيرتين، فيرا وفاليا فيغير. وسرعان ما وقع في حب فاليا.

شاعت أسطورة في عائلتنا أن ماياكوفسكي وبرليوك كانا يخرجان من هذا المنزل وهما يرتديان بلوزتيهما الشهيرتين، ماياكوفسكي في بلوزته الصفراء وبرليوك في بلوزته الأرجوانية. وأخبرتني أمي أن الأولاد أخذوا البلوزات من أخواتها - لكن البنتين كانتا صغيرتين، وماياكوفسكي ضخم. لهذا أشك في الأمر. ربما الرجلان حاولا قياس البلوزتين عليهما من أجل المزاح والضحك؟ والحقيقة هي أن البلوزات التي ترتديها الطالبات في ذلك الوقت، كانت سميكة وناعمة وذات طيات (ثنيات).

وقالت أمي أيضاً إنها في عام ثلاثين، كانت هي وأمها تركبان الترام، وصادفتا ماياكوفسكي هناك. فقالت جدتي لماياكوفسكي: «هذه ابنتي». كان الشاعر يبدو منهكاً إلى حدّ ما، ومتعباً. كانت تلك السنة الأخيرة من حياته.

* * *

في عام 1937 بنى فلاديمير إليتش - ابن حوض الفولغا لنفسه منزلاً ريفياً في ضاحية الكيلومتر الثاني والأربعين على الطريق إلى كازان في تعاونية العاملين في المجال العلمي، وأعطى المنزل الريفي الصيفي الحكومي في مرج سِريبريني بور إلى أخته فالنتينا (جدتي المستقبلية) وبناتها.

جرت في الربيع من تلك السنة الملعونة حوادث رهيبة. ففي مايو (أيّار)، ألقي القبض على جينيا فيغير شقيق جدي وأخضِعَ للاستجواب، وهو عضو في المكتب السياسي للحزب في أوكرانيا، وسكرتير اللجنة الإقليمية لمدينة أوديسا، واعتقلت كذلك أخته لينا فيغير وأُعدِمَت رمياً بالرصاص (أدارت لسنوات السكرتارية لدى كالينين). وألقي القبض على زوج آسيا، شقيقة جدتي، وأعدِمَ، وأُلقي القبض على آسيا نفسها بعد سنة تقريباً، وقضت سنوات عديدة في الغولاغ (معسكرات الاعتقال). إنَّ الحكم بالإعدام آنذاك كان يُدعى «عشر سنوات من دون حق المراسلات».

وقُدِّرَ للباقين أن ينتظروا الزائرين المفاجئين، ويُعتَقَلوا في أيّ لحظة. كان ذلك تعذيباً بمعنى الكلمة.

وكل ليلة، يتراءى لجدتي أنها تسمع ضجة، كما لو أنَّ سيارة تتوقف في مكان ما على مسافة، من المنزل، وتُفتح البوابة، وتسمع بوضوح شديد خطى على الحصى...

في تلك السنوات، كان رجال الأمن في الليل بالذات يأتون لاعتقال الناس، ويختمون الشقق، وبعد ذلك لا أحد على الإطلاق يرى هؤلاء الناس المعتقَلين.

وفي كل ليلة، كان أحدهم يمشي بشكل واضح من بوابتهم إلى المنزل. ويُسمَع صرير حذائه على الحصى. لكن لا أحد يدخل المنزل. كان ينبغي عليها الانتظار. وباتَ من المستحيل عليها النوم. إذ كانت تخشى أن تخرج وتشاهد ماذا يحدث.

ذهبتْ إلى مراجعة طبيب نفساني. فقال لها: «ابقَي معنا، هنا ستكونين آمنة». وقد بقيت في المستشفى. وهذا، على ما يبدو، ما أنقذها. إذ لم يحدث القبض عليها مطلقاً.

كانت جدتي امرأة ذكية ورائعة بشكل استثنائي. عرفت أنهم يعتقلون الجميع - باستثناء المرضى النفسيين الذين يحملون شهادة تُثبِتُ ذلك.

إذ إنَّ زوجة جينيا فيغير، الشابة صولانج كورباتشيفسكايا، عازفة البيانو الجميلة، ونصف الفرنسية، أُلقي القبض عليها أيضاً بعد اعتقال زوجها - ولكنها جُنَّت في غرفة الاستجواب الليلي، فأُطلِقَ سراحها. عندما جاءها ديديا، جعلت تبكي بلا انقطاع، وجلست على السرير وقد شابَ شعرها وهي ما تزال في عزّ شبابها، واسودَّ وجهها. بدت منهَكَةً وجعلت تصرخ بكلمات غير مترابطة. كان الجد طبيباً. لكنه لم يبقَ عند سريرها، بل استدار وغادر من دون أن ينبس بكلمة. لا أعرف لماذا. ربما، هو نفسه شعر في داخله أنه يريد كذلك أن يصرخ طوال هذا الوقت، لكنه أحجم عن ذلك. بينما هي، المجنونة، كانت حرة في إطلاق صرخاتها. فقد كان جينيا أمله، ومحل فخره (لم يتواصل مع أخيه الأكبر، فولوديا، منذ الثورة)، وكانت لينتشكا - الابنة الصغرى المفضلة لديه. ربما، لم تكن ثمة قوة بشرية لتحمّل هذا الصراخ.

كان قدَر الكنّة صولانج اللاحق رهيباً - فقد أخذتها والدتها هي وابنها الصغير، ورحلت بهما إلى أوكرانيا. بدأت الحرب، وجاء الألمان النازيون. فدُفِنَتْ صولانج مع ابنها وأمها، أحياءً، جنباً إلى جنب مع طابور من اليهود من الغيتو في مقبرة جماعية.

لكنَّ ذلك حدث في وقت لاحق.

يبدو، أنَّ صولانج قد سُجِنَت في ذلك الوقت، في صيف عام 1937، ولم تَرد أيّ معلومات عن لينيتشكا وجينيا وزوج آسيا (صيغة الحكم نفسها، «من دون حق التراسل»). فقد اعتقل جينيا ولينيتشكا في 23 و24 مايو (أيّار) من عام 1937. أُعدِمَتْ لينيتشكا رمياً بالرصاص في 3 سبتمبر (أيلول) وأُعدِمَ جينيا في يوم 21 نوفمبر (تشرين الثاني).

قيل لي فيما بعد إن الذين ظلّوا متماسكين لمدة أطول، ولم يعترفوا بالتجسس، ولم يوقّعوا على أوراق تُدينهم، فإنَّهم يُعَذَّبون أكثر ويُعدَمون فيما بعد.

اختبأت عائلتي المستقبلية في ذلك الصيف الرهيب في البيت الصيفي

في ضاحية سِريبريني بور. ففي بعض الأحيان كان الناس يغادرون منازلهم، ولم يعثر عليهم رجال المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية.

قالت لي أمي إن ستيفان (والدي المستقبلي، أيضاً، مثلها، طالب في معهد موسكو للفلسفة والآداب والتاريخ، ولكن ليس في كلية الآداب، بل في كلية الفلسفة) جاء إليها في ذلك الصيف إلى البيت الريفي في ضاحية سِريبريني بور... ولم تحدد في أيّ وقت حدث ذلك وأين التقيا. على ما يبدو، في المساء وخارج المنزل.

وفي وقت لاحق علمتُ أن أبي ولد في محافظة نيكولايفسكايا، في بلدة روغاتشيكي العليا، وقد عانى الكثيرون من أفراد عائلته الكبيرة (قال ذلك لي أشخاص آخرون)، من مرض السل. وقد وصل إلى موسكو مريضاً، لا يملك شيئاً، مثل ميخائيل لومونوسوف (العالم الروسي الشهير، مؤسس جامعة موسكو الحكومية، الذي عاش في القرن الثامن عشر)، ودخل الكلية المخصصة للعمال بصفة فقير من المناطق الريفية يتمتع بمهارات غير عادية، وبعد ذلك دخل معهد موسكو للفلسفة والآداب والتاريخ. لم يكن لديه مسكن خاص به. وعلى الأرجح لم يراجع الأطباء. ربما، خشي أن يودَع في المستشفى، الأمر الذي سيتسبب له بخسارة سنة دراسية. وظل يسعل الوقت كله. كان طويل القامة، مجعد الشعر، وسيماً.

إنَّ أمي، الطالبة المثابرة في كلية الآداب، الجميلة، المتحفظة، الجادة، لم تكن تفهم أيّ شيء في الحياة، وكانت دائماً تنكبّ على قراءة الكتب. بالإضافة إلى ذلك، تعيش عائلة هذه الإنسانة الرقيقة المحبوبة في أفضل منزل في موسكو، في فندق «متروبول». وكانت والدتها تعمل سابقاً في الكرملين، ثم في لجنة العلوم. وأختها تدرس في أكاديمية المدرعات. لذلك، ربما، كان والدي المستقبلي يخشاهنَّ جداً.

ولذلك فمن الممكن أنَّ ستيفان كان يأتي في الليل خلسة إلى حبيبته، متخفياً من والدتها وشقيقتها، ويسير، على ما يبدو، كاللص الليلي من

آخر محطة للترليبوس إلى البوابة، ثم يرمي الحصى على نافذتها ويدعوها إلى الخروج للقاء به. هكذا أعتقدُ، أنَّ هذه هي حقيقة الخطوات، التي لا تنتهي أبداً بطرق على الباب!

كانت جدتي صاحية تماماً من الناحية العقلية.

هذا هو تصوري لتلك الحوادث.

فعلى أيّ حال، كانت هناك خطوات، ولكن لم يُعتقل أحد من أقاربي ويُنقَلُ إلى لوبيانكا (مقرّ المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية، ومن ثم مقرّ المخابرات، في ساحة لوبيانكا).

باختصار، لقد ولدتُ في 26 مايو (أيّار) من عام 1938، بعد تسعة أشهر تقريباً من عيد ميلاد والدتي.

ولحسن حظي لم أُترَكْ في شقة مختومة، كما كان يحدث عادة مع أطفال المعتقلين، ولقد نشأتُ عند جدتي على وقع أصوات النصوص العظيمة من الأدب الروسي، ولكن هذا ما سأتحدث عنه فيما بعد.

* * *

وبعد عامين تقريباً من تلك الحوادث التي وصفتها، عاد أقاربي إلى المنزل ورأوا أن الباب المؤدي إلى غرفهم ما زال مختوماً. وهذا يعني، أنَّ جدتي وصلت قبلهم، وجعلت تطرق الباب، ولَم يُفتَح لها، فقفلت عائدةً، وغادرت تلك الشقة نهائيّاً، من دون أن تنبس ببنت شفة...

اقتربت فافا، التي كانت تسير من الخلف، من الباب ورأت هناك على المقابض لُفَّ سلك، وعلى السلك معلّق ختم.

ربما، لو أنهم عادوا إلى المنزل في وقت سابق، لكانوا قد اعتُقِلوا بالفعل. لكنهم تأخروا كالعادة. عائلتنا تتأخر إلى الأبد، من جيل إلى جيل.

لقد اختفى من منزلهم، من فندق «متروبول»، العديد من الناس.

لذلك ودَّعَتْ فافا جارتها الساكنة في الغرفة الملاصقة لجدار غرفتهم، التي لا تتذكر لقب عائلتها بالضبط، ربما لقبها كاليغينا أو لقب مشابه له. كانت سكرتيرة اللجنة الإقليمية وكثيراً ما جاءت إلى موسكو إلى غرفتها في فندق «متروبول»، مع فريق مكوّن من عدد من المساعدين الذكور.

في تلك المرة، دخلت فافا الشقة ورأت جارتها، برفقة اثنين من الرجال: أحدهما يرتدي بدلة عسكرية يسير أمامها، والآخر في ملابس مدنية يسير خلفها.

ألقت عليها فافا التحية بفرح. حوَّلت كاليغينا وجهها عنها وعضَّت على شفتيها.

وقالت فافا لأمها:

- اقتيدت آنّا ستيبانوفنا بين رجلين.

لم تُعِر جدتي لها بالاً، وحتى لم تومئ برأسها.

***

لقد خرجوا من دون الملابس والحاجيات والكتب، بعد أن فقدوا الأثاث والبطانيات والأواني، ناهيك عن اللوحات، وجاؤوا إلى ديديا، إلى إيليا سيرغييفيتش فيغير، في المدخل المجاور لفندق «متروبول»، واستقروا معه.

أتذكر شقتنا تلك السابقة في «متروبول»، كانت غرفتين متجاورتين مع باب في الوسط، وفوق الباب لوحة: رأس أنثى جانبي برقبة منحنية وشعر أشقر فاتح في شكل خوذة على خلفية زمردية.

عائلة آل ياكوفليف

أكدت أمي فيما بعد، أن على الجزء العلوي الأيسر من الباب علِّقت صورة لأم جدتي من طرف أبي، وأنا أعرف الآن أنَّ اسمها، ألكسندرا كونستنتينوفنا ياكوفليفا، التي كانت كنيتها قبل الزواج أندرييفيتش - أندرييفسكايا، وهي إقطاعية وصاحبة الأرض في قرية بولغارين في محافظة قطعات قوزاق الدون. وفي ضيعتها، وفقاً لحكايات الأسرة، علقت وثيقة في إطار تؤكد أنَّ سلفها، أندرييفيتش، نال في بلاط الملك البولندي زغمونت أوغست لقب فارس وأصبح من النبلاء. ويُزعَم أنَّ التاريخ مثبَّت فيها، في القرن السادس عشر. ووفقاً للسيرة التي ترويها العائلة، خدم الأخوة أندرييفيتش، وهم من القوزاق، بصفة سائسين للخيول في إسطبلات الملك زغمونت. وأوقف أحدهم الحصان الذي كان يحمل الملك أثناء العدْو، فمنحه لقب شريف أي نبيل. وخَلَفَه ياكوف ماكسيموفيتش أندرييفيتش، المعروف بأنه أحد المشاركين في انتفاضة الديسمبريين، وكان عضواً في جماعة سرية. امتاز ياكوف في سجن الأشغال الشاقة بوصفه رساماً من الهواة، وبقيت صورته محفوظةً في لوحة من عمل ن. أ. بيستوجيف رسمها في مصنع بتروفسكي (النسخة الأخيرة وصلت إلى متحف موسكو للمجموعات الخاصة). صُوِّرَ فيها ياكوف ماكسيموفيتش أندرييفيتش يحمل بيده الفرشاة. وقد أمضى مدة محكوميته في سجن تشيتينسكي، ثم في مصنع بتروفسكي. ثم نُقِلَ إلى الاستيطان في فيرخنودينسك، عندما أُصيب بمرض نفسي لا أمل في الشفاء منه. وتوفي ياكوف أندرييفيتش عن عمر ناهز 39 سنة، بعد أن أمضى 14 عاماً في السجن.

أندريفيتش الثاني، غوردي، اعتقل للاشتباه في تورطه بالانتماء إلى جمعية سرية، وحُبِسَ في قلعة بيترو بافلوفسكي في بطرسبورغ، ولكن أطلق سراحه.

* * *

إنَّ صورة ألكساندرا كونستنتينوفنا فوق باب شقتنا رسمها فالنتين ألكساندروفيتش ياكوفليف، وهو فنان من جماعة «صالون موسكو» – هو ابن عم جدي، نيكولاي فيوفانوفيتش ياكوفليف.

توفي فالنتين شاباً في عام 1919. الآن يُحتَفَظ بأعمال فالنتين ياكوفليف في متاحف مدينتي فارونيش وأومسك. في الآونة الأخيرة كان هناك معرض في غاليري «الفردوس»، حيث جُمِعَت بعض الأشياء الخلابة المتبقية من أعمال فالنتين ياكوفليف. ولم تبقَ لدينا محفوظة سوى لوحة «كيبيدون وبسيخيّا»، وهي رسم بالألوان الزيتية على الورق المقوى. لقد ترعرعتُ تحتها، وهذا هو الشيء الوحيد، إذا لم نحسب رفّ الكتب، الذي بقي عندنا من جدي كوليا. فبعد أن أصبح أستاذاً في الجامعة، جمع نسخاً نادرة، والطبعة الأولى من أعمال بوشكين، والكتاب المقدس، وتحفاً نفيسة. وكل هذا قد اختفى.

تزوجت جدتي من جدي وهي صغيرة، وحتى جدي كان لا يزال شاباً يافعاً بعد، فعندما تخرج في الجامعة، كان لديه ابنتان.

الجدة شورا (ألكساندرا)، حماتها، كانت تسكن في موسكو – شارع أوستوجينكا، زقاق لوبوخينسكي، في بيت منفرد خاص فيه حديقة. وعندما أحضر ابنها كوليا (نيكولاي) زوجته الشابة فاليا (فالنتينا) إلى منزلها، حيث وفق التقاليد الأرستقراطية كانت تنام الخادم على صندوق في المدخل، فإنَّ فالنتينا البلشفية الشابة غير المعتادة على مثل هذا الطبع وهذه العادات عموماً، بقيت لعدة أيام جالسة لم تخرج من مكانها يمنعها من ذلك الإحراج – لأن أول شيء واجهته في المكان الجديد، كان القوزاقي، الخادم، الذي قفز في الرواق المظلم من الصندوق، وكأنه

روح شريرة (جنّيّ)، مندفعاً عند قدميها: كما اتضح فيما بعد، لينزع عنها حذاءها.

كانت الجدة شورا، الإقطاعية، تلعب الورق مع الضيوف إلى بعد منتصف الليل، وإذا لم يكن ثمة ضيوف - تلعب مع الخدم. افترقت عن زوجها، فيوفان فاسيليفيتش، وكانت لديه عيادته الشخصية (لعلاج الأذن والأنف والحنجرة)، التي كان يعيش فيها كذلك مع مساعدته الممرضة بوصفه الطبيب الأقدم، بعد أن أُعطي المستشفى للسلطة السوفياتية. نجل الزوجين ياكوفليف، جدي كوليا، درس في بداية الأمر في الجيمنازيا (وهي مدرسة ثانوية تولي عناية خاصة بالعلوم الإنسانية واللغات الميتة «اللاتينية واليونانية القديمة») الأولى، في شارع فولخونكا، دار 16، التي كان فيها المعلم المحبوب بالنسبة لجدي هو فلاديمير لوغوفسكوي المفتش ومدرس الأدب. ثم دخل جدي جامعة موسكو وكان يركب (وفقاً لحكايات العائلة) سيارته الخاصة ويعزف على الكمان. وقد نشأت شقيقته ماريا، بالطبع، وكبرت وغدت حسناء، وعزمت أمرها على أن تكون ممثلة. وأصبح أخوه بافل ضابطاً (في أيام الحرب الأهلية ترك الحرس الأبيض وغادر إلى تركيا، وقضى أيامه الأخيرة في شيخوخته سائقاً لسيارة أجرة في باريس، وقد زارته ماريا هناك).

ومرة أخرى، وفقاً لحكايات الأسرة، بعد أن ذهب جدي، قبل الثورة، إلى ألمانيا في بعض الشؤون العلمية، جلب لزوجته من هناك حقيبة سلّمها له الروس، ولم يسألهم عمّا فيها. وكان فيها مليون من أموال الحزب. هذا ما جرى! ولم تكن ثمة عربة محشوة.

وولدت البنتان ياكوفليفا فيرا وفاليا هناك، في المنزل في شارع أوستوجينكا. وتعلمتا الخروج إلى الحديقة من خلال النافذة.

عندما انتقل الزوجان الشابان إلى الطابق العلوي من منزل في شارع نارودنايا الواقع في حيّ تاغانكا، أخذت الأم الطفلتين إلى الشقة

الفارغة، ووقفت هي في المدخل تنتظر الحمالين الذين كانوا ينقلون الأثاث إلى الطابق العلوي. النوافذ كانت مفتوحة في فصل الصيف.

ركضت البِكر، فافا، التي كانت تبلغ من العمر ثلاث سنوات، إلى الباب وجعلت تسحب تنورة الأم بإلحاح من أطرافها. وما كان بوسع الأم أن تترك السُّلَّم، إذ كان عليها أن تشير إلى الحمالين أين يضعون ما يحملونه. لكن فافا لم تتنازل، وظلت تجرّ التنورة وتبكي. أخيراً استسلمت الأم فاليا وسارت خلفها. فماذا رأت؟ رأت الطفلة لوليا واقفة على حافة النافذة وكانت على وشك الخروج من النافذة إلى الشارع (من الطابق الخامس)، كما اعتادت في البيت القديم.

هكذا أنقذت فافا حياة لوليا (وحياتي).

لقد حُفِظَتْ بأعجوبة يوميات صديق الجد في ذلك الوقت الشاعر والإثنوغرافي والمستشرق، والباحث في شؤون داغستان يفغيني شيلنغ. وبوصفه شاعراً، كان ينشر قصائده في مجلة رابطة فناني موسكو «ماكوفيتس» الشهيرة، وشارك في مجموعات من القصائد جنباً إلى جنب مع فِليمير خليبنيكوف.

لقد كان يفغيني شيلنغ رجلاً شديد التديّن، كرس واحدة من مسرحياته لبافل فلورنسكي، وقام بالتراسل معه وبعد ذلك زاره في مدينة سرغييف بوساد (في الدير) قبل اعتقاله. ألقي القبض عليه شخصياً في عام 1932 بوصفه جامعاً لمواد متحف شعوب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وبدأت «قضية جماعة المتحف». ولكنها توقفت بطريقة ما، إذ تحولت المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية إلى البتّ في قضية أكثر أهمية، هي قضية الفساد الصناعي. وتمّ الإفراج عن يفغيني شيلنغ.

تلك اليوميات كان يكتبها مرة في السنة، في نوفمبر (تشرين الثاني)، على شكل رسائل إلى صديق. وفقاً لروايته، إلى صديق بعيد – ربما إلى الملاك الحارس. لم يدعه باسمه ولا مرة واحدة. لكنه خاطبه بطريقة ما وكأنه قريب منه ومن خاصته، مثلاً، «يا صديقي».

كتابة تلك اليوميات تعود إلى 26 نوفمبر (تشرين الثاني) 1917، بالضبط عندما انتقلت أسرة ياكوفليف مع بنتيهما الصغيرتين إلى شارع نارودنايا. كان شهر نوفمبر(تشرين الثاني). جينيا شيلنغ زار كوليا وفاليا ياكوفليف. وهذا ما هو مكتوب فيها:

[وصلتُ وقت القدّاس. أقام القداس البطريرك كيريل تامبوفسكي.

حلَّ الغسق سريعاً. أويتُ إلى الفراش في المنزل... إذ توجَّب عليَّ أن أذهب عاجلاً أم آجلاً في سفر طويل، لأصل على كل حال إلى الزوجين مع أطفالهما. أمضيتُ المساء كله عندهم. استقبلوني على أحسن وجه، وسلّموا عليَّ، وقدموا لي قطعة من الكعكة، وللمتعة مثّلوا بداية رومانس أنتونيد من أوبرا «حياة من أجل القيصر» - «انقَضَّت حِدآن الشر»... وقد أجبروني على أداء دور الذي «انقضَّت» عليه الحدآن، وقاموا هم بأداء دور «الحدآن». خرج المشهد رائعاً بفضل صفاء نفوس المبادرين وبراعتهم في الأداء وقابلياتهم الموسيقية. ثم سار كل شيء كالمعتاد: جرى تنظيف كل شيء، وعاد الخدم، وأُشعِلَ المصباح فأضاء وجه المرأة المُنشِدَة. الصبايا الصغيرات يستمعن إلى الأم. من الواضح على الفور أنَّ المرأة التي تغني هي طالبة في كلية الآداب- وبدا الغناء والنص أصليَّين. حلَّ وقت النوم، فسألَت صبيةٌ: «يا ماما، حدّثيني عن أبناء الأرض!» يمكن للمرء أن يلاحظ على الفور أن هذه كانت حكاية «أدبية»، أو بالأحرى حكاية «جديدة». إنَّ طابع الحداثة في كلا الأمرين على المستوى الفني (أتحدث عن هذه الحالة فقط) يكمن في أزرار المعطف النسائي الحديث. يا له من إحساس بالراحة: مصباح، امرأة، الصبايا... إنهنَّ أطفال تماماً. أشعر أن رموشي تضايقها شبكة عنكبوت رمادية رقيقة: يجب أن ينتهي هذا. في مكان ما، تُنشِدُ رغوة حليب وردية اللون؛ وعيون تتوهج في القلب. يا له من إحساس بالراحة: إذا ما نظرت إلى كل شيء بنظرة صامتة، لكن من دون أن تصغي وتحدق ملياً. أبناء الأرض، يا له من رعب! قذًى ولمساتُ حداثة! كم هو قصيرٌ هذا الوقت وضيّق. لا يمكنك أن تبقى، وتدخل وتظل هناك. ديكورات الغرفة المرسومة مع تصوير

للطاولة والكراسي والمصابيح. كم سيصعب فهمهنَّ، هؤلاء الصبيات. ستكون لديهنَّ جباه، وربما، سوف تكون كجباه الميدوزات الخرافية. ماذا يختبئ خلف عيونهنَّ؟ ربما، تصوّرٌ لشيء من «المصلحة العامة» مرتبط بالشكل المضحك لقفاز الأم. لا يحتاج هذا العالم ليكون سعيداً سوى القليل من «دفء القلب»، بيدَ أني مؤخراً تعبتُ غاية التعب، ولا يمكنني أن أدخل الغرفة لملاقاة الناس - ويبدو أنهم يسعون لذلك. الجميع يقولون، انشغل بالعمل، ماذا عساك أن تفعل؟ هل ستعطي دروساً؟ هل يتطلب الأمر الكثير من الطاقة؟ أليس لديك وقت لذلك؟ أو: وهل كنت هناك وهناك؟ مع من؟ يا صديقي، ألا تعرف أيضاً، من بين أمور أخرى، لماذا يبدو المنتصرون (هكذا كان «البلاشفة» يُدعَون هنا) أناساً، قد تناولوا الغداء مرتين؟ اغفر لي هذا الهراء، ليس لديَّ صديق بعيد. ومع ذلك، حدث: في الليل، بدأت أقرأ «إكسير الشيطان» لصديقنا المشترك إرنست تيودور فيلهلم هوفمان. نعم، عندما عدت إلى البيت، قبَّلت صنادل الرسول بولس في قلبي].

لقد كتب: «كم سيصعب فهمهنَّ، هؤلاء الصبيات». كان هو في الخامسة والعشرين من عمره. وجدتني، هذه «المرأة التي تغني»، كان عمرها ثلاثاً وعشرين سنة.

كان يفغيني محرجاً في هذه العائلة. انضم صديقه إلى حزب البلاشفة وشارك في معارك الشوارع مع طلاب الكلية العسكرية... مع خاصته من الناس!

البلاشفة الذين «تناولوا الغداء مرتين». لذاك خطرت بباله كلمة «المنتصرون». إنها لعبة كلمات. النصر. الغداء. العناء.

لقد بدا لي هذا النص كمقتطفات من فيلم.

خالتي وأمي، الأولى عمرها ثلاث سنوات والثانية سنة ونصف، الصغيرة فافا والطفلة الرضيعة لوليا، يقفن خلف الطاولة تحت المصباح ويحدقن بعيونهن الكبيرة كلها بالعم الوسيم من تحت جباههنَّ المحدبة...

هذا المقطع من المذكرات أملته عليَّ الرسامة الكبيرة كاتيا غريغوريفا- شيلنغ.

ذات مرة كنّا ضيوفاً جلسنا جنباً إلى جنب، عرَّفوا بعضنا على بعض. قلت لها: إن لديّ صديقاً في الطفولة، العم ميشا، يحمل لقب العائلة شيلنغ نفسه. وفجأة أجابت: إنه، ربما، كان هذا عمها! ثم اتضح أننا، بشكل عام، كنا نعيش معاً في مدخل العمارة نفسه! لأن والدها، يفغيني شيلنغ، وجدي كانا صديقين، وشيلنغ في العشرينيات، عندما غادر جدي الأسرة، دعاه للعيش في شقتهم! ثم سكنت والدتي هناك أيضاً بعد عودتنا من مدينة كويبيشيف.

قام اللغوي ياكوفليف والإثنوغرافي شيلنغ معاً برحلة استكشافية إلى داغستان، كان جدي كوليا يرتدي معطفاً ويحمل مسدساً، وجينيا من دون معطف، ويحمل معه دفتر ملاحظات (كلاهما على حدّ سواء شخصان ليسا من هذا العالم).

تعود الشقة رقم 37 إلى أشقاء يفغيني الثلاثة - قسطنطين ونيكولاي (توفي كلاهما في وقت مبكر) وميشا. كان نيكولاي متزوجاً ناتوليا ريفورماتسكايا، شقيقة ألكساندر ألكساندروفيتش ريفورماتسكايا، عالم اللغة والأدب المشهور (وهو أيضاً صديق حميم لجدي كوليا).

وفي العشرينيات، عندما قررت السلطات إسكان (حشر) أناس آخرين مع عائلة شيلنغ، في شقتهم التي تقع في شارع مالايا دميتروفكا، عمارة 29، دعا يفغيني شيلنغ جدي نيكولاي فيوفانوفيتش، الذي كان مطلقاً في ذلك الوقت، مع عائلته الجديدة ليسكن في الشقة، وانتقل هو إلى السكن مع أمه في الطابق الأعلى. وفي الواقع، في واحدة من غرف شقة الإخوة شيلنغ، في أصغر الغرف، التي كانت غرفة المكتبة سابقاً، مضت حياتنا مع أمي (تحت الطاولة).

كان صديقي المفضل في الطفولة هو عمي ميشا شيلنغ، جارنا، شقيق يفغيني، وهو طبيب فحص الأشعة في عيادة المفوضية الشعبية

للشؤون الداخلية، والذي كان يحلم في شبابه بأن يصبح فناناً. وكان يقوم، أمامي وأمام أمي، إذا كان مزاجه رائقاً أو مخموراً، بأداء رقصاته الشهيرة بالعصا والقبعة - تماماً مثل تشارلي شابلن. وكنت أجيء إليه بفرح شديد - في غرفته النظيفة ذات الستائر والساعة الجدارية، وذات المصباح القديم على الطاولة فوق المشمع، والتي فيها خلف الستار المتحرك خزانة سرير صغيرة سطحها العلوي من الرخام وسرير عسكري مرتب من جميع الأطراف. وفي الخزانة الفارغة علقت بدلة عسكرية. كان العم ميشا في بعض الأحيان يتمشى في الشقة بملابس داخلية زرق شتوية بدلاً من البيجاما وكان أنيقاً جدّاً.

كنت أحلم أنني عندما أكبر، سيكون لديَّ الطاولة المربعة نفسها وعليها المشمع وفوقه ساعة أرضية ومصباح. وسآكل بالسكين والشوكة وأستعمل المناديل، مثل العم ميشا (وليس من المقلاة بالملعقة، ولا من على الجريدة بيديَّ، وأن لا أمسح فمي بأكمامي ولا بكفّي).

القصة الثانية في حياتي كتبتها عن العم ميشا، لكنها لم تُنشر أبداً. فقد تزوج خالتي فاليا، الطيبة والودودة، القصيرة، ذات المنكبين العريضين، والخصر الضيق، والساقين المكتنزين، والوجه الشبيه بوجه المغني مارك بيرنس، التي مثّلت مَشاهد لمسرح الأطفال. وقبل ذلك، كانت لسنوات عديدة تأتي إليه سرّاً، يخفيها حجاب السرية، وفي تلك الأمسيات تبقى غرفة العم ميشا مقفلة. أحياناً في الليل، عندما كنت أذهب إلى المرحاض، وأُشعِل الضوء هناك، كانت ذراع عارية لشخص ما في ذعر، تمتد خبط عشواء من باب المرحاض، وتطفئ المصباح. وبعد ذلك قدَّم العم ميشا زوجته الجديدة للجميع! كان العم ميشا والخالة فاليا سعيدين دائماً أحدهما بالآخر، ومرحَيْن، ولا يفترقان كتوأم ويدخنان من دون توقف. وعندما بُتِرَتْ، في وقت لاحق، ساقا العم ميشا كلاهما، كانت زوجته تحمله إلى الفناء للتنزه وتُجلِسُه على المسطبة...

واحدة من العائلات في مسرحيتي «ثلاث فتيات يرتدين الأزرق»

- عائلة شيلنغ. أطلقت عليها هذا الاسم تيمناً باسمه. كان الوحيد في المنزل الذي تعامل بلطف وودّ معي ومع والدتي.

وبالعودة إلى حياة أسرة ياكوفليف، أريد أن أضيف، أنَّ جدي كوليا كان يُرقِد بناته للنوم بطريقة غريبة: يجلس بين سريرهما وينشد أغاني القوزاق القديمة. فقد كان من قوزاق حوض نهر الدون. وقد غنيت، بالوراثة، هذه الأغاني لأطفالي.

وعندما بدأت المجاعة والفقر بعد الثورة، ذهبت والدته، الجدة شورا، إلى ضيعتها في حوض الدون من أجل جلب المواد الغذائية وبعض الحاجيات (وفقاً لحكايات الأسرة، من أجل جلب المجوهرات) وأُعدِمَتْ في الطريق برصاص جنود الجيش الأحمر. ويقال إنهم بمكر جعلوا يسألونها عن موقفها من الحُمر ومن البِيض. فلَم تفهم قصدهم، وارتبكت وقالت الحقيقة. وقد دُفِنَتْ هناك، على جانب الطريق. كان ثمة شخص ما بجانبها، هو الذي دفنها ونقل لنا هذه الحكاية.

وهذا مقتطف من مقال عن ابنها، جدي، البروفسور ياكوفليف، كتبه تلميذاه، الأستاذان ف. أشنين وف. ألباتوف:

«قام النبيل ياكوفليف، خريج جامعة موسكو، مؤسس حلقة موسكو اللسانية، التي بدأ رومان ياكوبسون رحلته فيها في العلم، بترك كلِّ شيء وتوجه في عام 1917 للثورة. ثم عاد إلى العلم، الأمر الذي لا يمكن أن يتم إلّا بعد تسليم بطاقة العضوية في الحزب. أدّى في العشرينيات ثلاثة أدوار: أحد مؤسسي علم وظائف الأصوات البنيوي (قال ياكوبسون في وقت لاحق إن ياكوفليف طرح هذه الأفكار في نظرية الفونيمات، قبل نيكولاي تروبتسكوي)؛ وباحث بارز في مجال اللغات الشيشانية والإنغوشية والكَباردينية ولغات أخرى؛ ورائد بناء اللغة. وفي عام 1928، من أجل البناء العلمي للأبجديات الجديدة، اقترح معادلة رياضية لبناء الأبجدية. وبدأ بنقل اللغات القوقازية إلى الأبجدية اللاتينية، إذ عُدَّت السيريلية (حروف اللغة الروسية) لغة المستعمرين. وقد أعدَّ وشكّلَ 70 أبجدية تقريباً».

يجب أن أضيف أن ستالين ألغى الأبجدية اللاتينية في الكتابة القوقازية. إذ أُجِّلَت مؤقتاً الثورة العالمية، التي من أجلها أُدخِلَت الأبجدية اللاتينية. وتوجَّبَ في البداية إعدام كل شخص توجد في بيته كتابات بتلك الأبجدية.

ويُذكَرُ في المقال كذلك الأكاديمي مار. كثيراً ما سمعتُ هذا الاسم في طفولتي يتردد في المنزل. كان جدي يناضل ضد مار طوال حياته. وكما جاء في المقال، دافع نيكولاي ياكوفليف عن «بناء الأبجديات بعيداً عن تدخلات أتباع مار غير الكفوءة»، وقام بذلك «في ظروف هيمنة مذهب مار (غير العلمي) الجديد في مجال علم اللغة...».

ولكن بعد ذلك قيل: «ياكوفليف في بعض الحالات كان يخضع لمذهب مار».

باختصار، عندما نشر ستالين كتيّبه الدوري المضاد لمذهب مار اللساني «حول الماركسية في علم اللغة»، جدي نيكولاي فيوفانوفيتش، المناضل الدائم والوحيد ضد أفكار مار، «حاول أن يجادل الزعيم على الأقل على بعض النقاط»، وفق ما كتب الباحثان.

أنْ يجادل الزعيم...

عندما كان الجميع إلى جانب مار، كان جدي يحاربه. وعندما تكلم ستالين ضد مار، عارضه ياكوفليف «على بعض النقاط».

كان في التاريخ واحد فقط مثله – هو جوردانو برونو. لقد ناضل من أجل الحقيقة، ولم يخُن مبادئه.

قضى جدي العظيم سنوات عديدة في مستشفى للأمراض النفسية. وقد أخذته من هناك فيرا نيكولايفنا ياكوفليفا، خالتي.

عندما جاء البروفسور الأميركي الشهير رومان ياكوبسون إلى موسكو في حقبة ما بعد ستالين، حاول مقابلة صديقه القديم. وقد رُدَّ طلبه بلطف. ولم يُسمَح له بالاطلاع على حالة الجد، إشفاقاً بهما كليهما.

وبالعودة إلى زمن شباب أفراد عائلتي من آل ياكوفليف: لم أكن أعرف شيئاً عن حقيقة أن جدي كان شيوعيّاً ثم ترك الحزب. لم يُذكَر ذلك في أوساط العائلة.

لكنني أفهم تماماً، تحت تأثيره مَن انضم إلى الحزب.

وبقيت ثمة صورة محفوظة يقف فيها ديديا (إيليا سيرغييفيتش) وجدي المستقبلي كوليا ياكوفليف، في يوم صيفي، في مرج، في جوّ شاعري. وتقف في الأمام جدتي المستقبلية فاليا. وبجانبها من إحدى الجهات فيرا أختها الكبرى، ومن الجهة الأخرى – المراهقة لينوتشكا، وجينيا الأكبر منها قليلاً.

في شَعر البنات ورودٌ، وفي أيديهنَّ عصي – على ما يبدو، كنَّ في نزهة خارج المدينة.

كان ديديا متشدداً بطريقة أو بأخرى. وكما قيل لي، لم يعجبه الأمر عندما تزوجت بناته. وهنا واضح أن القضية وصلت إلى هذا، نظراً للمنظر البائس لكوليا والابتسامة الخبيثة لفالنتينا الشابة.

هذه الصورة، على ما يبدو، في عام 1912.

لم تنتبني الرغبة بمعرفة مستقبلهم...

***

إنه لأمر مدهش أنْ تذكرتُ الصورة الشخصية للجدة شورا التي أُعدِمَت بإطلاق النار عليها، تلك الصورة التي اختفت في خزانات أجهزة الأمن في لوبيانكا (على الأرجح بِسبب الموزع لم تصل إلى المتحف، بل إلى حائط شخص ما مِن «جماعتهم»). لا توجد الصورة، ومنها بدأت حياتي، أي بدأت ذاكرتي. فالإنسان – هو ذاكرته.

أتذكر، على سبيل المثال، هذه الحادثة، أني أتعلم المشي على طول الأريكة. أمسكُ المقعد بيدي ولا أجيد تحريك ساقيَّ. الحادثة جرت

على الشرفة الأرضية في المنزل الريفي الصيفي، التي تغمرها شمس المساء. فأُضَيِّق عيني، ألهو فرَحاً. تعلمت المشي في وقت متأخر، وأنا في عمر سنة، بعد التهاب طويل في الرئتين. أشعر بالراحة، أنا سعيدة، وأمي سعيدة لأنني أمشي. ترتبط السعادة بالدفء والضوء والخضرة وبأمي. العام 1939.

* * *

وهاكم هذا المشهد من فندق «متروبول» - أقفُ في غرفة كبيرة، أمامي الأبواب مفتوحة إلى الغرفة الأخرى، على الحائط صورة الجدة شورا برقبتها التي تبدو كعنق بجعة وشعرها الأحمر الداكن، وأمامي طست. يصرخون عليَّ أن لا أدوسَ فيه، حذارِ! (ربما، مسَكوني للتوّ على هذا الطست؟)

* * *

...ها قد سقطتُ من الصندوق. غرفةٌ ضيقة ومظلمة مليئة بالأشياء. كسرتُ رأسي. أشخاصٌ كبار الحجم مشغولون، وظلالهم. لم نعد في المنزل. هاتان ليستا غرفتينا في فندق «متروبول». نحن عند ناس غرباء. أُغلِقَتْ شقتنا وخُتِمَ عليها. إننا «نهيم على وجوهنا». هذه الكلمة هي من طفولتي.

لديَّ ندب في صدغي على حاجبي الأيسر.

بداية الحرب

يعود تسلسل الحوادث المتواصلة، التي تراكمت في ذاكرتي، إلى عام 1941، إلى بداية الحرب. فقد حملتني أمي في الليل إلى الملجأ في محطة مترو، «ساحة سفيردلوف»، وشعرتُ هناك بالمرح كثيراً، إذ كان شيء احتفالي يحدث فوق رؤوسنا، شبيه بالألعاب النارية: أشعة المصابيح الكشافة وأعمدة الضوء الأبيض، تتحرك في السماء المظلمة وتتقاطع وتتلاقى على شكل خيمة (في الواقع تفتش بحثاً عن الطائرات).

لم أكن أرغب في النزول تحت الأرض، كل ذلك شوّش رأسي (أتذكر كيف مددتُ رقبتي)، كنت مبتهجة وطالبت بالوقوف. لكن كان علينا أن نهبط إلى الأسفل. أمضينا الليلة في محطة المترو، كانت ثمة حواجز في الأنفاق. حملت أمي حقيبة فيها مفرش. واستقرينا على ألواح صلبة. وتراءى لنا القوس الأسود للنفق. كانت تلك بالنسبة لي مغامرة!

في أكتوبر (تشرين الأول) من عام 1941، غادرنا أنا وأمي لوليا وديديا والجدة فاليا وخالتي فافا على متن قطار لنقل البضائع، في الإخلاء إلى مدينة كويبيشيف (سامارا حالياً).

وفقاً لما تقول خالتي فيرا نيكولايفنا ياكوفليفا (عمرها الآن، في عام 2005، 91 سنة)، أُرسلَ الجميع من موسكو إلى الإخلاء بإلحاح شديد، وخصوصاً كبار السن والأطفال. وصلت خالتي إلى محطة القطار، وقد استعد قطار للانطلاق. ذهبت إلى المنصة وجعلت تنظر. كانت حافلات ترولي باص جديدة تقف على عربات الشحن المفتوحة المعشَّقة ببعضها

البعض. وخلفها عربة شحن قذرة بباب متحرك. يتكدس على أرضيتها، بشكل طبقة سميكة، مسحوق ما، ربما، جبس. أدركت الخالة (فافا)، أننا بوصفنا أفراد أسرة من أعداء الشعب، لن يُجلسونا في عربات الترولي باص الجديد، وبدأت تنظِّف العربة، وتجرف المسحوق. في اليوم التالي جاءت هي وأمي فالنتينا، مسلحتين برقائق الخشب. جرفتا الجبس لساعات عديدة. وعندما نَظُف المكان، أحضرونا - ديديا، أنا وجدتي فاليا بالإضافة إلى المتاع، الذي كان الشيء الرئيس فيه البطانيات. كان قد حلَّ البرد، فالوقت نهاية أكتوبر (تشرين الأول)، بداية الصقيع في عام 1941. فرشت عائلتنا بطانية، وتدثروا ببطانيات أُخَر وبقينا لبضعة أيام في المحطة على مثل هذا الحال. ثم، قبل انطلاق القطار، استقر معنا المسؤول الذكي للقطار مع زوجته وطفل يبلغ من العمر ست سنوات. لقد أدرك أنه في عربات الترولي باص المهندمة سيكون ثمة برد شديد، وقد اختار عربة مدفَّأة (على الرغم من أنها كانت متجمدة أيضاً).

لقد حالفنا الحظ معه - ففي المحطة الأولى أحضرَ المسؤول القوي موقداً من الحديد المصبوب، يشبه برميلاً منخفضاً فيه أنبوب. لأنه لاحظ بوضوح أنَّ على طول القضبان ينهال الفحم الحجري المجاني، على ما يبدو، من ذلك الفحم الذي يستعمل لتشغيل القاطرة. فحصل على موقد. وكان البالغون يقومون، في محطات التوقف، بالقفز من الأعلى إلى الثلج ويجمعون الفحم، ويُسَخِّنون به هذا البرميل. لم يكن الجوّ شديد البرودة، إلى جانب ذلك بالقرب من الموقد، بجانب الأنبوب، كان إبريقان يغليان بالماء الساخن.

إنه الشعور بالراحة عندما يقدح الزناد فجأة، من لا شيء، من الفراغ الأسود، ويتوهج اللهب، فيبدو أمامك قدح من الماء الساخن، وقطعة من الخبز، وفراش للنوم، ومعطف تلتحف به - هذا الشعور يأتي دائماً عندما يحدث أن تستقر في مكان جديد. ليكن فحسب ثمة دائرة صغيرة

من الضوء، ودفء قليل، وطعام وغطاء للصغار - عندها ستبدأ الحياة! تبدأ السعادة. لم تخفني الظروف أبداً. ما دام الأطفال بجانبك، وثمة مكان تأوي إليه. لعبة الحياة الأبدية والرئيسة، أن يكون لك منزلك الخاص بك.

وطني الصغير هو

دائرة صغيرة من ضوء شمعة
في هذه الدائرة حافة الطاولة
رتل من الأيدي
وفتات خبز للطيور
وشاي للشيوخ
ورتل من وجوه الأطفال
إلى أبد الآبدين

وأذكر أني طوال الوقت كنت أجلس على يدي ديديا، داخل معطف فراء الذئب ذي البطانة الحريرية (كان الوشي على الحرير شرقيّاً، ومقلّماً) وأنظرُ، بعد أن تركت فتحة صغيرة لعيني، إلى النار في باب الموقد المفتوح. إذ يمكن النظر إلى الشعلة الراقصة لساعات. وهكذا عشت في كوخ دافئ، كما يحب أن يسكن جميع الأطفال. وبدا ديديا بسببي كأنه كنغر حامل ولم يتركني إلّا لكي أركض قليلاً.

في الليل كان القطار يتوقف في السهوب. لكي يسمحوا بمرور القطارات العسكرية المتوجهة إلى موسكو. فقد كان أفراد أفواج سيبيريا الأقوياء بمعاطف جلد الغنم ومعهم الأسلحة والتعزيزات يتجهون إلى الجبهة. أما جماعتنا من أفراد ميليشيات موسكو، فلم تكن لديهم بنادق، ولا ملابس دافئة، ولم يكونوا يستلمون المعاطف العسكرية إلّا في نهاية

المطاف، وكان المثقفون والعمال، والطلاب، والموظفون الصغار يهلكون بالجملة على حدود منازل الاصطياف السابقة. فالسلطات كانت في شأنٍ غير شأنهم. وفي نوفمبر (تشرين الثاني)، تجمد كل شيء، وتساقطت الثلوج. فقد اقترب الشتاء القارس.

كان في بعض الأحيان يُسمح لي بالنزول من العربة إلى الأسفل، على أكوام الثلج، للمشي في الهواء الطلق ولقضاء الحاجة. وأتذكر كيف أن والدتي، كانت تستغل الوضع الجديد، وتعطيني «كعكة» من يدها – قطعة ما من الخبز. على ما يبدو، تغذيتي كانت رديئة. لكني في تلك الحالة، بعد أن أنظر إلى المساحات البيض تحت السماء السوداء، كنت أقلق وأخاف، وكأني أتوقع المستقبل، وألتقط «الكعكة» كلها من يدَيْ أمي. انتابَ الجميع قلق من كوني مصابة بالسل. فقد توفي مؤخراً لوسيك ابن ديديا من السل (وقد أطلق عليَّ اسم لوسيك تيمناً باسمه، إذ كان اسمي قبل ذلك دولوريس، المستعار من دولوريس إيباروري، المناضلة الإسبانية التي لجأت إلى الاتحاد السوفياتي. وفعلاً وجدوا الاسم المناسب لي، إذ إنَّ كلمة «دولوريس» تعني «المعاناة»).

ظروف عائلية

كان أبي – الطالب منذ صباه يعاني من التدرن الرئوي. وقد ذَكرتُ أنَّ الكثيرين من أفراد أسرته في بلدة روغاتشيكي العليا أيضاً أُصيبوا بهذا المرض ومات بعض منهم من جرّائه. وأنه، بعد أن سكن مع أمي في فندق «متروبول»، ربما، لم يعد يراجع الأطباء. وعندما بدأت أمي، التي كانت حاملاً بي في ذلك الوقت، تسعل دماً، فُحِصَ جميع أفراد الأُسرة. وعُثِر عند ستيفان على حالة من السل متفاقمة كثيراً. وأُودِعَ أبي المستقبلي المسكين المستشفى، وسُكِبَت في المنزل مواد التعقيم ومُنِعَ تنشيفها. والتمست جدتي أن تُجرى له عملية، ما يسمى باسترواح الصدر. وقد نجح إجراء العملية، وعاش ستيفان أنطونوفيتش عمراً طويلاً مثمراً. ولكن أبي المستقبلي استاء آنذاك وأخذ على خاطره، لأنه اتُّهِمَ بالخِداع في إخفاء مرضه، ويبدو أنه، بقي مستاءً بسبب ذلك طوال حياته.

الحقيقة، أنَّ موسكو كلها قبل الحرب كانت تعاني من مرض السل الرئوي. وتُحتَمَل العدوى في كل مكان. ومن بين الأدوية كان الستربتوسيد. ولسبب ما أتذكر أنَّ لونه أبيض وأحمر. الستربتوسيت الأحمر (هكذا كان يُلفَظ) كانت النساء يصبغن به شعرهن. فافا أيضاً كان يغازلها ويلاحقها فتى مصاب بالتدرن، ولدى لوليا كذلك صديقها فولوديا الوفي، الذي كان في المرحلة الأخيرة من التدرن الرئوي. وفي اجتماع عقد في المعهد، معهد الفلسفة والأدب والتاريخ، حيث نوقِش موضوع أمي الحامل، وعضوية الأفراد من عائلات أعداء الشعب (وأنا

معها، كنا دائماً لا نفترق، بما في ذلك أثناء الاستجواب في لوبيانكا) - حيث كتب ستيفان عريضة علنية أكد فيها بأنه يرفض التواصل مع «عائلات أعداء الشعب»، نهض فولوديا هذا فجأة وقال إنه إذن على استعداد للزواج بياكوفليف. ولكن بعد الاجتماع، سرعان ما قام والدي المستقبلي بالزواج بوالدتي. وكما قالت والدتي، «استعجل بسبب تصرف فولوديا».

لكن والديَّ سرعان ما تطلّقا.

آخ، يا هذه الأسرار العائلية، يا لها من إساءات لا تُغتَفَر ومظالم لا تُنسى! هذه الكتابات، وهذه العرائض! الزواج والعرس والطلاق والسفر، آخ، يا هذا الصمت طوال الحياة! آخ، يا مال المتسوّلين، آخ، أيتها الشقق المكتظة، المقسمة إلى أقفاص، وكل هذه الإخلاءات ومشاكل العودة، وهذه الإقامات، والزوايا، والأمتار المربعة! وحالات الحمل هذه للصبايا التلميذات التي تحدث في كل عائلة... آخ، فهناك المزيد من الأسرار - الأطفال الذين يولَدون وتتخلى عنهم أمهاتهم، ويتركنهم في مكان ما... والأيتام الذين تتركهم عائلاتهم، والشيوخ والعجائز الذين هجرهم أبناؤهم...

هذه الأشجار المتشابكة بالأغصان كان عليها أن تعاني بشكل رهيب عندما تتكسر العُقَد، ناهيك عن أحزان البراعم الجديدة المقطوعة من الجذع الرئيس، المحرومة من النموّ. الأشجار الصغيرة المتروكة تحت رحمة القَدَر... والجذوع القديمة التي جفّت ويبِسَت.

يكفي هذا، لن أقول كلمة أخرى بعد.

كويبيشيف

في إحدى محطات التوقف أخرجني ديديا من معطفه الفرو، وسلَّمني إلى النساء وذهب إلى الرصيف واختفى هناك - والحقيقة، أنه ركب على متن قطار نقل المسافرين، الذي سار أمام قطارنا. وقد وصل إلى هناك بسرعة. وفي كويبيشيف بوصفه بطلاً وأحد البلاشفة القدامى أُعطي غرفة منفصلة (ففي الحرب الأهلية كان مفوضاً لفيلق تقريباً في تركستان، وعمل مع فورمانوف الكاتب الشهير مؤلف رواية «تشابايف» لاحقاً).

وهكذا إذن، وصلنا إلى ديديا، الذي قد حصل على مسكن، والذي، بوصفه قائداً عسكريّاً متمرّساً كان يعرف، أنَّ قبل الوحدة العسكرية يجب أن يسير الضابط المسؤول عن توزيع أماكن المقاتلين وإسكانهم. وقد أسكننا في غرفة ضيقة، حيث تمّ وضع اثنين من الأسِرَّة واحداً فوق الآخر وطاولة صغيرة. نمتُ أنا مع ديديا على أحد السريرين، وجدتي وبنتاها احتشدت الثلاث معاً في السرير العالي الملحق به كرسيين لتثبيت الأرجل.

كان ديديا، على الرغم من الوضع، كل يوم يغتسل بالماء البارد (يستعمل وعاء ماء وقطعة من القماش)، وكذلك يقوم بالتمارين الرياضية وفق نظام مولر. أما جدتي، ابنته، فكانت تنهض من فراشها بصعوبة. إذ تأثرت بالارتجاج بعد الانفجار في لجنة موسكو للحزب.

انتقل أعضاء القيادة في موسكو بالتدريج إلى كويبيشيف. وأُحضر إلى هناك كذلك مسرح البولشوي وسيرك دوروف، بالإضافة إلى مصنع محامل الكُرَيات. وقد أُرسِلَت أمي للعمل في هذا المصنع، في رصف الصناديق

في ورشة التعبئة، وسُجِّلَت فافا هناك بصفة مهندس ذي تعليم تقني غير كامل. وكسبت أمي بعض النقود أيضاً، إذ كانت تقرأ أشعار سيمونوف في المستشفيات العسكرية، وتكتب أيضاً إلى صحيفة «كومونة الفولغا» عن الفن. وقد عُلِّقَت صورة في محطة القطارات في المدينة، تمثل ذئباً يلتقي في السهوب المغطاة بالثلوج بجندي فاشيّ متجمد. الحقيقة، إنه شيء مرعب! وإني لسبب ما أتذكر تلك الصورة بشكل واضح، على ما يبدو، جلسنا فيما بعد في المحطة أكثر من مرة، عندما اضطررنا للترحال. أثار الجندي الفاشي المتجمد مشاعر معقدة، ولكن بأيّ حال من الأحوال لم يكن شعور الرضا بالانتقام. إنه على الأغلب الإحساس بالرعب. كتبت أمي عن هذه الصورة مقالة قصصية كاملة.

ثم مُنِحَ ديديا فيما بعد غرفتين منفصلتين متجاورتين في منزل من منازل الحامية العسكرية، بالقرب من دار إقامة ضباط المنطقة الإدارية، في ركن الجيش الأحمر وفرونزينسكايا. وعلى الرغم من حقيقة أن أبناءه أُعدِموا رمياً بالرصاص بتهم سياسية، إلّا أن الجَد كان يحظى بالتبجيل والاحترام في صفوف الحزب، بل حتى يُزوَّد أحياناً بالمساعدات. إذ جلب له بعض أنصاره وتلاميذه الأوفياء الطعام إلى المنزل. كان كل شيء يبدو طبيعياً إلى حدٍّ ما، وحتى إني أتذكر العنب في طبق. وكنت أقضي وقتاً طويلاً مع ديديا، لقد أطعمني وربّاني. فعلى سبيل المثال، أتذكر عبارته «الخبز لا يُؤكل مع الخبز» عندما كنتُ أطلب مع الشيعرية قطعة من الخبز. ولكن عندما عاد ديديا إلى موسكو، وصلَتْ إلى أمي في الوقت نفسه دعوة من معهد الفنون المسرحية، فقد أرسلَت وثائقها للتقديم إلى المعهد، وها هم قد استدعوها. تركت أمي الدراسة بعد الاجتماع المذكور في معهد الفلسفة والأدب والتاريخ، وأخذت ما يُسمّى بإجازة الحمل والولادة. ولا أعرف ما إذا كان قد رُقِّنَ قيدها، وعلى أيّ حال، فإنه ليس من المعروف لي ماذا كانت تأمل أمي عندما أرسلت وثائقها إلى معهد الفنون المسرحية، بعد أن أخبرتهم أنها أكملت

أربع سنوات دراسية في كلية الآداب. لقد أخفت آنذاك حقيقة ذويها - أعداء الشعب (لقد بقيت تُخفي ذلك طوال حياتها، حتى المؤتمر العشرين للحزب في عام 1956 الذي أدان أعمال الاضطهاد والتنكيل في عهد ستالين، ولم تُحبّذ الحديث عن الماضي، وتجنبت بجميع الوسائل كلمة «اضطهاد سياسي» وخلال السنة الأخيرة، حينما لم تكن قادرة على مغادرة الفراش، قلت لها: «لنتذكر شيئاً جيّداً من حياتك»، لم تَردّ بأيّ شيء، سوى أنْ حركت أصابعها قليلاً، كما لو أنها ترمي عنها شيئاً ما).

لكن على الرغم من هذا كله، كان جيداً هنا هذا الاستدعاء، على سبيل المثال. كانت أمي تحب الدراسة إلى حدّ الشغف وتحلم على كل حال بأن تنال قسطاً من التعليم. وبعد تلقّي تلك الدعوة، حاولت الحصول على تذكرة سفر إلى موسكو، لكنّ ذلك كان مستحيلاً. لا أعرف كيف تعاملت مع خططها الجدة وفافا، والآن من غير المريح أن أسأل عن ذلك الخالة العجوز.

أعلم أن أمي كانت تبكي كثيراً.

لقد غادرتْ بالصدفة، وهي ترتدي صدرية وحدها فقط، أخذها السائقون في القاطرة، لأنه لم تكن ثمة تذاكر إلى موسكو. وقفتْ هناك لعدة أيام في القاطرة. إذ كان الركوب في مقصورة السائق ممنوعاً. لم تأخذ معها من الأشياء سوى إبريق من الزيت النباتي، الذي يبدو أنها حصلت عليه ببطاقات التموين، بعد أن وقفت في الطابور، أما الراتب فقد أعطته للسائق. على الأرجح، إنَّ الحوادث تطوّرت وفق الشكل الآتي: في الطريق إلى البيت، وهي تمشي حاملة إبريق الزيت، عرَّجَت على محطة القطار، كالعادة، من دون أيّ أمل، لتنظر (كما هو الحال دائماً) إلى قطار موسكو من تحت البخار، واقتربت من القاطرة، وكالعادة توسَّلَت ومدّت يدها بالنقود، وفجأة أخذوها بصورة غير متوقعة لها. ولم يكن لديها الوقت الكافي للعودة إلى المنزل. والحقيقة، أني أعتقد أنها كانت تخشى العودة.

وإني لا أعرف إن كان ذلك قطار شحن أم قطار ركاب. فقطار الشحن قد تستغرق رحلته أسبوعاً كاملاً.

إنها كانت تتطلّع إلى الأمام بنظرة سليمة ولم ترَ لنا وإياها أيّ آفاق هناك. وهل في كويبيشيف غير العمل في المصنع في ورشة التعبئة؟ أتبقى طوال حياتها من دون شهادة؟

وهنا تلقَّت الدعوة إلى موسكو، الأمر الذي كان في تلك الأوقات ضرباً من ضروب الخيال ولا يمتُّ للواقع بصلة. وقد حملت أمي هذه الوثيقة السحرية المختومة دائماً في حقيبتها، ولا يُعرف ماذا كانت تأمل في ذلك. فجميع الوثائق كانت تحملها معها دائماً. لقد تفاوضت سرّاً على تذكرة سفر إلى موسكو حتى مع جارتنا في شقة كويبيشيف، رعب طفولتي، العمة راحيل، لأن زوجها كان يعمل في السكة الحديدية.

* * *

حدَّثتني عن هذا راحيل بعد سنوات عديدة، عندما كنت مع فرقة مسرح موسكو للفنون في جولة في سامارا (كويبيشيف - سابقاً) وجدت شقتنا، وفيها راحيل العجوز الهرمة، تعيش في غرفتها وحدها. وقلت لها إنَّ جدتي وفافا رَدَّت إليهما الدولة اعتبارهما ونالت جدتي وساماً وحصلت على شقة في موسكو وجراية مواد غذائية من الكرملين، وإنَّ والدتي توفيت، أما فافا فحصلت على راتب تقاعدي مُجزٍ وتعيش الآن في وسط موسكو في شقة تتكوّن من غرفتين، ونحن جميعاً نرعاها. وحدَّثتني راحيل عن جرأتها آنذاك وحصولها على تذكرة لوالدتي للسفر إلى موسكو. فقلت لها، وفقاً لمعلوماتي، سافرت والدتي في قاطرة من دون تذكرة. وهنا فجأة اعترضت راحيل (في وجود جاراتها) بشكل مهيب، إنه خلال الحرب قُدِّرَ لهم أن ينحدروا إلى حدِّ أنْ أخفوا عنّا المواد الغذائية كلها، وأخذوها من المطبخ بعيداً عنّا. «بالطبع، لأننا كنا نتضور من الجوع، وكنت في الخامسة من عمري، لم يكن ثمة شيء لإطعامي» - أكدتُ وانفجرتُ فجأة في البكاء، وأنا جالسة في هذا

المطبخ القذر. اندهشت الجارات وصارت عيونهن في هاماتهن من التعجب- كيف يكون هذا، أنْ لا يُطعَم الطفل الجائع! عادت راحيل، العجوز المسكينة العاجزة، بسرعة إلى غرفتها بكل ما تستطيع من قوة.

***

هكذا إذن، استغلّت أمي اللحظة المناسبة لكي تُغادر. بأيّ شيء كانت تفكر، بعد أن اختبأت في القاطرة، وهي واقفة على المنصة، التي تهب عليها الرياح، مرتدية الصدرية وحدها؟ أغلب الظن أنها كانت تفكر فيَّ. وربما، كانت تقنع نفسها أنَّ كل شيء على ما يرام، فالطفلة عند أمها وأختها، وأختها تعمل، وستكون الطفلة بخير في روضة الأطفال. لا داعي للقلق، سيعيشون ويجتازون المحنة. يجب في البداية أن تكمل تعليمها وتحصل على الشهادة، ثم تأتي وتأخذ الطفلة.

يمكنني أن أتصور، كيف دقَّ قلبها، عندما انطلق القطار! إلى موسكو، إلى موسكو! فقد كان عمرها 27 سنة.

وبعد أن وصلت إلى أبيها نيكولاي فيوفانوفيتش باكوفليف في غرفته ذات الاثني عشر متراً الواقعة في شارع تشيخوف المليئة برفوف وخزانات الكتب، استقرت عنده تحت طاولة الأكل، وأرسلت على الفور رسالة وحوالة مالية إلى كويبيشيف، إذ حصلت على نفقة من زوجها السابق. لم يكن لديها ما ترتديه من الملابس، فكانت ترتدي فوق الصدرية معطف الجد العسكري.

أعتقد أنَّ غياب أمي لم يُسعد جدتي وخالتي. ولم يعودا بعد ذلك يذكران اسمها. فما أكثر ما أضاعتا في حياتهما... فقد اعتاد الناس آنذاك – أن يغيب بعض منهم من دون أن يترك أثراً. وقصيدة خارمس «خرج رجلٌ من الدار» مشهورة بهذا الصدد. وهو نفسه خرج ذات مرة ولم يعد أبداً.

لكني انتظرت أمي بعناد وباستمرار.

ما التقيتُ بها إلّا بعد أربع سنوات.

قالت لي أمي بعد ذلك، إنها من أجلي كانت مصرّة على الحصول على شهادة عالية، وبعكس ذلك، لن يكون بمقدورها أن تطعم العائلة. وظلت، المسكينة، طوال عمرها تبرر موقفها ذاك أمامي.

كويبيشيف.

وسائل للبقاء على قيد الحياة

وهكذا إذن، بقينا نحن الثلاثة في كويبيشيف، أنا وجدتي وخالتي. وهنا بالذات بدأت المجاعة الحقيقية. فقد فُصِلَت فافا من عملها بوصفها «من عائلات أعداء الشعب» بعد أحد الاستجوابات الليلية الطويلة في الأجهزة الأمنية.

عشنا على ما كانت ترسله أمي - على النفقة التي حصلت عليها من أبي ستيفان أنطونوفيتش، الفيلسوف الشاب.

كان كل شيء في أيام الحرب يُحصَل عليه ببطاقات التموين. لدينا أنا والجدة وفافا بطاقة أطفال وبطاقتا إعالة. وكنا نشتري بها الخبز الأسود، وأثناء ذلك كانت البائعة تقطع من البطاقة كوبونات (قسائم). ويحدث قبل نهاية الشهر أن يُستَنفَد (تُقطَع كوبوناته) الخبز كله.

نقف في الدور للحصول على الخبز، في الصباح الباكر، قبل طلوع الشمس، في الصقيع. ويمتد ذيل الطابور طويلاً في الثلج الأبيض نحو دكان الخبز، نحو بوابته الثقيلة المتجمدة.

وفي نهاية المطاف، بعد ساعات من الوقوف في الطابور، نصل إلى الداخل، حيث الدفء في وسط الحشد المزدحم، بعد أن يلتصق كل واحد منّا بالذي أمامه لكي لا يضيع مكانه في الطابور. إذ إنَّ عبارة «مَنْ

الأخير، أنا خلفك» - كانت المنقذ في فوضى أيام الحرب. وبعد أن تستند على مَن يقف أمامك، من دون أن تنفصل عنه بأيّ حال من الأحوال، تجد نفسك في عالم القانون والنظام والعدالة، وتنال الحق في الحياة. إذ يجب عليك أن تقاتل دفاعاً عن مكانك، أي أن لا تسمح لأيّ أحد أن يدخل في الطابور أمامك! وآنذاك لم يكن من الجائز ترك الطابور والعودة إليه.

وفي المتجر الصغير كانت تفوح رائحة الخبز الأسود، اللذيذة إلى درجة تثير دوار الرأس، هذه الرائحة التي يسيل لها اللعاب. فيثير الجوع ويجعله يستعر في المعِدات الفارغة، دافعاً إيانا للتحرك إلى الأمام. فنمدّ أعناقنا ونراوح في أماكننا بإصرار، من دون أن نقترب سنتيماً واحداً من تحقيق الهدف. فيتأرجح الحشد.

وبعد مرور سنين على ذلك، رأيت أنَّ ممثلي المسرحيات الإيمائية هكذا يسيرون: يحاكون المشي لكنهم يراوحون في أماكنهم.

وصل دورنا. الوزن كان دائماً أقل من المطلوب، وكانت البائعة تلقي ببراعة من الأعلى شرائح الخبز الإضافية «لتتمة الوزن»، بشكل يجعل كفة الميزان الحديدية التي فيها رغيف الخبز تنزل تحت وقع الضربة الشديدة - وفي هذه اللحظة ترفع الخبز من الميزان بسرعة. وهذا من أبسط فنون الخداع. وإنَّ تتمة الوزن هذه دائماً ما تبقى للأطفال، الذين يقيمونها عالياً. أما أنا فسرعان ما أمتصها هناك.

ثم نُقسِّم الخبز بزعمنا بأمانة إلى ثلاثة أقسام. وأقضم حصتي من الأسفل وأبتلعها على الفور. بعد ذلك تقوم خالتي وجدتي بإطعامي من حصتيهما...

عندما أسأل فافا، كيف بقينا على قيد الحياة، تهزُّ كتفيها وتبتسم بذهول إلى حدّ ما وتقول: «لا أعلم».

دخلتُ روضة الأطفال لمدة من الزمن، عاش الأطفال هناك حياتهم الاعتيادية، لقد كنّا نأكل الغراء سرّاً، إذ سرت شائعة إنه «من الكرز»، فندسُّ أصابعنا في العلبة (المرطبان) ونلحسها، وذلك عندما نقوم بصنع

مجسمات من الورق أثناء غياب المربيات. وكنا نظن ببراءة أنَّ السعلاة تعيش في الممر، لذا لا ينبغي علينا الخروج إلى هناك، لا سيما عندما تُغسَل الأرضية (هكذا قالت لنا المربية). وكانت ثمة قاعدة أخرى: عندما ننظر إلى الطائرات المحلقة، كان رفاقي الصغار يذكرون على نحو احتفالي أسماء أقاربهم الذين في الجبهة، وكأنهم يحلقون في تلك اللحظة فوق رؤوسنا. وينظرون بعضهم إلى بعض بكل فخر. بينما أنا لا أستطيع أن أذكر اسم أحد. فعدت ذات مرة إلى البيت ذليلة، وطلبتُ من خالتي أن تحدثني عن شخص ما من ذوينا في الجبهة. فكَّرتْ جاهدة، فلم تجد في عائلتنا رجلاً في الجبهة (جينيا، خالها المفضل - سجين، زوج خالتها - كذلك سجين، ووالدي الذي ترك العائلة، لم يذهب إلى الجبهة لأنه مريض بالسل). لكن فافا على كل حال استحضرت بصعوبة اسمين اثنين. فجعلتُ أقول مثل الآخرين بفخر وبصوتٍ عالٍ: «ها هما سيريوجا وفولوديا قريباي يحلِّقان». لم أكن أعرف مَن هما. وتبين أن فولوديا كان زوج خالتي السابق، بينما سيريوجا أخو جدي غير الشقيق. وكان أكبر مني بـ17 عاماً، كما تبين لي لاحقاً.

(التقيتُ به بعد مضي ما يقرب الستين عاماً، عندما احتفلنا، الأحفاد، جميعنا، في فندق «متروبول» بالذكرى المئة والأربعين لميلاد جدّ أمي إيليا سيرغييفيتش. وسيريوجا - هو الابن الأخير لديديا الذي أنجبه من زواجه الثالث في سنّ خمسين ونيف. وتبين أنَّ سيريوجا كان في الحرب طياراً بحق).

ولا بدّ لي أن أذكر، من نافلة القول، أني رأيت في الرواق في روضة الأطفال تلك ذات مرة السعلاة بالفعل، لكنها لسبب ما كانت تعدو مسرعة تحت السقف. ففي إحدى المرات انقطع التيار الكهربائي في مساء من مساءات الشتاء. فجعل الأطفال كلهم يركضون في الرواق كالمجانين، ويصطدم أحدهم بالآخر، ويصرخون ويبكون، ويلوّحون بقبضاتهم من

الفزع. فعندما تنعدم الرؤية، يُصاب الحشد بالجنون! كان الرواق مظلماً ظلاماً دامساً، ولا تكاد تضيء فيه إلّا النافذة العالية من بعيد (ربما، بسبب انعكاس النور في الليل على الثلج). وقد رُصِفَت على الجدران خزانات. وفجأة في مجال فتحة التهوية في هذه النافذة العالية، تحت السقف تقريباً، ظهر ظلّ محدودب ملتوٍ أسود كأنه قرد ومدَّ ذراعه وساقه، بعد أن تشبَّثَ بأحد الخزانات، وفجأة قفز بسرعة إلى مكان ما في الجانب من دون أن يُحدث أيّ ضجة. وامتدت خلفه إما خرقة وإما ذيل ثوبٍ. كانت هذه السعلاة بالذات! خمنتُ ذلك. لقد رافقني ذلك الرعب طوال طفولتي كلها. فتوثقتُ أنَّ المربية كانت على حق، لا ينبغي الخروج إلى الرواق.

(الأطفال، بطبيعة الحال، يتسلقون إلى الأعلى بمهارة ويقفزون في الظلام، لكني لم آخذ ذلك بعين الاعتبار. فقد اعتلى أحدهم الخزانة وقفز إلى حافة النافذة).

وكان كابوس طفولتي الثاني كوشي الخالد (شخصية خيالية شريرة في الميثولوجيا الروسية والفلكلور السلافي، له عدة أرواح)، الذي سأخبركم عن لقائي به فيما بعد.

الأطفال قادرون فعلاً على أن يروا في الواقع ما يخَوِّفهم به البالغون...

وبعد ذلك لم يكن لدينا المال الكافي لكي ندفعه، ولم يكن لديَّ حذاء، فتركت الذهاب إلى روضة الأطفال.

الأحذية بالنسبة لمساكين الشمال هي الشيء الأكثر أهمية. وأحذية اللباد لا تُنسَج في المدن.

الوقت من نيسان (أبريل) إلى أكتوبر (تشرين الأول) كان أفضل الأوقات بالنسبة إليَّ - إذ كنت أركض حافية بحرية على هوايَ. من انتهاء سقوط الثلج حتى بداية سقوطه.

لم أتحدث بعد عن التدرن، لقد أنهكني حتى لم يبقَ مخاط في أنفي.

كيف أُنقِذتُ

لقد كنّا قطيعاً كاملاً من الأطفال، وقضينا جلَّ وقتنا عند نهر الفولغا. لم أكن أعرف السباحة، ولم أكن بحاجة إلى ذلك، فالشاطئ ضحل وبإمكان المرء أن يرشرش نفسه بقدر ما يريد، ويغطس بلطف تحت الماء.

ولكن عندما حل الربيع ذات مرة، وحدث الفيضان، هذه الرعونة في الماء، وعدم القدرة على السباحة كادت أن تقضي على حياتي وتتسبب في غرقي.

ففي شهر مايو (أيّار) فاض نهر الفولغا، إلى درجة بدا كالبحر، وغمرت المياه شاطئنا المنخفض، أما الضفة الأخرى فبالكاد تُرى. قررنا أنا وصديقتي الصغيرة الذهاب إلى هناك، فركبنا العبّارة من دون أن نقطع تذاكر وعبرنا. خرجنا من العبّارة ورأينا الشاطئ مثل غيره من الشواطئ لكنه ليس منحدراً مثل شاطئنا، بل كأنه سُلَّمَة يطبطب تحتها الماء. جلستُ على العشب وأنزلتُ رجلي من هذه السُلَّمَة، لكنها لم تصل إلى الماء. وكنت أرغب بالمشي على هذا الشاطئ كما أفعل على شاطئنا.

قفزت إلى هناك، ومن فوري هويتُ في العمق، كأني عمياء صماء، وغرقتُ.

ثم فتحتُ عينيَّ وقد انغمستُ في الماء في ظل رؤية كاملة، ولاحظتُ من حولي فقاعات مضطربة تغلي وبعض الأعشاب الطويلة التي تُلوِّح بأطرافها. وجعلتُ أهبط بشدة إلى الأسفل نحو العمق، والماء لا يزال

مضيئاً. وصلتُ إلى القاع، واندفعتُ بسهولة وصرتُ أرتفع كالعمود. بدا النور في الأعلى أكثر حدة، إنه نهار ساطع. كان الهواء قاب قوسين مني. بدأتُ أرفع رأسي لكي أتنفس – وهويتُ مرة أخرى بسلاسة شديدة وانحدرت بسرعة نحو العمق. والشيء الأكثر إثارة للاهتمام هو، أني رأيتُ نفسي من فوق، كإنسان ملتوٍ ساقط على وجهه نحو الأسفل. وكنتُ لأقول لنفسي، إنَّ هذا يشبه الجنين، لو عرفتُ آنذاك هذه الكلمة. واندفعتُ مرة أخرى من القاع. وصعدتُ من جديد، لكن في هذه المرة لم أشأ أن أرفع رأسي، تأرجحتُ وظهري إلى الأعلى، وأنا أنظر بلا حول ولا قوة مني نحو الأسفل، في العمق المظلم العكر. وقد أيقنتُ أنّي لا يمكنني أن أرفع رأسي. كنتُ خفيفة وقادرة على العوم بشرط أنْ لا أتنفس. إذا أردتَ أن تتنفس وتعيش – يجب أن تنقلب. فجميع الغرقى يطفون على السطح، ولكن وجوههم نحو الأسفل. هذا هو قانون الموت في الماء. أردتُ حقاً أن أستنشق الهواء. خفق قلبي، وأخذت العروق في رأسي تنبض بصوت عالٍ. وامتلأت أُذُنايَ بالماء الصاخب. فجأة رأيت بزاوية عيني ظلّاً، شيئاً ما يلوح في الأعلى هناك، حيث الضوء، معلَّقاً كأنه فرع ملتوٍ، غصن صفصافة أو شيء من هذا القبيل... فمددت يدي على الفور، وأمسكتُ به – وانطلقتُ طائرةً إلى الخارج كأني سدادة فلين!

اتضح أنَّ هذه كانت امرأة شابة خرجت لتجلب الماء من النهر تحمل على عاتقها دلاء، ولاحظتْ شيئاً ما يتخبَّط تحت الماء، فاعتقدت أنه كلب. أرادت أن تلتقطه بنير الدلاء – وهنا امتدت إليها يد طفل! فزعت المرأة وارتدت على أعقابها. ولكن قد تعشَّق هذا الصيد بنيرها بقوةٍ مروِّعةٍ!

أما صديقتي، فما إن رأتني غرقتُ، ولم أظهر على السطح، حتى فزعَت وولّت هاربة. فالأطفال دائماً ما يختبئون تحت السرير في حالة حدوث أيّ عارض حتى أثناء الحريق.

ثم بعد ذلك جفَّت ثيابي، وأنا أرتجف من البرد، في كشكٍ متهالك بصحبة صديقتي التي عادت. وفي هذه الأثناء جاءت مجموعة من

المشاغبين الصغار، الحفاة، وصاروا يتمشون حول الكوخ ويقهقهون على نحو بشع ويستهزئون من مظهري - وهم يرونني عارية من غير ملابس. إذ التصقت الصدرية المبلّلة على جسدي... مع أن عمري كان سبع سنوات أو ثمانٍ، لكني أدركت أنَّ ذلك غير لائق. واختبأتُ خلف صديقتي. فقوانين ساحة لعب الأطفال - تكاد تكون شريعة!

وثمة ظرف آخر - فقد كان بطني منتفخاً، مثل كل طفل جائع، منهك القوى، ذراعاه وساقاه كأنهما عيدان ثقاب. وذات مرة أشار إليَّ أحدهم في فناء غير فناء دارنا وقال: «انظروا الصبية حبلى». وسرعان ما صدقت كلامه. إذ لم أكن أعرف كيف يحدث هذا الأمر، وكم من الوقت يستمر، وكيف ينتهي، لكنني أعرف، أنَّ هذا عار ويجب أن يبقى سرّاً، ولم أفعل شيئاً سوى أني صليت إلى ربي، ودعوته أن يرحمني ويخلصني. ولم أكن أعرف أيّ صلاة.

كان ذلك، في الواقع، كابوساً من كوابيس طفولتي استمر لعدة سنين. مَن هذا الذي يجلس في بطني؟ أحياناً يبكي، وأحياناً يكركر، وأحياناً يبقبق، إنه رعب. فربما، هو ثعبان، وربما، طفل!

على أغلب الظن أنَّ بعض أفلام الرعب الأمريكية، من قبيل سلسلة أفلام «الغريب»، قد كُتِبَت سيناريوهاتها في أيام الطفولة.

ركبنا العبّارة لنعود، وكان قد حلَّ وقت الغروب. حاولتُ طويلاً أن أجفف ملابسي في المتنزه، وأنا أطقطق بأسناني من البرد - إذ كان يستحيل عليَّ العودة إلى المنزل بملابسي المبلّلة، لأن خالتي وجدتي ستُخمّنان ما حدث. (هذا على الرغم من أنَّ أحداً من عائلتي لم يعاقبني في يوم من الأيام! لكن لا ينبغي أن يعلموا أني أسبح. فقد كان هذا الأمر ممنوعاً عليَّ منعاً باتّاً.)

سيرك دورروف

كنّا نقضي الصيف، طوال حياتنا، في متنزه المدينة، عند أدغال الشاطئ وخمائله. يسمى المتنزه حديقة ستروكوفسكي. وكانت الأوركسترا تعزف أنغامها في المساء من كل يوم وفي النهار من يوم الأحد على خشبة المسرح.

المتنزه كبير وكثير الأشجار كأنه غابة، ويمتد نحو نهر الفولغا من خلال ممرات ومنحدرات. كنّا نبحث عن بعض النباتات البرية في العشب ونأكلها - مثل أكواز الصنوبر، والأقراص الخضراء الصغيرة. ربما، كان هذا الغذاء الوحيد الذي يتناوله الأطفال طوال اليوم. وأكلْنا أيضاً أزهار الأكاسيا والحميض والسنط. إذ لم يوجد هناك أيّ نوع من التوت البرّي.

عندما نُشِرَتْ خيمة سيرك دورروف، كانت مهمة الأطفال هي اختراق الخيمة والدخول إلى هناك. وقد أفلحتُ في ذلك! فقد كمنت الخدعة في أن أتسلل على مستوى الركبتين من الكبار وأشق طريقي بين أقدامهم، من خلال الأبواب الواسعة للخيمة. إذ اندفعت جموع المتفرجين أصحاب التذاكر من كل حدب وصوب، وهم يتعثرون. ولكن الحشد كان كثيفاً إلى درجة، ربما، يستحيل فيها حتى أن ترى الماشين تحت قدميك. تحرَّك الأطفال زحفاً على الأربع. المهم كان أن لا تقع، حتى لا تدوسك الأرجل. وبعد أن تتسلل إلى الداخل، ينبغي عليك الاختباء بين الصفوف من نظرات الموظفين، وهذا أيضاً تمكنت منه، كان من

الضروري الجلوس بعيداً بالقرب من الكبار والدخول معهم في حوار. وكأنني ابنتهم الشعثاء.

شاهدتُ فقرة دوروف الشهيرة مع الفيل! كان على الحلبة سرير كبير مع وسادة عملاقة. جلس الفيل كالإنسان على السرير وأخذ بخرطومه ساعة منبه ضخمة، فرنَّت الساعة! وضعها الفيل على منضدة. ثم اضطجع على جنبه. وعُزفت موسيقى بطيئة. ولكن جسد الفيل بدأ على الفور يتكوّر كالتلة. ولوَّح الفيل بقدميه السميكتين ثم نهض ببطء (الحقيقة، أن دوروف شجعه بعصا). الشيء التالي كان الخرطوم، فقد رفع الفيل الوسادة ووضعها، ثم أخرج بقة بحجم إبريق الشاي! وضعها على الرمل وجعل يركلها برجله. فانفجرت البقة! وصدحت ضحكات مدوية. أطعم دوروف الفيل، حاشراً شيئاً ما في فمه، وكأنه يضعه على رفّ علوي.

بعد ذلك كانت فقرة القرود. فقد ظهر أحد القرود، يقرأ كتاباً كبيراً، وهو يقلِّب صفحاته بعصبية. بين الصفحات، على ما يبدو، ثمة قطع صالحة للأكل. وسرعان ما قام بدسّها في فمه وجعل يقلِّب الصفحات بسرعة إلى هنا وهناك، بغباء، ولكن بجشع. وكان يغمز بعينيه وينظر من حوله ويحكّ جسده. إنه يشبه بجميع حركاته الفوضوية صبيّاً جائعاً قذراً.

أو طفلة جائعة.

بحثاً عن الطعام

لقد جبنا كل مكان بحثاً عن الأكل، كأننا كلاب ضالّة. وذات يوم صعدتُ إلى مقصورة شاحنة مزمجرة، ودفعتُ الحافة المعلقة على الزجاجة الأمامية. وهناك، فجأة وجدت ثلاثة روبلات! وعلى الفور نزلت، وأشرت للأولاد إلى النقود وقلت: «هناك فوق الزجاجة!»

توجّه الجميع على الفور لكي ينظروا ويتحققوا، لكنهم لم يعثروا على شيء.

وقفت كالمنتصر!

وبالطبع، أُخِذت النقود مني بالطريقة المعروفة: «حسناً. أرني إياها!» «لا تخافي، لن آخذها!!!» - «لن أفعل!» - «ليس لديكِ شيء! أخرجيها إن كانت عندكِ!» - «لن أريكَ!» - «سألكمكِ في وجهكِ؟» - «اتركوني بسلام، أيها الحمقى!» - «أيها الصبيان المتسكعون، ليس لديها أيّ شيء، هذه العاهرة الدنيئة!» - «كلا، تقول ليس لديَّ شيء؟ ما عندي أيّ شيء؟ هاك، انظر!» (النقود في راحة يدي المفتوحة). وإذا بضربة من الأسفل على يدي! (فسقطت النقود واختفت).

في أواخر الخريف، عدتُ حسب كلمات ليرمونتوف «إلى الشقق الشتوية» المغلقة حيث جدتي وخالتي. إذ لا يمكن المشي حافي القدمين في البرد. لم يكن لديَّ حذاء لباد ولا ملابس دافئة. ولم يكن لدينا أكل أيضاً.

لم ألتحق بالمدرسة.

ولكني كنت في كثير من الأحيان أقف في سبتمبر (أيلول) حافية القدمين على الشرفة وأشاهد كيف يسير الأطفال مع حقائبهم - فقد كانت تمشي كل يوم في شارع فرونزينسكي صبية ترتدي معطفاً أزرق - فاتحاً ذا أزرار كبيرة بيض. هكذا أتذكرها.

(عندما بلغ ابني كيريل عمر سنتين، استطعت أن أشتري له ولابن عمه سيريوجا معطفين زرقاوين ذوَي أزرار كبيرة بيض! آنذاك كان من الصعب الحصول على أيّ شيء، كان هذان المعطفان من الملابس القطنية البسيطة ذات الزغب، ولكني لسبب ما كنت سعيدة جدّاً عندما اشتريتهما!).

كانت فافا تجلب من مطعم دار الضباط قشارة البطاطا - التي يلقي بها الجنود في حفرة النفايات. فتقوم الجدة بقليها في مقلاة على وابور الكاز (البريموس)، كما تقلى البطاطا، من دون زيت. ما زلت أتذكر الطعم الكريه للقشور المحترقة...

البريموس موضوع على حافة النافذة في الغرفة. لم يُسمَح لنا بالدخول إلى المطبخ.

وكنا نأكل أيضاً من دلو القمامة لجيراننا. إذ كانوا من الأغنياء. فقد سكن في الغرفة، التي سكن فيها سابقاً ديديا، ضابط برتبة رائد، وكان لديه جهاز الحاكي وأسطوانة واحدة. فكنت ألصق أذني إلى الباب المشترك المغلق، وحفظت مقطوعة بيتهوفن «حفلة شراب اسكتلندية» (دعونا، بالله، نشرب أكثر) وأغنية من أوبريت «سيلفا» (راقصات جميلات من الكباريه المفضل). في الغرفة الأخرى عاشت عائلة مدير مدرسة السكك الحديدية، عائلة راحيل نفسها التي حدّثتكم عنها، التي لسبب ما كانت تناديها الجدة باسم جميلٍ هو فوريا (الحقود). كان لديها صبيتان أكبر مني بالسن، إيما وآلّا، وزوجها الشرس المدير في السكك الحديدية.

الحمام في الشقة كان يُسخَّن بالخشب، الذي لم يكن لدينا منه شيء. وعُلِّق هناك فأس. كنّا نستحم بالماء البارد في الغرفة. وفي يوم

من الأيام صرخت جدتي من الممر. فركضنا إليها ووجدناها ممددة في بركة من الدم على عتبة المطبخ. فقد عثر زوج راحيل على جدتي المسكينة في الحمام، ضربها على رأسها بالفأس، حتى يعطيها درساً ولا تكرر ذلك. الحمد لله أن الضربة لم تتم في الجهة الحادة من الفأس. استدعت فافا «الإسعاف»، فضمَّد الطبيب رأس الجدة الشائب (الشيء الوحيد الأبيض خلال الخمسة عشر عاماً جميعها التي قضتها عائلتي في كوبيشيف). وبالطبع، لم نقدِّم شكوى ضده في أيّ مكان. كان اسم ذلك المدير كريتين (القميء)، لقد بقيت أتذكره إلى اليوم. والعائلة كلها تُدعى «آل رفاتشي» (الجشعون).

بطبيعة الحال، إنَّ الرائد وكريتين وفوريا يرمون قشور البطاطا السميكة، وعظام سمك الرنجة ورؤوسها، وأوراق اللهانة (الملفوف) الخضر. لكن لم تكن تقريباً ثمة قشور خبز محروقة.

وهذا أيضاً كان يجلب العار والسباب! أي إننا لا نأخذها إلّا عندما ينام الجيران.

وإذا حصلت الجدة على الكيروسين (النفط الأبيض) تطبخ لنا الحساء!

الدمى

وذات ليلة حلّت اللحظة المعتادة، التي هدأت فيها الشقة، إذ اقترب الوقت من منتصف الليل. وكان الجوع قد نهش مصارينا تماماً، وبعد انتظار الوقت المحدد، أرسلتني جدتي وخالتي إلى دلو النفايات.

وبعد أن تذكرتُ حادثة الفأس، تسللت إلى المطبخ.

شاهدتُ قرب دلو القمامة على مقعد صغير دميتين كبيرتين من الخرق من دون ثياب. من الواضح أنَّ أطفال جارتنا، فوريا ياكوفلينا، ألقوا بها هناك.

كانت الدمى ذات رؤوس مصنوعة من الورق المعجن، من دون شعر، وذوات أنوف مقشورة، والأجساد واليدان والساقان من الخرق.

لديَّ دمية، ولكنها برِجل واحدة ومن السليولويد، وزيادة على ذلك هي صغيرة. بالإضافة إلى أنه كان عندي حصان. قصصته من قطعة من الورق المقوى ولونته بقلمي الرصاص الأرجواني الوحيد: ورسمت له عيناً. الحصان لم يبدُ لي حقيقيّاً. فلففته في خرقة عبر بطنه لكي يكون كرشه أكثر سُمكاً.

وإذا بهاتين الدميتين الجميلتين أمامي!

الآن أنا أُدرك ماذا تعني الدمى للفتيات: إنها بالنسبة لهنَّ آلهة آسرات. وهذه الآلهة الصغيرة تثير الهلع والطمع المتوحش إلى حدّ سيلان اللعاب، والعشق والعبادة، والشراسة، وإذا ما وقعت في نهاية المطاف في يديك، فيمكنك أن تفعل بها أيّ شيء! تحملها البنات معهنَّ في

كل مكان ويلصِقنها على صدورهنَّ بشدة ويطعمنها بالقوة، قائلات «عَمّ!»، وربما، تبقى إلى الأبد ملطخة وجوهها وجافة. يمكن أن يرسمن لها وجوهاً ثم يمسحنها كلها تماماً، بما في ذلك الحاجبين الصناعيين ودهان الشفاه. ويمكن أن يقصصن الشعر. وبعد أن يفعلن كل ذلك، يتأسفن ويعدن من جديد يحببن الدمى بشكل أقوى. لا شيء يمكن أن يقارن بحب الصبية لدميتها (سوى الحب الجنوني للأم والأب والتعلق الرهيب بالجدة والجد). يمكنك أن تفعل أيّ شيء مع الدمية! أن تلعب معها حتى لعبة الطبيب، أن تعمل لها عملية، وأنت تبتلع ريقك. الشيء الوحيد الذي لا ينبغي عليك فعله، هو أن لا تترك الدمية تقع في أيدي الأولاد! إنهم سوف يمزّقونها!

الدمية بحاجة إلى أن ترتب لها منزلاً وسريراً ويفضّل أن يكون تحت الكرسي أو تحت الطاولة.

ولكن هنا، في هذه الحالة، أنا جمدتُ. لم أستطع مساعدة نفسي. فقد كانت الدميتان المتروكتان ممدَّدتين، بينما أنا لم أستطع حتى أن أصدق حظي. عرفت أننا لا مستقبل لنا، وحتى لا حق لي في أن أحلم بخياطة ثياب لها، فأين يمكن العثور على قصاصات القماش، لم أجرؤ حتى على أن أفكر في المكان الذي ينبغي عليَّ أن أضعهما فيه، وفي الحياة التي يمكن لنا أن نعيشها معاً!

هاتان الدميتان الكبيرتان أصبحتا أولى آلهتي. وعلى الفور بدأت أشتاق إليهما. لقد تحتّم علينا أن نفترق. جثوت على ركبتي، وأجلستهما، وضعت أيديهما، الوسخة المسكينة المحشوة بالقطن المندوف، كما ينبغي. وتدريجيّاً أخذتْ هاتان الدميتان الكبيرتان مكانهما في روحي، وعزتاها وملأتاها (كما يملأ الطفل روح أمه وصدرها وبطنها، إذا ما احتضنته). احتضنتُهما بالتناوب. ثم أخذتهما بين ذراعيَّ والتصقتُ بهما وتسمَّرتُ في مكاني. كانتا كبيرتين وجميلتين وآسرتين.

لا أتذكر كم من الوقت استمرّ ذلك، ربما، استمرّ حتى الصباح. لم

أجرؤ على أخذهما إلى المنزل. وقبل موعد الذهاب إلى المدرسة ألقت راحيل، المرأة العملية، نظرة في المطبخ، وسرعان ما خرجت الصبيتان وأخذتا دميتيهما وعامتا بعيداً.

ليلة النصر

الآن سأتحدث عن السعادة، عن ليلة النصر. نعم، حدث الأمر ليلاً لا نهاراً. وما نام في ذلك اليوم والليلة في المدينة، إلّا القليل من الناس، على ما يبدو. انتظر الناس الخبر من ساعة إلى ساعة، ثم كرر الجميع بفرح وابتهاج هذه العبارة الغريبة وغير المفهومة «استسلام من دون قيد أو شرط». في الساعة الرابعة صباحاً استيقظتُ على وقع ضجيج في الشارع، وكأن حشداً هائلاً من الناس لا حدّ له يركضون ويتمتمون ويهتفون بشيء ما، كالقطار الهادر. كان لا يزال الظلام (لم تكن لدينا ساعة، ولكن السبب في أنني أعتقد أنها الساعة الرابعة - يكمن في أنَّ نور الفجر ينبلج الساعة الخامسة).

قفزت، كما أنا، في صدريتي، حافية القدمين، وركضتُ في الشارع حيث قضيتُ اليوم كله. كان الناس في المدينة يُحيّون العسكريين ويقذفونهم إلى الأعلى ترحيباً بهم وفرحاً، ويهزّون بشكل محموم حتى المتشردين من دار الضباط في مدينتنا ويقذفون بلطف إلى الأعلى الجرحى في المستشفيات العسكرية، وفي كل مكان كانت تصدح أصوات أجهزة الحاكي، ويُعزَفُ على الأكورديون والبَلَلايكا وفي حديقة ستروكوفسكي كان الناس يرقصون، وعند مدخل الحديقة كانت تُباع أزهار النرجس الثلجية.

بدأت حياة جديدة، وحلَّت المجاعة الكبرى لسنوات ما بعد الحرب.

دار الضباط في المحافظة

صرتُ أترك المنزل كثيراً.

المرة الأولى التي هربت فيها من المنزل في الصيف في سنّ الرشد تقريباً، كان عمري سبع سنوات. على ما يبدو، بعد يوم النصر.

في أوائل حزيران (يونيو)، قضيت عدة أيام حرةً طليقة. لم أكن أنام في الشارع، وليس في حديقة ستروكوفسكي تحت منصة الفرقة الموسيقية، حيث رأيتُ صدعاً في المقاعد، وأرضاً متعفنة سوداء، تنبعثُ منها الرطوبة ورائحة براز بشري قديم، فكلّ شيء هناك مدنَّس (في النهار كنت أجوب وأبحث عن ملجأ لليل). لقد وجدت مكاناً للنوم في مكتب مدير نادي الضباط (دار ضباط المحافظة).

اعتدتُ سابقاً على التسلل مع أولاد شارعنا إلى هناك لمشاهدة عروض الأفلام، بعد أن نختبئ وراء الأبواب، واعتدت أن أجمع فتات الخبز من العربة الخشبية، التي كانت تجلب أرغفة الخبز إلى مطعم دار الضباط (عندما يخرج السائق والمستلم معاً من الباب الخلفي وهما يحملان الطبلية (الطاولة) الأخيرة من الخبز وأوراق الاستلام والتسليم، تظل العربة فارغة ومفتوحة. والفرس تقف واضعة ظلفيها الخلفيتين على الحوافر، فنقفز نحن، الأطفال الجياع، إلى الداخل، حيث تفوح رائحة الخبز اللذيذة بشكل لا يوصف، ونجمع من الأرض حفنة من الرقائق).

كانت دار الضباط مكاناً قريباً، حيث إنَّ بابه الخلفي يلوح في الأفنية

الخلفية لدورنا. وساحة الفناء نفسها والمبنى محاطان بسور ومراتب. كان جنود دار الضباط يكشّون الحمام وينثرون له قشور الخبز، التي تجف بعد أن تسقط على الأسطح الحديدية للعنابر، فلا يستطيع الحمام أن ينقرها، فنقوم نحن الأطفال بالتسلق من الفناء على سطح الصفيح الساخن، ونركض على أعقاب أرجلنا لنجمع القشور هناك.

يمكن التسلّق باتجاه واحد فقط – من خلال التشبث بأصابع الرجلين بالحافة الحادة لبرميل كبير مليء بالقار.

لا يُعرَف من وضع هذا البرميل بالقرب من العنابر، لكنه في الحقيقة كان فخّاً حقيقيّاً للصِبْية الجياع. فالكبار يعلمون أن الأطفال على كل حال سيتسلقون، ولكن لم يرفعوا البرميل من هذا المكان!

كان القار يذوب في الحر، ويطفح إلى خارج البرميل، والجميع يعلمون جيداً، أنه يمكن أن يقع في البرميل أحد الأطفال ويغرق حتى الموت في القار. إذ لا يمكن لأحد أن يخرجه من هناك بسبب كثافة القار. لكن الأطفال مع ذلك كانوا يتسلقون. علّهم يجدون على السطح قشور خبز منثورة! أما بالنسبة لي، فقد كان الجوع أقوى من الخطر. لذا، كان عليَّ أن أنتهز الفرصة، التي لا يحوم فيها الأولاد حول البرميل.

تحت البرميل كانت دائماً ثمة بركة من القار الذائب المتسرب كأنها رغيف متدرن كبير. وذات مرة دفعني الأطفال إلى هناك. جلست في هذه العجينة اللزجة الرهيبة وحاولتُ ألّا أبكي. التفَّ حولي الأولاد وهم يضحكون ويقهقهون بأعلى أصواتهم. فلم أستطع أن أتماسك، وما فعلت سوى تحريك يديَّ الكبيرتين السوداوين، كما في المنام، اللتين تحولتا إلى قفازيْن، وحاولت أن أفك التصاق أصابعي، فامتدت منها نتوءات وخيوط القار. تيبَّس كفّايَ، لكني خفتُ أن أغمس يديَّ مرة أخرى في طبقة القار الدبقة، لكي أتكئ عليها، وهذا هو السبيل الوحيد للنهوض. ثم جاء رجل سبَّني ورفعني من تلك البركة التي التصقتُ بها. فجرجرتُ قدميَّ عائدةً إلى البيت، تحت الضحكات المتوحشة لأولاد

شارعنا، وأنا أحاول أن لا ألمس رأسي. في المنزل كُشِطَ عن جسمي القار بطريقة أو بأخرى. وكان عليَّ التخلص من ملابسي الداخلية. ولم يكن لديَّ غيرها... وقد تكيّفت على أن أربط فانيلة في الأسفل على شكل عقدة.

في هذا العالم لم يكن ثمة وقت للتفكير. فالوقتُ محددٌ للهرب أو الاختباء، أو، إذا أمكن، للصراخ والعراك فحسب.

في جميع النواحي الأخرى، كان لديَّ طفولة عادية وفق مقاسات ذلك الزمان. الصديقات ولعبة الاستخفاء (الغميضة) ولعبة «قطاع الطرق - القوزاق» المحمومين وغيرها من الألعاب. في لحظات الهدوء نقوم بعمل «مخابئ سرية» - نضع في حفرة قطعاً ملونة من الزجاج ونغطيها بزجاجة كبيرة واحدة، ومن ثم نهيل عليها من الأعلى من رمال الفناء القذرة. ونذهب نبحث عن «مخابئ» الآخرين، من دون أن نسمح لأحد أن يعلم بمكان «مخابئنا». وعلى الرغم من أنَّ الأطفال، بطبيعة الحال، كانوا يسخرون من لهجتي المسكوفية، لكنهم يحاولون تقليدها ومحاكاتها بطريقة كاريكاتورية مُضحِكة.

لكن الأقرب والأفضل بالنسبة لي كان الكلب دماكا. أحياناً كنا نتسكع معاً في أيّ مكان، وأحتضنه من رقبته النحيفة، وأحياناً أخرى نجري ونقفز، وكان يجلب لي العصا التي أُلقيها، فأُكركر من الضحك. ولكن ذات مرة اندفع يركض مبتعداً عني، بسرعة رهيبة، وجرَّ بصعوبة بواسطة أسنانه شيئاً كأنه مشط دامٍ - يبدو أنَّ الجنود من المطبخ ألقوا بضلع ضأن مقشور. فركضتُ باتّجاه الكلب، لكنه زمجر محذراً أثناء فراره، للمرة الأولى خلال ذلك الوقت. فتركته. إذ لم يكن الوقت بالنسبة لدامكا وقت مزاح!

ظللت أطلب من خالتي وجدتي أن تعطياني «حتى ولو قطة صغيرة، أو جرو صغير».

وذات مرة في فصل الشتاء، تحقق حلمي، فقد أحضرتُ قطة جائعة

إلى الغرفة، حدث ذلك ليلة رأس السنة. كانت تقف على السلَّم وتموء، ففتحتُ الباب لها. كان مصباح الكيروسين لدينا مشتعلاً بمناسبة العيد! والغرفة متوهجة وجميلة بشكل لا يصدق. عانقت على الأريكة القطة موروتشكا المولودة حديثاً، فجعلَتْ تهرُّ بخجل. انتظرنا منتصف الليل، ثم استمتعنا معاً بأكل ما ألقاه الجيران في القمامة. أكلت القطة كل شيء، حتى قشور البطاطا ورؤوس سمك الرنجة! ثم، بعد أن أكلنا، رقصنا أنا والقطة موركا الرمادية اللون حول غصن شجرة الشوح (شجرة عيد الميلاد)، المغروز في علبة من الصفيح. كانت القطة مجبرة على أن تخطو برجليها الخلفيتين النحيفتين المضفورتين خطوات غير متساوية وهي تجرّ نفسها من حولها، وكنت أمسكها بقائمتيها الأماميتين وأغني: «أيتها الراقصات الجميلات، الجميلات من الكباريه المفضَّل»، مع الحاكي الذي يصدح صوته عند الجيران. فقد كانت لدينا أجواء عيد!

ثم طلبت الذهاب للخارج وهربتْ.

حوادث حياتي كلها وقعت في الصيف.

في بعض الأحيان أتمكن من الوصول إلى السقف والعثور على قطعة من قشرة خبز سوداء. ولم يكن ثمة سبيل للعودة (سوى الوقوع في برميل القار)، فيحدث أن أقفز خلسةً من الجانب المقابل للعنابر في فناء دار الضباط. ثم أتسلل إلى دار الضباط من جانب الخفراء، لا أتذكر كيف. الطُّعم الرئيس بالنسبة لنا جميعاً، الذي كان يجرّنا نحو دار الضباط- هو أنَّ هناك تُعرَض أفلام في كل ليلة. وهذه الأفلام مأخوذة من ضمن الغنائم: «قراصنة المملكة» «جزيرة الآلام» - أفلام إيرول فلين. وأفلام دينا ديربن. «الفالس العظيم». «سيرنادا الوادي المشمس» (فيلمي المفضل، باستثناء الخاتمة الغبية).

لذلك في الصيف كان ثمة الكثير من السعادة.

شاهدنا جميع الأفلام، ونحن نختبئ خلف الأبواب وخاصة خلف

الستائر في الفترات الفاصلة بين العروض، ومثل جواسيسنا في أفلام الحرب الأخيرة («مهمة سرية»، «مأثرة ضابط استخبارات»، على سبيل المثال)، اختبأت أنا أيضاً ذات مرة بعد عرض الفيلم. ومن ثم، كما في المنام، اندفعتُ بسرعة في الممرات الفارغة تماماً، وعثرتُ على مبيت لنفسي في غرفة المدير، حيث توجد أريكة منجدة بالصوف الخشن، الذي كوى خدي طوال الليل. وبعد أن دسست كوعي تحت رأسي، وعزمت أمري على النوم، بينما كانت الليلة منيرة، من ليالي حزيران (يونيو)، وهنا برزت أمام عينيَّ المضطربتين بكل روعة وغلظة لوحة فيها ستالين وفوروشيلوف في معطفيهما العسكريين وهما يستقبلان المشاركين في الاستعراض وتمرّ من أمامهما (ربما، عربات؟) الفرسان. لأول مرة في حياتي، رأيت أمامي عملاً مرسوماً فتملّكني الخوف.

سوف أخبركم لاحقاً أيضاً عن رعب حياتي، عن قصة غوغول «الصورة».

لغة خدم البلاط

خلال النهار كنت أستجدي، حالي حال أيّ طفل مشرد بلا مأوى. أي إني، أستعطي الصدقات. الجوع تحملته بسهولة، فقد تعرضنا للمجاعة منذ مدة طويلة، إذ رقدت جدتي في فراش المرض وجسمها متورم من الاستسقاء كأنه جسم فيل، على الرغم من أنَّ خالتي تقول إنها مع ذلك تذهب أحياناً إلى الميناء للعمل في تفريغ البضائع، حيث يعطونها هناك زجاجة كحول، التي يمكن استبدالها بالخبز. وجلبت خالتي فافا ذات مرة من مكان ما حفنة من سلطة الخضروات المسلوقة، ومرة أخرى جلبت كوباً من مربى البرقوق. ما إن جلستُ أمام المربى، حتى أكلته على الفور، مثل وحش صغير، مدركةً أنه لن يكون ثمة حدث آخر من هذا القبيل في حياتي. وبعد ذلك بقيت عشرات السنين لا أستطيع حتى تحمل رائحة مربى البرقوق!

لقد قُطِعَت الكهرباء عنّا بسبب عدم دفع مبالغ الاستهلاك المتوجبة علينا، لكن في بعض الأحيان تمكنّا من شراء الكيروسين للمصباح والبريموس. ولسبب ما، في الدكان نُعطى الوقود بعد الجميع. إذ كنّا نقف هناك لساعات طوال. ومنذ ذلك الحين إلى اليوم، تُثير رائحة الكيروسين فيَّ شعوراً بالنور والفرح. إذ نُحضِر إلى المنزل صفيحة صغيرة من الكيروسين. ويمكننا بعد ذلك أن نطهوَ شيئاً ما. وفي بعض الأحيان كنّا نُشعِلُ مصباح الكيروسين، فيغمر ضوؤه الذهبي الساطع والمهيب غرفتنا، بارتفاع ظهر الأريكة.

وهاكم هنا مسألة فرح الحياة – لا سيما السعادة الملحّة التي تُكتَسَب بالحرمان، من دون لفّ ودوران في الكلام. الفراق وحده يجعل اللقاء المستحيل ممكناً.

لقد تحملتُ معاناة الجوع ببساطة وسهولة، لكنني لم أتمكن من تحمل عدم الحرية. ولأن جدتي وخالتي فافا كانتا تخشيان عليَّ (بعد كل شيء، هي فتاة صغيرة من عائلة محترمة، والمدينة متوحشة، مليئة باللصوص وقطاع الطرق، والحياة في الفناء غير مقيدة)، فقد ذكرتا لي أن الغجر في المدينة سرقوا طفلاً، وتحت هذا الشعار، كانتا تأمراني بعدم الخروج والتجوال في المدينة. وهنا هربتُ على الفور، ولم أعد إلى المنزل إلّا بعد عدة أيام، واستفدت ببساطة من حكايتهما الخرافية، وقلتُ بأن الغجر سرقوني، وخلّصَتني منهم الشرطة.

كان أفراد عائلتي يتبادلون الكلام بقلق عن رأسي الطائش، وهم يستعملون ما يسمى «لغة خدم البلاط»، وشفرة الجماعات السرية.

لم يعرفوا أنني تعلمت كيف أفهمها، وأنَّ هذا الأمر أخفيته أيضاً. أتذكر أنهم عندما كانوا يشتمون يستعملون كلمات يظنون أني لا أعرفها. وكان ديديا يستعمل اقتباسات من أشعار بوشكين حول الأمير دودنيك عندما يريدني أن لا أعرف ما يقول، لكني كنت أعرف تلك الكلمات من الشارع وأستخدمها من دون علمهم.

كشفت خالتي فافا مؤخراً عن سرّ هذه الشفرة. كان يُطلق عليها بين البلاشفة اسم «لغة خدم البلاط». تنقسم قائمة الأصوات (الحروف) الساكنة فيها إلى قسمين، واستُبدِلَ فيها الحرف الأول بالحرف الأخير، وهلم جرّاً. واستُبدل الحرف «ج» بالحرف «خ» وبالعكس، و«غ» إلى «ش» و«ن» إلى «ب». ومن خلال هذا الاستبدال يمكن التعبير عن كلمات السباب والعبارات البذيئة بشكل غير مباشر وكأنها كلمات صينية.

ولهذا، كنت أفهم قلقهم كله ومخاوفهم كلها ونواياهم وتكهناتهم كلها، وسمعت كلماتهم المريرة كلها. لكنَّ هذا لم يُثِر اهتمامي، ولم أخض في هذه الأمور، ولم أثق بهم، كانت مهمتي أن أغادر المنزل وأخرج إلى الشارع.

هكذا عشتُ أشهر الصيف في سنين الحرب - أجوب شوارع المدينة، أتسوّل، وأستعطف إحسان الناس بِيُتْمي: «ساعدوني، ليس لديَّ أم ولا أب».

مسرح البولشوي

وفي إحدى الليالي اخترقتُ شرفةً (على ما يبدو، شرفة الإنارة) في دار الأوبرا، فالمدخل إلى هناك كان من الخارج بالدرج الحديدي. درتُ تحت جدران الأوبرا، لأني لم أتمكن من الدخول إلى المسرح، فشاهدتُ الأضواء تتوهج، والجمهور قد احتشد، وسمعت الموسيقى العذبة تصدح... وكان المكان دافئاً في الداخل.

وفجأة لاحظت درجاً معدنياً شديد الانحدار بعيداً عن المدخل، خلف الركن. يتطاول تحت السماء بارتفاع يقرب من خمسة طوابق. وقد حلَّ الظلام، وكانت تعلو في السماء سحب منخفضة، وأخذت تقطر رذاذاً. فصعدت إلى الأعلى بيديَّ وقدميَّ الحافيتين على السلالم الحديدية المبلّلة، وفي هذا الوقت انتابني شعور شديد بالخوف من النظر إلى الأسفل. فتسلقتُ بصعوبة، وجعلتُ أنهش جسدي، وتصورتُ اليُتم. وقد أضفى الخوف من العودة والنزول بهذا الدرج الشديد الانحدار نحو الأسفل، والخوف من السقوط، أضفى على صوتي، على ما يبدو، سمة اليأس الحقيقي. وإذا بي أنطق بعبارات الأطفال المتسوّلين: «ما عندي أب ولا أم... ألا تسمحون لي بالدخول!؟! أرجوكم، من فضلكم، حسناً، أتوسل إليكم، ارأفوا بحالي، أحسنوا إليَّ، كم أنا سعيدة هنا! كم أريد أن أستمع إلى الموسيقى، أرجوكم، دعوني على الأقل أدخل لمدة خمس دقائق!» وقد دوّت الريح بالفعل. وتجمدت قدماي على الحديد. وفجأة فُتِح الباب نحو الدفء، والظلام، وصدحت أصوات الأوركسترا الاحتفالية، وسمحت لي امرأة طيبة بالدخول.

لقد وجدتُ نفسي على شرفة غرفة الإضاءة قرب منصات المصابيح الساخنة التي تفوح منها رائحة الطلاء المحترق، وفي الأسفل، القريب جدّاً، كان ثمة شيء سحريّ ملوَّن وساطع، وقصر ذو حديقة اصطناعية بين أشجار مرسومة - وفيه أيضاً شرفة، أقل علوّاً بقليل من الشرفة التي كنت عليها! وعلى بعد أمتار قليلة مني وقفت سيدة متوردة وغنّت بصوت رقيق «يا صديقي العزيز، أنا أستمع إليك» بصوت لطيف. وفي تلك الليلة استمعت إلى «حلاق إشبيلية» لروسيني بأداء فرقة مسرح بولشوي الذي أُجليَ إلى هنا من موسكو. في الليلة التالية تسلقت مرة أخرى. وتعرضتُ لخدوش. وتجمدت من البرد وأنا أرتدي الصدرية وحدها. وجعلت أعوي وأبكي. لكن أحداً لم يفتح الباب لي.

جرجرت قدميَّ وعدت إلى المنزل مثل كلب مضروب. فعلى الأقل المكان هناك دافئ.

بقيتُ طوال عمري أتذكر هذه القطعة من ثنائي روزينا وألمافيفا...

وفيما بعد، عندما عدت، تظاهرتْ جدتي وخالتي بأن كل شيء على ما يرام، لم تسألاني عن شيء، ولكن ظللت أحكي قصصي المختلقة (كيف سرقني الغجر).

على ما يبدو أنَّ جدتي وخالتي فافا كانتا سعيدتين لوجودي بشكل عام في هذا العالم، ولم تخاطرا بانتشالي من الوحل. في بعض الأحيان كانتا تطعماني حساءً من أوراق الكرنب (اللهانة)، التي تلتقطها فافا في السوق من على الأرض. («للماعز؟ تأخذينها للماعز؟» - تسألها النساء البائعات، لكي لا تنزعج، على ما يبدو. وقد رأيتُ خالتي فافا، التي كانت قبل مدة قصيرة طالبة في أكاديمية القوات المدرعة، رأيتها تبكي في الخفاء، وهي تنحني على أوراق الملفوف (اللهانة) المدعوكة في الأرض، من جراء هذه الأسئلة). وفي وقت متأخر من الليل، تبعثاني، كما هو الحال دائماً، إلى اقتناص ما في دلو قمامة الجيران.

إلى الأسفل على السلّم

وذات مرة، بعد أن عدت إلى المنزل، على ما يبدو، حبكتُ كذبةً، جعلتْ من جدتي وخالتي تتجهمان، وبعد أن تداولتا بلغتهما الخاصة وهمستا اتخذتا قراراً.

قامت فافا وأغلقت الباب!

بشكل عام، لم يكن الأمر كله عبثاً: فكل صبيَّة صغيرة، عندما تكبر، لا بدّ أن تكون لها علاقات مع الأولاد في فناء الدار. وكقاعدة عامة، لا بدّ أن تمرّ عبر العديد من الأيدي.

هناك، وراء العنابر.

الصبايا الأكبر سنّاً لا يتحدثن بعضهن مع بعض عن هذا الأمر، لكنهنَّ كُنَّ يُلَمّحنَ، وهُنَّ يُشِرنَ بذقونهنَّ إلى تلك الجهة الفظيعة.

لم أكن أفهم شيئاً. ولم أشعر بأيّ خطر. كنت نحيفة كأني هيكل عظمي. تعرضت للضرب، لكن قبل أن يستغلوني لأغراضهم الخاصة.

ومع ذلك، فإن هذا المستقبل - بطريقة أو بأخرى - مررتُ به. على الأقل كعقاب، حتى أعرف مكانتي.

ثم جاءت من موسكو الخالة ماروسيا ياكوفليفا، شقيقة جدي نيكولاي فيوفانوفيتش. وكانت تربوية في خط جماعة المسرح، تتفقد المسارح المحلية، وجلبت معها طرداً مرسلاً من والدتي، وزارتنا كذلك. جلبت لي الهدايا - علبة من هلام (المرملاد) ثلاث طبقات، وعلبة فيها أوانٍ من الألمنيوم للأطفال - كانت تضم قدوراً صغيرة مع أغطيتها ومثبَّتة كلها إلى العلبة بشرائط مطاطية.

إنه ترف حقيقي لم يُرَ من قبل ولم يسبق له مثيل!

تحدثت الخالة ماروسيا معنا بشكل إرشـادات، وطرحت بعض الأسئلة وغادرت.

إنها، بوصفها ممثلة ومعلمة، وكذلك أختاً لزوج جدتي (شقيقة زوج حقود) لم تحرك ساكناً، بعد أن رأت كيف نعيش.

لكنها في موسكو، أخبرت والدتي مباشرة عن كل شيء رأته وعايشته! هكذا أعتقد.

أمي في ذلك الوقت أكملت الدراسة في معهد الفنون المسرحية وحصلت على وظيفة.

لم تكتب جدتي وخالتي عن حالنا أيّ شيء إلى أيّ أحد بسبب عزة نفسيهما.

وهكذا، أغلقت جدتي وخالتي الباب عليَّ ومنعتاني من الخروج بسبب قلقهما.

وفي يوم من الأيام، عندما كنت أرقص على وقع صوتِ غنائيَ العالي وأُظهِر لجدتي وخالتي فافا فنّي، رقصتُ باتجاه الباب الذي كان يتدلى منه المفتاح وتمكنت من أن أديره في القفل، ولكن أمسكتْ بي أيادي المُحِبّات. ولم تعودا تتركان المفتاح يتدلى بعدُ في الباب. أخذ قلبي ينبض بعنف. لقد احتجزتاني تحت الحراسة.

وبعد ذلك، استولت عليَّ الرغبة بالحرية، فخرجت إلى الشرفة. كنا نسكن في الطابق الثالث، وكنت أخشى القفز. بعد التفكير تسلقت، وأنا خائفة للغاية، على شرفة الجيران، ومن هناك تمكنتُ بصعوبة من الوصول إلى سلَّم الحريق. كان السلَّم يتأرجح، إنه من الخشب، ومنخور، وبدت لي الامتدادات بين العوارض كبيرة جدّاً. كنت أتعلق في كل مرة بيديَّ، وأمسك بواسطة اللمس بقدمي السلَّمة ونزلت خطوة بعد خطوة نحو الحرية. في الأسفل، قبل متر ونصف من الأرض تقريباً،

انتهى الدرج. لم أعرف ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل، فهويتُ ساقطةً. وقعتُ على ظهري وقفزت. صحتُ مرحى. وانطلقتُ. كان يوماً بهيجاً مشمساً. كنت قد فكرت مسبقاً بكل شيء، وارتديتُ جميع ملابسي - الفانيلة الداخلية والصدرية والسترة الصوفية ذات اللون الأخضر الفاتح، التي أهدتها لي إحدى الجارات الطيبات الساكنة في جناح آخر من العمارة، التي كانت تجلب لي أحياناً قليلاً من الخبز أيضاً.

ثم بدأتُ أتمشى تحت الشرفة، وقلبي يدق بعنف، وأنا أرتجف من السعادة والشعور بالحرية، وانتظرتُ حتى يظهر من خلف الحواجز الحديدية رأس خالتي الشائب، مع أنها لم تتجاوز سنّ الثانية والثلاثين. نظرت إليها في الأعلى، وشاهدتُ عينيها الزرقاوين الغامقتين. «كيف نزلتِ؟» - صاحت خالتي بصوت عالٍ، لكي تكسب الوقت وتمسكني في مكاني مدة أطول (ربما أنها كانت تأمل أن جدتي أدركت كل شيء، ونزلتْ مسرعة على السلَّم خلفي، على الرغم من أنها لا تستطيع لأن ساقيها المتورمتين لا تساعدانها على السير). «قفزتُ»، - أجبتها على كل حال، حتى لا تلاحقاني، وانطلقتُ راكضةً أسرعَ من الدوامة، قبل أن تمسكا بي. لقد هربت، كما تبيَّن، إلى الأبد. ولم أرهما مرة أخرى إلّا بعد تسع سنوات، وما عرفتاني يوم ذاك. وقد بلغتُ آنذاك سنّ الثامنة عشرة. «مَن هذه؟» - سألت جدتي الضئيلة، وهي تصعد السلَّم بصعوبة بالغة على قدميها المتورمتين. ما زلت حتى اليوم أشعر بالذنب...

كم أفهم الآن، عندما أسترجع مسيرة تربية أطفالي الثلاثة، الذين كانوا كلهم مراهقين- إنَّ الأطفال أيضاً، يربّون البالغين. ويجبرونهم على اتخاذ إجراءات.

ما هي خطوتي التالية على طريق النضال من أجل الحرية؟

أن لا أعود إلى المنزل على الإطلاق. كيف أعود إلى جدتي فاليا وخالتي فافا؟ فلو ظفرتا بي، فسيغلقان حتى باب الشرفة.

لأن الطفل لا يبقى حيّاً في الشارع إلّا في أوان الدفء. فما إن يحل البرد، حتى يموت. هذا هو السبب الذي يجعل الأطفال المشردين يحومون حول محطات القطار الدافئة. ولكنهم على كل حال يموتون.

ومع ذلك، لا ينبغي منحهم الحرية الكاملة – لأنهم سوف يهربون.

فالتربية تمثل صراعاً لتناقضات لا حلَّ لها.

ومع ذلك، عندما سُئلت عن الأشياء التي تُكتَبُ حولها المسرحيات، قلت على عجل – تُكتَبُ عن المشاكل غير القابلة للحل. والمشاكل كلها، في الأساس، لا حلَّ لها.

سأتحدث عن هذا الموضوع لاحقاً.

ملازمة الأدب

الآن، بعد هذا النكوص التربوي، أعود إلى قصة «الصورة» لغوغول.

لقد ربتني جدتي في مكان مغلق، ممسكة بي في المنزل من خلال استعمالها لموهبتها في حكاية الأدب الكلاسيكي. أخبرتني خالتي فيما بعد أن والدتها قادرة على أن تواصل بسهولة أيّ برنامج إذاعي، إذا ما قرأت أعمال نيكولاي غوغول أو رواية «الحرب والسلام». فهي تتذكر الكثير من المقاطع عن ظهر قلب. فالجدة فاليا، «الطالبة» السابقة من معهد بستوجيفسكي النسوي في بطرسبورغ، كان لها ذاكرة رائعة. كان جدي نيكولاي فيوفانوفيتش، زوجها، أستاذاً لغويّاً ويعرف إحدى عشرة لغة. بينما أنا، حفيدتهم، لم أدخل حتى إلى المدرسة، لأنني لم يكن لديَّ حذاء. فمن نيسان (أبريل) إلى تشرين الأول (أكتوبر)، كنتُ أركض حافية القدمين، وفي الشتاء أجلس في المنزل. لكن على كل حال بدأت القراءة تقريباً في سنّ خمس سنوات في الصحف التي يلقيها جيراننا. لم يرغب أهلي في الأساس أن يعلموني. نهى ديديا عن ذلك لسبب ما (وحسناً فعل، لأن الطفل يهتم للغاية في الأشياء الممنوعة!). وحتى إنني حفظت عن ظهر قلب مقتطفات من «المنهاج المختصر لتاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي (البلشفي)»، وهو الكتاب المطروح دائماً على سرير الجدة - وكانت تضع خطّاً فيه تحت عبارات الكذب الصارخ. إذ علَّمَت الكتاب كله بشرطات سفلية (من كثرة الكذب فيه).

وكان ثمة اثنان آخران من الإصدارات المطبوعة - «غرفة في العلية»

لفاسيلينكايا فاندا، الذي لم أعد أتذكره، وأول كتاب قرأته «حياة سرفانتس» الذي كان، على ما أعتقد، من تأليف برونو فرانك. في ذلك الكتاب وصف لمصفق (دورق) زجاجي فيه خمر موضوع على طاولة في زنزانة سجن، على ما يبدو. وثمة بقع حمر من الضوء مسلّطة على مفرش الطاولة الأبيض. ما زلت أرى هذه الصورة بوضوح، كما لو كنت أعيش هناك. الضوء الأحمر على الأبيض! لم يكن ثمة شيء من هذا النوع في عالمي. لا أبيض ولا أحمر. ولكنه كان موجوداً في حياتي أيام الطفولة، هذه هي القضية وما فيها. أتذكر هذا الوهج المنعكس! وهذا المفرش الأبيض كطبقة ثلج سميكة مرصوفة، هذا المفرش الثقيل ذو الحافات السميكة النازلة على الزوايا. وهذه الغرفة ذات السقف الخشبي. والنوافذ الصغيرة المنخفضة، التي تلتهب وراءها شمس المساء. وفي الخارج حقول خضر! لسبب ما بدا لي أنَّ السجن الإسباني بهذا الشكل.

وكانت جدتي لديها كذلك مجموعة أعمال ماياكوفسكي في مجلد واحد. على ما يبدو، كذكرى من حقيقة أن ماياكوفسكي في شبابه كان مغرماً بها، ويدعوها بكل هيبةِ السيدةَ ذات الإزار الأزرق (تيمناً بلوحة الرسام الإنكليزي توماس جينسبورو - السيدة ذات الرداء الأزرق)، وفقاً لروح العصر الفضي في الأدب آنذاك. وكانت جدتي فاليا في شبابها تخجل من اعترافاته وصراحته الصاخبة. قام صديقُ جدي رومان ياكوبسون بتقديم ماياكوفسكي إلى حلقة موسكو اللسانية، قائلاً: «اكتشفتُ شاعراً كبيراً». وقد التقيا هناك هو وجدتي الشابة مرة أخرى - وقبل ذلك كان ماياكوفسكي، كما يقال، «يلاحقها»، كونها عضواً صغيراً في الحزب. وسبق أن ذكرت هذا. كانا يوم ذاك في الخامسة عشرة من العمر.

وفقاً لحكايات الأسرة، بعد أن التقى ماياكوفسكي بجدتي، بمساعدة رومان ياكوبسون، خطب السيدة ذات الرداء الأزرق (يعني جدتي)، لكنها رفضته.

وفي عام 1914 وِلدَت لأسرة فاليا وكوليا ياكوفليف ابنتهما فيرا، خالتي فافا.

عندما عادت الجدة فاليا إلى موسكو بعد أن ردّت الدولة إليها اعتبارها في عام 1956، قالت لها أختها آسيا، التي عادت من معسكر الاعتقال والنفي: «ها أنتِ رفضتِ الشاعر، وتزوجتِ أستاذاً، فما جنيتِ من ذلك، سوى الأسى!».

* * *

حدثت ملازمتي للأدب مع جدتي، بالطبع، في فصل الشتاء.

عادة ما كانت الجدة فاليا تعتلي السرير متورمة كالفيل (بسبب داء الاستسقاء من الجوع)، وأجلس أنا إلى جانبها، نحيفة كالهيكل العظمي، ونلتحف بكل ما في وسعنا أن نلتحف به، وكانت تحكي لي أياماً بطولها مغمضة العينين وكأنها تقرأ. ولسبب ما قرأت، في الأساس، نتاجات غوغول، رواية «النفوس الميتة» و«أمسيات في قرية قرب ديكانكا». كانت تعاني من ضعف واحد: إنها تولي اهتماماً كثيراً لوصف المآدب. وأدخلت ببراءة في قائمة أكلات غوغول دهن الخنزير المقلي وحساء البورش. فسألتها عنه، وعندما أجابت جدتي، سال لعابي مثل كلب بافلوف.

قرأت لي عن ظهر قلب قصة غوغول «الصورة». وربما قرأت لي قصته «الفيج» (في الأساطير الشرقية السلافية شخصية من العالم السفلي، تقتله عيونه. وعادة ما تكون عيونه مغطاة بأجفان ورموش ضخمة، عادة لا يستطيع رفعها بدون مساعدة)، وما زلتُ إلى اليوم أخاف منه.

الحقيقة أن قصة غوغول «الصورة» تركت فيَّ انطباعاً لا يُنسى (حتى يومنا هذا، أعتقد أن موضوع بيع الموهبة – هو الموضوع الأكثر إلحاحاً وحيوية. وإنَّ من يخدم المال، معروف لمن يخدم).

يكمن سبب ملازمتنا الأدبية في كون الجوع قد أنهكنا وأضعف قوتنا.

حفلاتي الموسيقية.
السترة الخضراء

وفي الصيف كنت أستعطي الصدقات.

لقد اعتدتُ أن أستجدي من دون أن أمدّ يدي، بل كنت أمشي في أفنية الدور الأخرى، وأقف في زاوية ما عند أحد العنابر (عادة ما يكون هناك أطفال يركضون ونساء عجائز يسعين جيئة وذهاباً)، وأبدأ في الغناء. وكانت هذه الأغاني مثل «في المرج بالقرب من المدرسة»، و«في مرج ندي»، «على الرصيف في برلين». لم أكن أغني التانغو، وكنت أكره حقاً أغنية «الشمس المتعبة». وهي أغنية شائعة مبتذلة، تصدح أسطوانتها كل ليلة على جهاز الحاكي في حديقة ستروكوفسكي؛ حيث يتقاطر للرقص تحت أنغامها الجرحى من المستشفيات العسكرية؛ وتبيع نساء القرى باقات الورد في بوابة المتنزه؛ وفي السماء يتوهج منظر غروب الشمس المتواصل، وفعلاً تهبط الشمس المُتعَبة وراء نهر الفولغا؛ ومن ثم كنا نتوقف على رؤوس زهور الدوالي المُعلَّقة على السلك. وقد بحثتُ لمدة طويلة حول مسألة – لماذا تُعَلَّقُ على السلك؟ إنَّها الطريقة التي تُربَطُ بها الزهور الساقطة فحسب.

وهكذا إذن، مللتُ أغنية «الشمس المتعبة» لدرجة أنني قد وضعتها في سيناريو فيلم «حكاية من حكايات». هذا الفيلم حول طفولتنا المشتركة، في مرحلة ما بعد الحرب، أنا ويورا نورشتاين (مخرج أفلام الصور المتحركة المعروف)، الذي صار التلفزيون يعرضه كل عام في يوم النصر 9 مايو (أيّار).

ثم غنيت كالببغاء، أسطوانة جارنا الرائد «لنشرب، بالله عليكِ؛ يا

بيتسي، كأساً أخرى، إننا بحاجة لكأس خمر! ستكون الأخيرة قبل السفر! أحمقُ مَن لا يحتسي الخمرة معنا!» وبعد أغنية «حفلة شراب اسكتلندية» أغني خاتمة أوبريت «سيلفا» - «أيتها الراقصات الجميلات، الجميلات منَ الكباريه المفضَّل! أنتنَّ خُلقتنَّ للمتعة فحسب! الجميلات لا يعرفن الشكوك من المقهى! ولا تليق بهن عذابات الحب! الجميلات، الجميلات»، وهلم جرّاً.

الحقيقة، إنَّ الأغنية تحتوي على كلمةِ «لا تليق» ولكني لم أحسن نطق هذه الكلمة.

وهكذا، غنيت أغنياتي مثل إديت بياف وهي صغيرة، وبعد ذلك، عندما استُنفد الربورتوار (الرصيد الدرامي)، وقد أحاط بي الأطفال، ولكي لا أفقد الجمهور جعلتُ على الفور أحكي قصة غوغول «الصورة». أثارت هذه القصة اهتمام الأطفال وهزّت مشاعرهم. وأتذكر أنَّ في إحدى المرات أحضر أحدهم لي قطعة من الخبز الأسود. وفي مرة أخرى اقترب مني صبي وقال لي بخجل إن أمه تدعوني إلى البيت. في البداية خفتُ، ومنعتني الغريزة من الذهاب مع شخص غريب إلى شقة أغراب. ولكن بدأ جميع الأطفال يحاولون إقناعي، فهُم أيضاً رغبوا في ذلك، وذهبنا معاً. هناك، على السُّلَّم المظلم، فُتِحَ باب، ومدّت امرأة يدها، وهي تمسح وجهها، وناولتني سترة تريكو خضراء اللون، من دون أزرار، كأنها بلوزة (فارتديتها في اللحظة نفسها). الجميع كانوا سعداء وجعلوا يتفحصونني على الدرج المظلم، على ضوء الباب المفتوح.

وبعد ذلك، بالطبع، لم أقترب أبداً من هذا المنزل ومن فنائه.

* * *

وَرَدَ عن الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا أنه قال إننا نتجنَّب الأماكن التي تَعرَّضنا فيها للألم.

لكن في بعض الأحيان من المستحيل تحمّل حتى الإحسان الكبير، المقدَّم لك، لشعورك بعدم إمكانية ردّ ذلك الجميل.

وقال أحدهم إن ليس أمامنا ثمة طريقة لردّ الجميل الكبير، سوى الجحود...

ربما كنت تظن أن الشيء لا يتكرر مرة أخرى، وقد يكون الأمر أسوأ، وستغادرك السعادة الرئيسة للحياة - ذكريات أعمال الخير. ولن تعود تصادفك تلك الوجوه ولن تجتمع بها، ولن تكون ثمة سترة خضراء بعد ذلك.

وهكذا - إنهم معك. هذا الحشد من الأطفال الجياع، وهذا الباب المفتوح، واليد الممدودة والأم الغريبة غير الظاهرة لك، التي تبكي، وهي واقفة وظهرها للضوء.

دعا جويس مثل هذه النوبات من الذاكرة «عيد الغطاس» (عيد الظهور الإلهي).

أعياد الغطاس هذه - إنها هنا، قريبة، وتحدث الآن.

الصورة

وهكذا، بعد أن حكيت قصة غوغول «الصورة» وأنا أدور في أفنية المنازل، ورقدت للنوم، وحيدةً، في وقت متأخر من الليل، في دار الضباط، على الأريكة في مكتب المدير الفارغ، ووضعتُ يدي تحت خدي، رأيت في ضوء الغسق الخافت لوحة مرسومة، فيها يقف ستالين وبإمكانه أن يستدير وينظر بعينيه السوداوين نظرة مخيفة موجهة مباشرة إلى وجهي. فاستدرت إلى الجانب الآخر وجمدت من شدة الخوف، وغطيت وجهي بكفي يديَّ.

انبثق التهديد الوحشي من هذه القامة.

بعد ذلك صرت أقضي الليل في مكاتب أخرى.

هذه هي قوة تأثير الرسم! كم قاسى الرسام من الأحاسيس عندما رسم هذا العمل. ربما، ولدت اللوحة عنده من الخوف، على أمل العفو.

وكم يقاسي المؤلف من الأحاسيس في لحظة خلقه للعمل الفني، التي تنتقل بدورها إلى الجمهور الحساس بشكل خاص.

وبالمناسبة، بعد أن حصلت على السترة الخضراء، شعرت لسبب ما بالحرج من التحدث في الساحات (في أفنية المنازل)، وذهبت أتسوّل في أحد المتاجر.

يبدو أنني أوقفت نشاط الممثلة، إلى أن دخلت دار رعاية الأطفال.

حكاية البحار الصغير

ولكن جمع الصدقات في المتجر أكثر صعوبة! إذ تتشبَّث في ظهر أحدهم، وتطلب منه كوبيك، فيقوم هذا العم من دون تروٍّ بإتحافك بكوبيك! فتبدأ بالقول: «يا عم، أعطني أكثر»، فيعترض عليك بشكل معقول أنك طلبت هذا الكوبيك لا أكثر...

لكن أصغر قطعة من الآيس كريم سعرها ثلاثة روبلات!

إنَّ عبارة «أعطني كوبيك» من المرجح أنها بقيت في الخزين اللغوي للمتسوّلين من زمن ما قبل الثورة، عندما كان الكوبيك يتمتع بعدُ بقوة شرائية. إذا جاز التعبير، «في ظل النظام القديم»، كما تقول جدتي المناهضة للثورة.

الظهور الأول لي حدث في متجر كبير للمواد الغذائية.

المتسوّلون هناك يقفون عند آلة تسجيل النقود (الصندوق) مثل حرس الشرف، يهمسون بهدوء بتوسلاتهم للمشترين. يمرّ المتبضِّعون من خلال صف من المتسوّلين، عندما يذهبون لدفع النقود، وفي طريق العودة يلتقي الصفّان تقريباً. وكان المتسوّلون، الجياع والمساكين، الأيتام والمرضى، المقطوعو الأرجل والعميان، بعد أن يمدّوا أيديهم الخجلة لتناول القطع النقدية الصغيرة، يشكلون نفقاً بشريّاً ضيّقاً.

الآن أتذكر أنَّ المتبضعين في هذا المتجر قليلون، ولم يكن ثمة طابور عند الصندوق. ولا شيء سوى السقوف العالية والفراغ.

آنذاك لم تكن السلع تُعرَض على الرفوف، وكانت في بعض الأحيان

تُجلَب و«تُطرح»، فيسرع المشترون ويقفون في طابور طويل واحداً خلف الآخر وفي النتيجة يشترون ما يجدون بعد جهد جهيد.

أخذت مكاناً لي في نهاية سلسلة من المتسوّلين بعيداً عن نافذة الصندوق. لم يكن ثمة أمل.

غير أنَّ الموقف تغيَّر فجأة. فحرس الشرف هذا كله على جانبي الصندوق أضجر أمينة الصندوق. وبدأت تصرخ من نافذتها الصغيرة، فانصرف المتسوّلون طائعين، كالكلاب المضروبة، ووقفوا عند الجدار البعيد. فبقيتُ وحدي. وعلاوة على ذلك، تسمَّرتُ عند شباك الصندوق. وكان في النافذة الصغيرة لأمينة الصندوق ثمة إفريز حافة، ربما، لكي لا تقع الخردة المسترجعة على الأرض.

هنا، في هذه الفجوة بالذات، تحت الحافَّة، اختبأتُ عن عيني أمينة الصندوق. لكن المكان لم يستوعبني تماماً، فأمَلْتُ رأسي جانباً ووقفت.

ثم بدأت الحكاية! إذ صار الناس يعطونني بشكل متناوب. فامتلأ جيب صدريتي تحت السترة بسرعة. لم أستطع فهم أيّ شيء. كان ذلك كمطر من القطع النقدية الصغيرة!

اعتراني شعور بالخوف. كان ثمة شيء غير مفهوم. لماذا جميعهم يعطونني؟

ثم فهمت كل شيء: السبب يعود لرأسي المنكس المائل على جنبي بشكل غير ملائم تحت حافة نافذة الصندوق. فقد اعتقدوا جميعاً أنني مريضة! كسيحة!

أعتقد الآن أن وجهي كان يحمل ملامح معاناة قاسية، لأن الوقوف بوضعية واحدة ومتقوسة يمثل عقوبة قاسية للطفل. وكنت أتعذب حقّاً بكل صدق. ولكني أيضاً لم أكن قادرة على ترك المكان والمغادرة، بعد أن طُرِد الجميع، واختبأتُ، ونجحتُ، هذا مستحيل. فقد تحملتُ الموقف وعانيتُ. ربما، كانت ملامح وجهي وسحنتي وشكل حواجبي

ورقبتي المقلوبة توحي بالتعاسة والمأساة. فقد بدا مظهري مظهر طفلٍ قدّيسٍ معذب يوحي بالشفقة ويجعل قلوب الناس تنفجر عليه من الأسى.

ربما، جميع المتسوّلين كانوا مألوفين، إذ يُنظر إليهم على أنهم أناس بلا مأساة - بل إنَّ هذا هو مكان عملهم. يذهبون كأنما إلى الوظيفة. ليس لديهم ما يفعلونه غير ذلك. وهنا بالذات تظهر صبية جديدة، وحتى إنها كسيحة، وفاجعتها ظاهرة للعيان!

وما قضى عليَّ تماماً أن صبيّاً متسوّلاً جاء من عند الجدار، قد أرسله أبوه المتسوّل ذو الرِّجل الواحدة. فبعد أن تطلّع الصبي المتسوّل في وجهي بعينين مبحلقتين، قدم لي كوبيك بشكل مهيب، وبعد أن أنجز عمله الخيّر، عاد إلى مكانه المنحوس عند الجدار.

وما إن أدركتُ كل شيء، حتى شعرت بالخجل إلى درجة الرعب الحقيقي. سيكون من العار إذا اكتشفوا أنني لم أكن مريضة حقّاً! وأحسستُ بإحراج شديد. ويبدو، أنَّ احمرارَ وجهي صار أكثر. بدأ الناس ينحنون عليَّ، ويعطونني النقود، ويسألونني بعض الأسئلة. فكان عليَّ أن أهرب. عدَّلت رأسي على متني، وملتُ أكثر على جانبي، وتنحيت عن نافذة الصندوق واتخذتُ طريقي للخروج من المتجر (من جانب أصحابي المتسوّلين)، ولكني احتفظت بوضعيّتي المائلة حتى في الشارع لبعض الوقت. وبعدَ أن وصلتُ إلى أحد الأفنية، اختبأت بين الشجيرات، جلست وظهري إلى الحائط وحسبت ثروتي. فتبين أني حصلتُ على أربعة عشر روبلاً!

صار بإمكاني شراء الآيس كريم. فقد كان سعر أصغر قطعة ثلاثة روبلات، وتسعة روبلات سعر القطعة الأكبر واثنا عشر روبلاً سعر أكبر قطعة. لكني كنت أحلم بامتلاك دمية! فتخيلت هذه الدمية الضخمة! واندفعت إلى متجر صغير، وهو دكان لبيع السلع الورقية والألعاب، حيث كنت عادة ما أزوره وأقف كالعمود أمام منصته الزجاجية. كان العاملون هناك يعرفونني وطالما طردوني - ولكن الآن الأمر مختلف، قلت إن لديَّ نقوداً. فنظروا إليَّ بحذر.

وضعتُ القطع النقدية الصغيرة كلها على المنضدة وأنا أتعذب. عدّتها البائعة وهي ممتعضة. أشرتُ إليها، وأنا على وشك الموت من الاضطراب، إلى دمية وراءها. ولكن تبيّن أن نقودي لا تكفي إلّا لشراء أرخص دمية في هذا المتجر. تحت الزجاج في واجهة العرض كان ولد، من قماش، في معطف بحار، برأس من السيلولويد. لم أرفع عيني إلى الدمية - الصبية الغالية. وبعد أن فقدت آمالي كلها، أخذت الولد، ودموعي تنهمر على وجنتيَّ، وخبأته في عبّي، تحت ياقة السترة الخضراء التي أُهديَتْ لي. فكَّرتُ وضغطته إليَّ. إنه مُلكي! دميتي الخاصة بي! ثم اندفعت وركضت على طول الشارع، وأنا أقفز عالياً من السعادة. كان لديَّ صبي صغير!

عندما وصلتُ راكضة إلى باحة منزلنا، لم تكن الدمية في عبّي، فقد سقطت مني.

بهذا انتهت محالفة الحظ لي. وأدركت أن ما حدث كله كان فعلاً عادلاً. لقد خدعت الجميع، فعاقبني الله. ولم ينَم بحاري الصغير على صدري إلّا لمدة قصيرة.

إنه أمر مثير للدهشة، ولكن هذا ما يحدث في الحياة، فالعقاب يتبع جريمة. الأشرار الكبار وحدهم يفلتون من القصاص، إذ تحرسهم (تراقبهم) قوى مختلفة تماماً، كما يبدو لي.

حياة أخرى

وبعد هذا الحزن بقليل، بدأت حياة أخرى بالنسبة لي، إذ حدثت معجزة.

ففي ذلك الوقت، في بداية حزيران (يونيو) من 1947، بعد أن نزلت من الشرفة، عشت مدة طويلة في الشارع، أي في الباحة، ثم تبنتني امرأة، إنها من الباحة المجاورة، وكانت قد فقدت طفلتها. كانت تسكن في منزل صغير من طابق واحد تحت شجرة، في ظل كثيف. في غرفة هذه المرأة كانت تسود شبه عتمة، فوق السرير عُلقت صورة مكبرة للصبية المتوفاة مثبّت عليها شريط أسود. غسلتني المرأة في طست، وكان ذلك مثيراً للاشمئزاز. فقد لامست جلدي أيدي امرأة غريبة، أُفٍّ. إني الآن لا أتذكر، لكنها، ربما، دهنت رأسي بالكيروسين. نمت تحت الصورة لمدة قصيرة، ليلة واحدة فقط، وهربت إلى مكاني في الباحة. والسبب في ذلك الصورة، فدائماً الصورة فيها عيون موجهة نحوي! والمرأة دائماً متعكرة المزاج، إنها قصيرة ومهمومة، تقريباً لم تنظر إليَّ. لقد أخرجت في شبه العتمة من الخزانة ملابس ابنتها الثمينة، وجعلت تنظر نحوي بريبة. من الواضح أنها تريد أن تعتاد عليَّ، وفي الوقت نفسه لم تكن تستعجل في كشف ثروتها كلها أمامي، لكنني خرجت إلى الفناء للتنزه ولم أعد. لسبب ما، كنت أنتظر والدتي الحقيقية، التي غادرت قبل أربع سنوات للدراسة في موسكو ولم تعد بعد، بل أرسلت القليل من المال فحسب، وهو ما نشتري به حصتنا من الخبز بالبطاقات، وأحياناً الكيروسين.

كنت ألعب وأركض في الباحة، حرة مثل الطيور، شعثاء، أنهش برأسي

وجسمي من القمل والبراغيث، وعلى الأرجح، غبراء بعد الاستحمام، (لم تكن ثمة مرايا في تلك الأيام، لهذا لم أرَ نفسي مثل كل الصعاليك المشردين)، لا أعرف شيئاً عن مستقبلي، بيد أن أطفال الجيران الأكبر سناً كانوا ينطّون من أعلى مدخل منزلنا، الأطفال أعداء وهم أنفسهم أعدائي، وكان ولد وبنت، أخ وأخته يلاحقونني دائماً ويضربونني، وكنت أخافهم وأختبئ وراء الركن، لكنهم فجأة بمرح، كالأصدقاء صاحوا من بعيد، لكي أجيء إلى منزلهم، فوالدتي تنتظرني!

هكذا يحدث في الحياة! أعداؤك، معذبوك فجأة يلتفتون إليك بوجوه مختلفة تماماً، مشرقة، وطيبة (وقد لاحظت ذلك أكثر من مرة).

لقد حرنت في مكاني ولم أصدق ما قالوا. أأذهب إلى الأعداء؟ وأيُّ أمٍّ هذه التي تنتظرني؟ أهي تلك المرأة السوداء صاحبة الصورة على الحائط؟ لكنهم صاحوا: «أمكِ، لقد وصلت أمك! من موسكو!».

شيء لا يصدق! شعرت بالدوار.

بيد أنَّ أطفال الشوارع يجب ألّا يثقوا بأحد.

ألا يريدون بالخديعة أن يعيدوني؟ ويُغلَق عليَّ بالمفتاح؟ أو يسلموني إلى دار رعاية الأطفال؟ فقد طاردتني من قبل اثنتان من النساء من بعض الأقسام لكي يرسلوني إلى دار رعاية الأطفال، وكنت أخافهنّ كما أخاف النار. فقد اصطدمت ذات مرة بمثل هذا - إذ ألححتُ بالطلب من أحدهم بعبارة «أعطني كوبيك»، وفجأة أرى أمامي، بعد أن التفتّ، تلك المرأة نفسها وكأني في حلم مزعج، فقالت: «هذه أنتِ، أين كنتِ!».

ما أسرعني آنذاك عندما هربتُ منها!

ومع هذا ذهبت مع أعدائي. صعدنا، ومشينا أمام باب شقتنا، الذي خلفه كانت الجدة وفافا المسكينتان اللتان تخلّيت عنهما تنتظراني عبثاً. تسلقنا طابقاً آخر، واقتُدتُ إلى الغرفة التي جلست فيها أمّي خلف الطاولة!

اختنقتُ وأجهشتُ بالبكاء من السعادة، وكأني انفجرت. لم أرَ عزيزتي

منذ أربع سنوات. لقد ابتسم لي وجهها الحبيب، ولكن ظهرت غمازات تحت عينيها (كانت تبرز هذه الغمازات عندما تريد أمي أن تبكي من الرقة، على سبيل المثال، عندما رأتني بعد الفراق، وبالضبط الغمازات نفسها الآن تظهر عند ابنتي). أجلستني أمي وجعلتْ تُطعمني بالملعقة كالطفلة عصيدة السميد، التي طهتها خصيصاً وهي تنتظرني - مع الحليب والزبدة والسكر. وقد تقيأتُ. ثم أتذكر أن والدتي حممتني، وحملتني على ذراعيها إلى الحمام، أحسست بخجل رهيب، إذ سُحِبتُ أمام الجميع، طويلةً صاحية، ولكن أمي تركتني وعمري خمس سنوات وكانت معتادة على أنها يمكن أن تحمل ابنتها. في الحمام حلقوا شعري بوقاحة ولم يتركوا منه سوى الناصية، وقد قضينا الليلة على أسِرَّة خشبية من التربولين تسمى «مقاعد الحوذيين»، وعليها شراشف بيض في غاية النظافة، في قاعة كبرى في المطار، من بين العشرات من الناس النائمين مثلنا. لم أستطع النوم من السعادة. إذ استلقيتُ على شراشف رائحتها طازجة، وقد نُشِرَت لتجف في الشمس في الفناء! وأمي نائمة إلى جنبي وتمسكني بيدي!

حدث ذلك في التاسع من يونيو (حزيران). أتذكر هذا التاريخ طوال حياتي. في نهاية الليل أخذونا وأركبونا على متن طائرة حيث امتدت المقاعد الحديدية على طول الجانبين، كما هو الوضع في المترو حالياً. طرنا لمدة طويلة، كانت الطائرة تهتز بشدة، إذ دخلت في مطبات هوائية، وقد انخلع قلبي من الخوف.

وصلنا إلى المكان في الصباح. كنت أنتعل صندلاً بنيّ اللون جديداً، على الجوارب، وأرتدي لباساً داخلياً وفانيلة وفستاناً لونه أحمر صارخ! إضافة إلى ذلك، كان عندي معطف بنيّ اللون ذو تربيعات. شعرت وكأنني سندريلا ذاهبة إلى حفلة رقص، فأحسستُ بحرج وارتباك شديدين. وبدأت حياة جديدة بالنسبة لي.

لو استبقتُ الحوادث، لقلتُ إنَّ ليس لي مكان هناك.

فندق «متروبول»

الجوّ في موسكو، التي وصلنا إليها بالحافلة، كان غائماً يوحي بالصباح الباكر، فأخذتني قشعريرة. أخفى الضباب الخفيف ساحة سفيردلوف المقابلة لنا، عندما كنا نقف تحت إشارات المرور قرب مسرح مالي مقابل فندق «متروبول». لعل الشمس في ذلك الوقت لم تُشرِق بعد. لم أحصل على قسط كافٍ من النوم، كان الجوّ بارداً جدّاً، ظلّت أمّي تمسك بيدي، منذ أن رأتني بعد عودتها، كما لو أنها تخشى أن تضيّعني.

لم أكن لِأسمح لأيّ شخص آخر غيرها أن يقودني من يدي.

أتذكر أننا اجتزنا سلسلة متاجر أَخوتْني الفارغة التي كانت أمامنا، لكي نصل إلى فندق «متروبول»، حيث كان بانتظارنا جديّ إيليا سيرغييفيتش، ديديا - وقد صُدمت بالعدد القليل جدّاً من السيارات التي كانت واقفة عند تقاطع الطرق. فقد تربيتُ على الأفلام الأمريكية، المأخوذة مع الغنائم، من أمثال «أخت كبير الخدم» التي كنت أشاهدها في دار استراحة الضباط والتي تكثر فيها السيارات، وتوقعت أني وأمي سوف نطير على أقل تقدير إلى نيويورك، بسياراتها المزدحمة!

لكننا طرنا إلى موسكو.

دخلنا شقة الجد في فندق «متروبول». أحضروني إلى هنا أول مرة من مستشفى الولادة، حيث عشت السنوات الأولى من حياتي. كانت بمثابة المنزل بالنسبة لي.

ولكني كنت طفلة متوحشةً من أطفال ما بعد الحرب لا يمكن الإمساك بزمامها وكبح جماحها تماماً، وقد صرتُ بعد فراقي عن أمي متوحشة كأني ماوكلي تقريباً. وحسب تسميات هذه الأيام، كنت غير ملائمة للمعايير السائدة في المجتمع. إنَّ الحياة التي قضيناها في مدينة كويبيشيف هي حياة المنبوذين والصعاليك والدراويش المجذوبين. فأعداء الشعب - ليست عبارة فارغة، كنا أعداء الجيران والشرطة والمسؤولين وعمال النظافة والمارة والمقيمين في الباحة من جميع الأعمار. لم يُسمح لنا بالدخول إلى الحمام، ولم يُسمح لنا بغسل ملابسنا، وحتى لو فعلوا ذلك لم يكن ثمة صابون لدينا. خلال سنوات عمري التسع لم أرَ شكل الأحذية ولا المشط ولا المنديل ولا المدرسة ولم أعرف ما هو الانضباط، على سبيل المثال. ولم أكن أعرف كيفية الجلوس بلا حراك، فقد كنت أقرأ في كثير من الأحيان وأنا أجلس على أطرافي الأربعة، وألتهم الكتب بسرعة مسعورة. وكنت آكل كذلك بسرعة، وفي معظم الأحيان بيديَّ، وأدفع في فمي لقماً كبيرة، وألعق أصابعي حتى تنظف. وكنت أمشي حافية القدمين على مدار السنة. لم أكن أعرف ما هي الشراشف. والقمل والبراغيث تدبّ على يديَّ من الكتف إلى المرفق، ولذلك لم يبقَ بسبب الحك والنهش موضع حيّ في جسدي. كانت قدماي وكفّا يديَّ غبراء اللون، وفيها بثور وصديد وشقوق وسحجات وأظافري سود كأظافر القرد.

الشعر والعينان، ربما، وحدهما اللذان بقيا على حالهما كما عند الأطفال الآخرين. ولكن شعري قد حُلِقَ أيضاً.

هذا شكل الطفلة التي وجدتها أمي.

وبطبيعة الحال، فإني قد ضايقتُ جدي الأكبر في فندق «متروبول»، إذ لم يكن لديه هناك سوى غرفة واحدة فقط، وقلة قليلة من الناس يحب وجود طفلة، ذات طبيعة مشاغبة بعمر تسع سنوات بالصفات التي ذكرناها في أعلاه، في مقرٍّ حزبي رزين مثل «متروبول».

ذهبت أمي إلى العمل، وذهب ديديا يتفقد شؤونه. شعرت بالملل، واضطررت إلى أن أنشط وأتحرك.

فبعد أن جلست وحدي، بدأت أبحث في طاولة الكتابة ووجدت في الدُّرج عند ديديا علبة تحتوي على قطع نقدية فضية من فئة الخمسين كوبيك (نصف روبل). كانت النقود جميلة جداًّ!

جلست على حافة النافذة.

رأيت في الأسفل، في الفناء، ثمة أولاد يركضون ويصرخون.

فجعلتُ من موقعي العالي أرمي لهم النقود على طريقة القياصرة وأتسلى مسرورة وأنا أشاهدهم، كيف أصيبوا بالهلع، وهم يلتقطون القطع النقدية وكيف يتعاركون عليها فيما بينهم!

كل قطعة نقدية جديدة تسقط تعطيهم دفعة من النشاط المحموم والشجار.

ثم صاروا ينظرون إلى الأعلى يحذوهم الأمل بالحصول على قطع نقدية أخرى، فاختبأتُ عنهم في الداخل وكلي غبطة وشعور بالرضا.

في اليوم التالي جرجرتُ إلى الممر لعبة على شكل حصان خشبي يعود لجدي الأكبر (ديديا). والأدق، كان الحصان يعود إلى الطيار سيريوجا، جدي الأصغر. وبالإضافة إلى ذلك وضعتُ على رأسي بإهمال خوذة جدي ديديا الثقيلة الكبيرة الحجم (التي كانت عبارة عن طقم كامل يشمل قبعة جنودٍ من القماش ذات آذان طويلة وخوذة شائكة!). وصلتْ زاوية حافة القبعة إلى ذقني تقريباً، فاضطررتُ إلى رفع رأسي لرؤية الأرضية. وأيضاً، سحبت السيف الثقيل المعلق بسلام في غرفة الجد فوق السجادة على الحائط، أخذته بيدي، وعلى هذا النحو بدأتُ أشق طريقي على الحصان في ممرات «متروبول» الطويلة، وأدفع بقدميَّ الباركيه وأصرخ وأنا على الحصان «مرحى، أيها الرفاق! هيا إلى المعركة!».

لا أعرف ماذا حدث بين الكبار بعد صولة الفرسان تلك التي قمتُ

بها. إذ كان السيف ثقيلاً جدّاً، وقد تعلق في نهاية المطاف عبر كتفي على خرقة وانسحب على الأرض محدثاً رنيناً، وتخيلوا هذا كله جرى - في ممر فندق «متروبول» الرزين، القفز والضجيج والخدش على أرضية الباركيه المُنَضَّدة والمشمَّعة والجَرف بالرجلين وأنا أتحرك على لعبة الحصان وأرتدي الخوذة الضخمة، وخلفي يمتد السيف الرنان. كنت صغيرةً جدّاً ونحيفةً آنذاك، ولهذا فيما بعد صاروا ينادونني في دار رعاية الأطفال بلقب المسكوفية - عود الثقاب.

لينيتشكا فيغير

ربما، لذلك، أخرجتني والدتي على الفور من فندق «متروبول». باختصار، طلبت زوجة جدي ديديا وقراباته بأن نخرج من هناك. في البداية أخذتني أمي إلى البيت الريفي في مرج سيريبريني بور، إلى قريبتنا العجوز ماماشا (كان هذا لقبها). كنتُ بالنسبة لها قريبة ابن غير شرعي لأحد الأشخاص، هو سيريوجا سودين. وكانت ماماشا، بدورها، قد أجّرت لسيريوجا سودين ذات مرة سريراً في قازان، وقد أُتي بسيريوجا هذا من بلدة صغيرة لكي ينتسب إلى الصف الأول في المدرسة الثانوية، وهذا ما كان يُسمّى آنذاك «الطفيلي» الذي يعني، أنَّ السرير مع الطعام. وقد نشأ هناك تحت إشراف ماماشا.

وكانت ماماشا هذه تحب سيريوجا سودين، مع وجود أبنائها الحقيقيين، أكثر من الأطفال الآخرين. وقد أصبح ثوريّاً. وتزوج لينوتشكا فيغير البالغة من العمر ستة عشر عاماً (التي تبيَّن لاحقاً، بعد وفاتها، أنها أخت جدتي). لينوتشكا الطيبة، كالملاك، جاءت لتستقر في غرفة زوجها وحدها، حيث كان منشغلاً في العمل. وفي ذلك الوقت كانت هي أيضاً في الوظيفة، مسؤولة عن مركز للأطفال (هكذا كانت تسمى دور الحضانة). دخلت لينوتشكا وحنت رأسها، فرأت أن الأزرار ليست كافية على قميصها، ولم يتبقَّ منه سوى الخرقة (الأزرار آنذاك كانت تُخاط على القماش من الياقة إلى التنورة، في كثير من الأحيان في صفين). قالت لينوتشكا: «تقطعت الأزرار

عندي». وكانت ماماشا في هذه الحال قد أحبتها فردت عليها: «لا تهتمي، سأخيطها».

(سمعت مؤخرّاً القصة التالية، التي تعود تقريباً إلى عام 1925. القضية حدثت في فندق «متروبول» في عائلة جدتي فاليا. ففي صباح أحد أيام الأحد مرضت لوليا الصغيرة، واعتُقِدَ أنها أُصيبَت بالحمى القرمزية، فكان يجب عزل الطفل الثاني. اقتادت الأم خالتي المستقبلية فافا (وقد بلغت سن إحدى عشرة سنة) إلى شقيقتها لينوتشكا في فندق «ناتسيونال». كانت لينوتشكا فيغير تدير في فندق «ناتسيونال» سكرتارية كالينين وتشغَل غرفة في الطابق الثاني، الباب الأول في الممر المغلق على يمين السلَّم الرئيس. حدث ذلك صباح الأحد. لم يكن ثمة طعام عند لينوتشكا في الغرفة ولم يوجد عندها حتى الخبز. لقد تناول جميع موظفي الكرملين طعام الغداء في مقصف الكرملين، وأخذوا معهم حصصاً من المواد الغذائية الجافة، رزمة من المؤونة للعشاء. (وفي ما بعد، كل ما كان يُعطى «للملاكات» خلال عدة عقود في ما يسمى مقاصف الكرملين – وكذلك في متاجر المدينة المغلقة – يسمى أيضاً «أرزاق جافة». الدجاج والفواكه والخضروات والكافيار والشرائح المقددة من سمك الحفش، وحتى الخبز اللين والطازج وبعض الحليب الخاص).

وقفت فافا الصغيرة هناك، حيث تركتها والدتها، وفي هذه الحال دخل ميخائيل إيفانوفيتش كالينين الغرفة على لينوتشكا من دون أيّ تنبيه وحتى من دون أن يطرق الباب، على ما يبدو فتح الباب بمفتاحه. وبعد ذلك، من دون أن ينظر حوله، تابع المشي نحو اليسار، في المكان الذي فيه كوة في الجدار وفيها السرير. فقالت له لينوتشكا بصوت عالٍ إن لديها ضيفة ابنة أختها – التي، آنذاك، كانت واقفة كالعمود، ومسلطة نظرها كله على حذاء كالينين، لأنه كان يحتذي جزمة ذات رقبة طويلة، نوعاً من الأحذية الريفية من دون أربطة، وذات آذان وشرائح جانبية. وكان كالينين يرتدي بدلة مدنية رمادية مع سترة، لكنه يحتذي بشكل غريب. كان الفلاحون

القادمون إلى السوق يحتذون مثل هذه الجزمة. صحيح، أنَّ جزمة كالينين مطلية ومصقولة، ولهذا أثارت اهتمام الطفلة بشدة. إنها لم تستطع، بمعنى الكلمة، أن ترفع عينيها عن جزمة القائد السوفياتي. سأل كالينين من الكوة كيف رأت الصبية موسكو. لقد كان لديه، كما بيّنت لينوتشكا لاحقاً، الكثير من الأطفال في القرية، وكانوا يأتون دائماً من هناك. ثم أخذت لينوتشكا الكرسي وحولت مقعده إلى الأمام، ووقفت وراء ظهره وبدأت تطرق على الجد صاحب اللحية، تدفعه عن الكوة وتمنعه من الوصول إلى مكانه. وأثناء ذلك، أخبرته أن الصبية تسكن في موسكو، في فندق «متروبول»، ولم تأتِ من القرية على الإطلاق.

تمكنت لينوتشكا بطريقة ما من إخراج كالينين، وقالت في ما بعد لأختها، في حضور أولادها: «لو تعلمون، كم كان ذلك صعباً». كان كالينين أكبر منها بخمسة وعشرين عاماً. وعلى ما يبدو، لم يُقيِّد جبابرة الكرملين أنفسهم بأيّ شيء فيما يتعلق بمعاملتهم للنساء الموظفات عندهم. جاء كاهانوفيتش، الذي سيجري الحديث عن اسمه بعد ذلك بقليل، إلى لينوتشكا الجميلة بحضور فافا، لكنها أبعدته. بيل كليتون المتهيب الوَجل، الذي تعرض إلى هجمة، في موضوع التحرش الجنسي، من طرف المتدربة السمينة، مقارنة بالقيادة السوفياتية لم يفعل شيئاً بل كان يُدخِّن في الزاوية، كما يقول الناس في أيامنا هذه عندما يريدون أن يؤكدوا أفضلية شخص ما.

ماماشا

لكن سنعود الآن إلى ماماشا. إنها لم تترك سيريوجا سودين طوال حياته، بدءاً من دراسته في الصف الأول في الثانوية - إلى أن أُعدِمَ رمياً بالرصاص، وعاشت بعد ذلك مع فيرا، زوجة سودين الثانية. وقد أُعدمت لينوتشكا تقريباً في الوقت نفسه الذي أُعدم فيه سيريوجا زوجها الأول، في عام سبعة وثلاثين.

وخلال تلك السنوات كلها، اكتسبت ماماشا لقمة العيش من خياطة ملابس نساء الحيّ بأكمله. فقد كانت تصنع الأشياء التي تخطر على بالها. ولكن أشهر أعمالها هي حمالات الصدر المصممة وفق مواصفات الطراز الفرنسي - إذ سافر أحد أقارب زبائنها في رحلة عمل إلى باريس وجلب واحدة من هناك فاستعارتها ماماشا فوراً وفصَّلَت نموذجاً على غرارها.

وطوال ذلك الوقت كانت ماماشا منزعجة وتشعر بالأسى إلى حدّ كبير من أن لينوتشكا زوجة سيريوجا الصغيرة ذات الستة عشر عاماً لا تأكل شيئاً في البيت وتقضي وقتها عبثاً «تهز برجليها». سبب مثل هذا التعبير: إنَّ لينوتشكا كانت، في أُسرتها - أسرة آل فيغير، اليتيمة الصغرى المحبوبة، التي تركتها أمها عندما توفيت في عمر سنتين تقريباً. واليهود لديهم اليتيم الصغير - محل اهتمام وموضوع عبادة شاملة. وكادت لينوتشكا أن تقع في نوبة من الهستيريا، إذ تهوي إلى الأرض وتضرب بقدميها. «تهزّ بقدميها»، حسب تعبير ماماشا. ونتيجة لذلك، كانت لينوتشكا في سن السادسة عشرة عضواً في الحزب ومسؤولة.

توجد ثمة قرابة أخرى بيني وبين ماماشا - من جهة أخرى، من جانب أسرة آل ياكوفليف. فقد حدثت قصة غرامية بين سيريوجا سودين، القائد العسكري الرائع، والممثلة الجميلة ماريا ياكوفليفا، شقيقة جدي نيكولاي فيوفانوفيتش. نشأت ماريا ياكوفليفا مثل جميع آل ياكوفليف، بطول يقارب المتر وثمانين. لذلك، كان شركاؤها في أيِّ فرقة قصيري القامة بالنسبة لها، وقد أصبحت معلمة لمادة المسرح. ولِدَ لها من علاقتها الغرامية مع سودين سيرغي سيرغييفيتش ياكوفليف الممثل السينمائي، وفنان الشعب، الذي مثَّل في فيلم «الظلال تزول في منتصف النهار». وكان سيريوجا بالنسبة لجدي كوليا مثل ابنه، أدخله الجامعة لكي يدرس في معهد الفنون السينمائية. وهكذا أصبحتُ من أقارب ماماشا! من جميع الجوانب. حفيدة من جهة زوجة سودين الأولى وقريبة من جهة ابن سودين غير الشرعي.

استقبلتني ماماشا الطيبة على ما يرام. كانت هي عجوزاً نحيفة محدودبة الظهر عقفاء. أخذتني ماماشا أنا الطفلة الدخيلة من دون أن تنبس بكلمة واحدة. كان المنزل مليئاً بالناس، بما في ذلك بعض أحفادها وأحفاد أبنائها، لكنني لم أتعرَّف على أحد منهم. لم أكن بحاجة إلى ذلك. فلم يكن لديَّ وقت. كنت أرغب في سماع ما تتحدث عنه أمي مع ماماشا، لكنهما ذهبتا إلى داخل المنزل.

ثم إنَّ أمي، اتفقت على ما يبدو مع ماماشا على شيء ما، وقبَّلَتني (وظهرت تحت عينيها الغمازتان، نذير البكاء) وغادَرَتْ. وكنت قد حفظتُ مسبقاً الطريق الذي أتينا به بشكل دقيق، أولاً من المترو إلى الترولي باص، ثم نزلنا من الترولي باص (لكني لم أُعَلِّم الطريق بالحصى الأبيض كما فعل الطفل القزم في الحكاية المعروفة)، وبعد قليل توجهتُ عبر بوابة الكوخ الريفي الصيفي، وركضتُ إلى محطة الحافلات وركبتُ ذلك الترولي باص نفسه لكي أعود إلى والدتي. حسبت أنني سأصل إلى محطة المترو، وهناك الجميع يعرفون المحطة التي تحمل اسم

كاهانوفيتش. لكن تبيّن أنَّ الأمر لم يكن كذلك! وأتذكر الوجوه الرؤوفة للناس الذين أجابوا مجتمعين، وهم ينحنون عليَّ أنَّ المترو كله «يحمل اسم كاهانوفيتش»!

بدأ فصل الصيف المغبر في موسكو، واقترب وقت الغروب، ومالت الشمس نحو الهبوط، وضربتني أشعتها في وجهي، وأعمتني.

- كلا، - أكدتُ لهم، - هنالك مكتوب «تحمل اسم كاهانوفيتش»!

- المترو، كله يحمل اسم كاهانوفيتش! - أجابني الحشد بصوت واحد.

وحتى إنهم قادوني إلى محطة مترو «سوكول» لتأكيد قولهم. وفعلاً قرأت الكلمات نفسها بالضبط «باسم كاهانوفيتش» على بناية غير معروفة لي تماماً.

أي إنَّ كل شيء كان كما في حكاية علاء الدين، عندما علَّم الأبواب كلها بعلامة واحدة! فليكن غير صحيح كاهانوفيتش هذا! سألني الناس أين أسكن. وهل أعرف عنواني. أعتقد، أنهم كانوا مستعدين لأن يسلموني إلى الشرطة في دار رعاية الأطفال!

ثم هنا وجدتُ طريقة للخروج من المأزق واخترت من ذاكرتي الكلمات - فندق «متروبول». المجد لك يا رب! ضحك الجميع بارتياح واقتادوني إلى المترو، وحتى إنَّ أحدهم أقنع قاطعي التذاكر بالسماح للصبية التائهة المسكينة بالركوب مجاناً! (على ما يبدو، إني اختلقتُ شيئاً عن نفسي، وكذبت على هؤلاء المسكوفيين السذج وقلتُ بأني يتيمة الأب والأم ولم آكل من مدة ستة أيام.) وخلال وقت قصير وصلتُ إلى هناك، إلى فندق «متروبول»! ومثل الصبي القزم التائه، نجحت في الوصول! غضبت أمي وتأوّهتْ عندما سمعت أنني مرة أخرى عند جدي الأكبر. وتأوّهت كذلك، على ما يبدو، زوجة جدي الأكبر، زوجة ديديا السابقة، التي كانت تسكن في الغرفة المجاورة. وأخذوني بعيداً عن ديديا ثم أرسلوني بسرعة إلى معسكر الطلائع.

المخيم الصيفي

لم يكن باستطاعتي الهروب من هناك، فقد نُقِلنا بواسطة باخرة، ثم أنزلونا واقتادونا في المساء لمسافة طويلة على العشب الرطب، في مرج كبير، مع غروب الشمس، والغسق. رائحة عشب النعناع، وطنين البعوض، وفوج من الناس يحملون حقائبَ وأكياساً، الكثيرون منهم أكبر مني سناً، بدأ الظلام يحل، أصبح المكان يثير الخوف. فربما، نتعرّض للقتل أو الضرب. ومع هذا لا يمكن تذكّر الطريق!

لأول مرة في حياتي، أجد نفسي في مساحة مسيجة من دون إمكانية الفرار والانعتاق.

هناك، في المعسكر، ضمن الجماعة، كان لديهم قوانينهم الخاصة، كما تبيّن، بينما أنا لم أكن أعرفها. وتلك القوانين لا تشبه قوانين الباحات الوحشية في مدينة كويبيشيف (اركضْ، ابحثْ، اخطفْ، ابتلعْ في الحال، اختفِ، ردّ الضربة بضربة، لا تثق بأحد، إذا نادوكَ - لا تذهب مهما كان الأمر).

أكثر ما أدهشني في المخيم هو وَجبات الإطعام الأربع (كنتُ أدَّخر الخبز، وأحفظه في درج السرير)، والشراشف النظيفة، والمنشفة الشخصية، والحمام الروسي الساخن المشترك مرة واحدة في الأسبوع، الأمر الذي أشعَرَني بالخجل، فضلاً عن المرحاض الذي يحتوي على عدد من الثقوب بدلاً من اللجوء إلى أقرب زاوية، إضافة إلى الحوض الحديدي الطويل الذي يستعمل كل ليلة لغسل القدمين، والسير في

صفٌ في كل مكان! إلى المقصف أربع مرات في اليوم، وإلى قاعة النوم مرتين، وللاصطفاف مرتين في أيام العمل وفي أيام العطل مرة ثالثة إضافية. وللذهاب إلى الغابة صفّاً.

وسرعان ما تبيّن أني لم أكن طلائعية، وغير حزبية في التاسعة من العمر، ومع ذلك قبلوني. وربطوا لي ربطة العنق الخاصة بالطلائع. والحقيقة، أنهم بالسرعة نفسها استبعدوني بصورة مهيبة، تحت قرع الطبول في الاصطفاف، ولا أتذكر لماذا. ربما، بسبب العراك المستمر، وعلى الأرجح، بسبب التوحش الكامل. مع أني لم أبُح بحقيقة كوني لم أدرس في أيّ صف في أيّ مدرسة!

لقد أضعتُ هناك كل ما عندي من الأشياء. وما بقي لديَّ من الملابس سوى التنورة ذات الحمالات والقميص الأبيض (القسم العلوي أبيض والقسم السفلي الغامق – اللباس الاحتفالي للطلائع). على ما يبدو، كانا في الجزء السفلي من حقيبتي ولهذا لم أفقدهما. ومع ذلك، فقدت هناك أحد أزرار حمالات التنورة، وكان عليَّ أن أُدخِل الحمالة في التنورة. فظهرت من تحت الحاشية تتدلى وتهتز كأنها ذيل (غالباً ما كان رطباً)، إذ إنَّ الأمطار في فصل الصيف ذلك كثيراً ما كانت تهطل. وبالطبع، منظري أثار الضحك.

أتذكر أني في حالات العُسر، جعلتُ لي في الأحراش صنماً ألتجئ إليه، وهو عبارة عن غُصَيْنٍ غرسته في الأرض تحت شجرة صنوبر. كنت أعبده وأركع أمامه، واضعةً يديَّ على صدري وأُصلّي له بحرارة. آمنت بالله وأنا ما أزال في كويبيشيف، أدركت بنفسي أن الله موجود. وتجلى إيماني في حقيقة أنني كنت أقوم برسم علامة الصليب على فمي سرّاً بعد التثاؤب (شاهدت امرأة عجوزاً تفعل ذلك في الترامواي). وقد زيَّنتُ إلهي الخشبي، العصا غير المهذبة، بنوع من الزهور، إذ لففتُ حوله إكليلاً وسرعان ما جفَّت تلك الزهور.

لقد علمتني حياتي السابقة التدبير الرهيب في ما يخص المواد

الغذائية، إذ ادّخرتُ خلف ظهر السرير قطع الكعك المتحجرة التي عملتها لي أمي وأعطتني إياها كي آخذها معي، فاحتفظتُ بها لليوم الأسود، وكشيء مقدس وذكرى من والدتي، وذات مرة عندما جاءت لجنة صحية إلى غرفة النوم ونفضوها من الكيس - شعرت بالعار. صنعت أمي هذه الحقيبة من سروالي القطني البيجي اللون، بعد أن خاطت لي بنطلوناً. وهذا، أيضاً، أثار اندهاشهم بشكل كبير.

يا إلهي، كم كانت أموري هناك سيئة!

لقد أثار المخيم فيَّ الكره تجاه المراقبة والتحكم والروح الجماعية، وفي الوقت نفسه، أثار فيَّ الابتهاج إلى حدّ الدموع أمام المسير العسكري صفّاً. إضافةً إلى التواضع الشخصي، والبغض لأيّ نوع من المدح والريبة منه، والرغبة في الانزواء بعيداً، ولكن على الضد من ذلك ربّى المخيم فيَّ الرغبة في المشاركة في جميع الحلقات: كحلقات الرسم والغناء والرقص والتمثيل وإلقاء الشعر وتصميم الملابس وصناعة الشَّعر المستعار من الضمادات أو من نسالة الكتان (كنّا نحصل على نسالة الكتان من جدران الثكنات الخشبية). لقد ابتكرتها بالشكل الآتي: نلف الرأس بضمادة، ونضغط بالإبرة بشكل عشوائي، من دون مرآة، ونخيط لها نسالة الكتان مباشرة على الرأس. ثم نسحب القبعة المشكَّلَة ونُكمِل الخياطة في الأماكن الصلعاء.

وهكذا عملتُ لنفسي في أحد كرنفالات المخيم زيّ مهرج - شعراً مستعاراً وأنفاً أحمر ملطّخاً بالبنجر (الشمندر)، ومغرفة مسروقة من المطبخ، جعلتها مظلة. كنت أتمشى وأرقص تحت هذا المغرفة، وكأني تحت مظلة حقيقية، على أمل الحصول على جائزة - قيل بأنَّ إدارة المخيم سوف يعطون عصير الفواكه بقدر ما تريد! لكنهم حتى لم ينتبهوا لي. فذهبت بشكل مستقل للبحث عنه (يجب أن يكون عصير الفواكه هذا في مكان ما) وعثرت في الظلام تحت جدار المطبخ على برميل كامل من عصير الفواكه! وهنا نفعتني المغرفة، فملأتها بالسائل الأحمر

وارتشفت منها بلذة من كل قلبي، سعيدةً لأني أقف أمام البرميل وحدي، ولا أحد يذودني عنه، ولا يدفعني ويقول إنكِ لم تأخذي الجائزة فلماذا تشربين؟

تبيّن أنَ هذا البرميل يحتوي على ماء غُسالة البنجر والجزر، وربما البطاطا. إنه الطعم الكريه لأوراق الدرنيّات القذرة. كان ينبغي عليَّ أن أتذكر دروس التعاون والروح الجماعية طول العمر - لا تبحث عن أشياء مجانية بشكل فردي! ثم: إذا لم يكن ثمة حشد على الشيء - يعني أنه غير مناسب وغير مفيد. المكان الذي ليس عليه ازدحام - ليس فيه ما يمكن البحث عنه.

بالإضافة إلى ذلك، نمّى المخيم فيَّ الميل المهووس نحو العدالة والإضرابات والعناد في الدفاع عن الموقف، والميل إلى الاحتجاج وإلى استعمال الأنواع الصغيرة من الخداع كسرقة خيارة من الخضروات المخصصة للجميع. وكذلك قوانين الأطفال حالت دون البروز وحشر الأنف في أمر ما للفت الأنظار والجشع والافتراء وسرقة الحاجيات الشخصية (يمكن سرقة الأشياء العامة، لأن الجميع كانوا يفعلون ذلك فقط).

عدت إلى أمي في نهاية الصيف بحقيبة فارغة، وأرتدي تنورة ذات ذيلين، وقد ضاعت جميع الأزرار، وتبيّن أنَّ أمي ألحقَتني بثلاث نوبات.

شارع تشيخوف. الجد كوليا

مأوانا اللاحق كان عند والد أمي نيكولاي فيوفانوفيتش ياكوفليف، جدي كوليا، في شارع تشيخوف، عمارة 29، شقة 37. وكانت موجودة هناك أيضاً المطلقة السابقة، زوجة جدي كوليا الحالية، مع ابنتها. وقد بذلتا جهدهما كله من أجل طردنا أنا ووالدتي. مثَّلتْ زوجة والد أمي، العجوز القصيرة الجافة التي تبلغ من العمر خمساً وأربعين سنة، كابوساً حقيقيّاً بالنسبة لنا. ففي كل شهر تُستدعى والدتي إلى جلسة المحكمة بشأن دعوى زوجة أبيها حول طردنا من الشقة.

كان جدي، مثل جد أمي، لديه غرفته الخاصة، لكنها أصغر من غرفة جد أمي بمرتين، مساحتها اثنا عشر متراً مربعاً، غير أنها ذات سقف عالٍ جدّاً، أكثر من أربعة أمتار. ومكتبته (خمسة آلاف كتاب) كانت في خزائن مكدسة واحدة فوق الأخرى إلى السقف. وكانت ثمة خزانة منفصلة للأناجيل. أكبرها ثقيل لا يمكن حمله، مجلد بجلد خنزير فاتح اللون، وفيه مشابك فضية. احتوت الخزانات على الطبعات الأولى لعمل ألكسندر بوشكين «بوريس غودونوف». وكانت رواية بوشكين الشعرية «يفغيني أونغين» في غلاف من الكرتون المطلي بالورنيش، على شكل كُتيِّبات رقيقة في أغلفة من الورق الأخضر، كل فصل على حدة. وكما افترض المقيِّمون في متجر الكتب المستعملة، فإن تلك النسخة كانت تعود إلى الجنرال يرمولوف الذي قاتل ضد نابليون. يكمن سبب بيع أمي لهذا الكتاب سرّاً – في معاناتي الطويلة من أمراض التهاب اللوزتين والتهاب الجيب الفكي والتهاب الجيب

الجبهي، فقررتُ أن تأخذني إلى البلطيق، إلى البحر. والكتاب الوحيد الذي قرأته من مكتبة جدي هو كتاب كراشنينكوف من القرن الثامن عشر «وصف أرض كامتشاتكا»، كانت تفوح منه رائحة مميزة هي رائحة الحموضة والورق القديم. أما قراءة بقية الكتب الـ4997 لم تكن ممكنة لأنها كلها كانت بلغات أجنبية، بما في ذلك المجموعة الألمانية الكاملة لأعمال غوته المزيَّنة برسومات غوستاف دوريه الرهيبة (صور بعض الأشخاص ذوي القرون). كان جدي أستاذاً في الجامعة، لقد سبق أن ذكرت أنَّ بالإضافة إلى معرفته لإحدى عشرة لغة كان على اطلاع بأحوال ما يقارب من سبعين من لغات شعوب القوقاز، لأنه قد أعدَّ لهم أبجديات، وابتدع لبعض أهالي قرى شمال القوقاز حروفاً من جديد. فجميع اللغات القوقازية التي كانت تُكتَب بنوع من الخط العربي، قد تحولت في البداية إلى الأبجدية اللاتينية.

وكذلك يُعَدُّ جدي مبتدع نظرية الفونيمات (1923) والمنهج الرياضي في علم اللغة. جدي مذكور اسمه في الموسوعات. قرأت مؤخراً في جريدة «الصحيفة المستقلة» لقباً آخر له: «أبو الأبجديات». فقد كان في العشرينيات على استعداد لتحويل الأبجدية السيريلية الروسية إلى الحروف اللاتينية. ويعرفه جيداً علماء اللغة الروس والمتخصصون بالدراسات السلافية والمستشرقون.

جدي كوليا كان رجلاً ضخماً يقرب طوله من متر وتسعين سنتيمتراً، حذاؤه حجم ستة وأربعين (أدخلتُ قدميَّ الاثنتين في فردة من حذائه). ودائماً ما يطيل الصمت. فكانت زوجته السابقة في بعض الأحيان، لكي توحي له بفكرتها المزعجة اللاحقة، تطرق بعظم إصبعها الوسطى على كتف جدي وتقول: «كوليا، هل يمكن أن أتحدث إليك؟».

هوايته المفضلة صارت معاينة أطالس أوروبا الجغرافية القديمة. حدث هذا بعد أن فُصِل من جميع أعماله، كان نائب مدير معهد الدراسات الشرقية. وبقي لا يملك أيّ شيء من المال، أمضى أيامه على الكرسي في

مدخل الشقة يدخن سجائر «بيلومور» الرخيصة. تركه تلاميذه ورفاقه. جعل يكتب بخط كبير مثالي بعض النصوص على لفائف من الورق الرمادي، أو يقلب الأطالس المفضلة لديه باللغات الأجنبية - التي ذُكِرت فيها حتى القرى، وإنه، على ما يبدو، كان يتجوّل في الطرق القديمة في خياله.

لقد فُصِلَ الجد لأنه لم يؤيّد فوراً مقالة ستالين الموسومة «الماركسية وقضايا علم اللغة». وسبق لي أن قلت هذا.

وبعد أن فقد وظيفته جفا النوم عينه وجعل في الليل يضطجع على سريره ذي الشبكة المعدنية يضرب بقوة على ركبته، ويشتم بكلمات فاحشة، ويصيح: «بيرياشكا! فينوغراشكا! تشيكوباشكا!».

إذ كان عالما اللغة فيكتور فينوغرادوف وأرلوند تشيكوبايفا خصميه العلميين اللذين، يبدو أنهما قد أدّيا دوراً في فصله من العمل. أما بخصوص بيريه، فأقول، إنه فيما بعد، عندما ألقي القبض عليه (على بيريه)، أقرَّ الجيران بنبوءة جدي وبدؤوا يحترمونه بشكل خرافي.

كان في تلك السنوات التي طرد فيها من الجامعة يدخن في الليلة علبتين من سجائر «بيلومور»، ويهمس بشتائمه العاجزة وأحياناً يصرخ بتلك الشتائم. وصار الدخان في غرفتنا الصغيرة جداراً. واعتدتُ النوم واضعةً كوع يدي على أذني.

خسر جدي كل شيء.

فقد رُشِّحَ قبل هذا لرتبة عضو مراسل في أكاديمية العلوم. عاش مثل أيّ أستاذ جامعي اعتيادي، كان يُنفِق على إعالة زوجته السابقة وابنته الشابة المريضة بمرض تضخم الغدة الدرقية، ويُعيل كذلك أسرة صغيرة أخرى، هي أسرة العمة فاينا الشقراء السمينة وابنتها التي تسكن في باحتنا. كان يذهب لتناول الغداء معهم يوم الأحد وينام هناك بعد الغداء. وأنا أيضاً كنتُ أرافقه لتناول الغداء (كانوا يقدمون لنا السلطات وطبقاً ساخناً ونقيع الفواكه الجافة!)، ثم أغطيه ببطانية على الأريكة. وذات يوم أكلتُ بعد أن رأيتُ لأول مرة مثل هذا الكنز، علبة كبيرة مليئة بنقيع الكرز. كنت أُكثِرُ

من الأكل، ولم تنبس فاينا الطيبة بكلمة واحدة. لم أكن أعرف طعم مثل هذه الأشياء، فالتهمت حبات الكرز الباردة الحلوة بالملعقة من دون مضغ مباشرة مع البذور. وفي تلك الليلة ذاتها نُقِلتُ إلى مستشفى الأطفال بعد أن ارتفعت درجة حرارتي، وشُخِّصَت حالتي «بالتهاب الزائدة الدودية الحاد»، ووضِعتُ على طاولة العمليات، وبدأ الممرضون يتكلمون معي بأشياء خارجة عن الموضوع لصرف انتباهي، وفي الوقت نفسه، ربطوا ذراعيَّ وساقيَّ على الطاولة وسحبوا على أنفي وفمي كمامة استنشاق التي تدفق منها، بدلاً من الهواء الحلو، غاز خارق سامّ خفيف. فبدأت، كالشخص المحكوم عليه بالإعدام، أحاول الإفلات والهروب، وطلبت التنفس ولو لمرة واحدة. فسمحوا لي بذلك. ثم مرة أخرى حشروا بلا رحمة قناع الأثير هذا، وفي هذه المرة نُفِّذ الإعدام حتى النهاية. إذ إنهم خنقوني. ومرة أخرى، جعلتُ ألهث وأتلوّى وأئنُّ وأصرخ وأبكي، لكنني كنت مربوطة فما كان بوسعي سوى أن أستسلم وألين وأتراخى من دون حول ولا قوة مني وأُسلم روحي وأموت، ولكن سرعان ما أفَقتُ في نفق واسع من خلاله تسرَّبَ الضوء بشكل غير مباشر ودائم كمطر سامّ وحارق، فانشقَّ أنفي وحنجرتي من رائحة هذه الأشعة الحادة الضاربة تماماً، وحلَّقتُ من خلال خيوط الضوء اللاسع الساطعة المائلة بعيداً، وطرقَ سمعي صفيرٌ أو رنينٌ مقرف، كأنه ذبذبة. وقد لاح في نهاية النفق نور مبهر، وكنت أقترب إلى ذلك المكان باطراد، لكن ما زالت تقرعني إبر طويلة حادة دقيقة وسامة تخترق جسدي وهي ترن. أي إنها صورة كاملة للموت السريري، كما يصفونه...

بالإضافة إلى الكتب، كان جدي يمتلك في هذه الغرفة سريراً (بالحجم الملكي - نفر ونصف) بشبكة معدنية وكرات مطلية بالنيكل من جهة الظهر، ومكتباً فاخراً كبيراً من الخشب الأحمر، وكرسيّاً، وخزانة للمخطوطات فيها مجلدات قابلة للسحب، وكل واحد منها فيه شريط، وخوان طعام كبيراً مربعاً.

محاولة إيجاد مكان

تحت هذه الطاولة نامت أمي كذلك منذ عام 1943 عندما التحقتْ بمعهد الفنون المسرحية في موسكو. كان في الطاولة عيب كبير: إذ امتدت شريحة سميكة من الخشب بعرض خمسة عشر سنتيماً في محيطها فوق الأرض، فمن غير الممكن للمرء أن ينام إلّا بعد أن يضع قدميه فوق الشريحة، ووضعية النوم هذه غير مريحة بشكل رهيب ومؤلمة، أو بعد أن يحشر ساقيه تحتها بصعوبة. لذلك، أعدّت لي أمي في الزاوية عند الباب، في الممر المشترك، مناماً على الصندوق. نمت هناك بكل متعة، وحدي تماماً (نادراً ما حدث لي ذلك)، وكنت أستمع إلى فحيح عدادات مقاييس الكهرباء المختلفة (لكل غرفة عدادها الخاص). لكن هذا الأمر استمر يومين فقط. فقد أخذ الجيران بأمر من زوجة جدّي الصندوق من الممر ووضعوا مكانه خزانة ضخمة. فاضطررتُ للنوم تحت الطاولة إلى جانب والدتي، وكنت سعيدة بذلك. هذا كان بمثابة كوخ صغير خاص بنا. الأطفال يحبون أن يعيشوا تحت الطاولة. في الأعلى، فوق الطاولة، وضِعَت الحاجات الخاصة بأمي مثل القدور الصغار والمقلاة والجريش والكتب ووعاء لسلطة فينيغريت وأطباق: حاجياتنا كلها. وعلى جانبي المرتبة وضِعَت أشياء.

لكن زوجة والد أمي لم تتركنا لحالنا بسلام. لقد توصلت إلى فكرة جديدة عن كيفية تنظيم حياتنا. وسرعان ما جاء الحمالون وجعلوا يسحبون الطاولة خارج الغرفة (احتاجتها زوجة جدّي في المنزل الريفي

الصيفي فوراً). بكت أمي وجمعت حاجياتها التي تساقطت. تعلقتُ برجل الطاولة مثل طفل مقاتل، ولم أتركها لمدة طويلة. فقد انهار كوننا. أعطت زوجة جدي الأوامر بحدة، وهي واقفة في المدخل. سار الجيران المفعمون بالرضا والسرور ببراءة في الممر جيئة وذهاباً. وفي النهاية نقل الحمالون الطاولة بعيداً. بقينا في الفراغ. جميع حاجياتنا مطروحة على الأرض كما هو الحال بعد القصف.

أمي، مقاتل شديد القوى، لم تنحنِ تحت هذه الضربة التي وجهها لها القدر. فبعد أن كفَّت عن البكاء ومسحت الدموع عن عينيها وعنّي، تفحصت المكان الجديد جيّداً وجعلت تقيس شيئاً بحبل صغير وتُسجل على وُريقة، وما إن أنهت ذلك حتى اشترت طاولة صغيرة للكتابة وسريراً! وقد اتسع المكان لوضعهما! صحيح أن السرير كان فيه شيء من الحيلة: ففي النهار يمكن تقصيره (عرفت الصناعة ما يجب إنتاجه للأماكن الضيقة)، وفي الليل يُرفَع الجزء المنخفض. أي إني، في النهار يمكن أن أجلس خلف الطاولة على حافة سريرنا، وأتناول الطعام وأُحضِّر دروسي، وفي الليل كنا نرقد على السرير مثل الناس. صحيح، أنَّ المكان ضيِّق بعض الشيء، مساحة ثمانين سنتيمتراً بالعرض لشخصين، فأنا لم أعد صغيرة، إضافة إلى أني مثيرة للقلق والمتاعب. وفي الليل، استلقيت على السرير والسعادة تغمرني، وجعلت أتقلب وأتلوّى إلى هنا وإلى هناك، وأتدحرج على السرير، وأضرب برأسي على الوسادة، وأنا ألوِّح بذراعيَّ وأُطلِق صرخات الفرح. هذا يسمى «الكَلَب». كفّي عن هذا الجنون، قالت أمي. وفي الليل، على ما يبدو، كنتُ أتقلَّب أيضاً، اشتكت والدتي من مِرفقيَّ الحادَّين. نمت معها على السرير نفسه لمدة سبع سنوات أخرى، إلى أن كبرتُ تماماً. وحينئذٍ اشترت لي أمي سريراً قابلاً للطي، واتسع له المكان بطريقة ما أيضاً! كان فرحي بلا حدود، إذ أصبح لديَّ سرير منفرد!

سأذكر مأثرة واحدة فقط من مآثر زوجة والد أمي. ذات مرة مرضتُ ورقدت على سرير جدي وقد ارتفعت درجة حرارتي. لم يكن أحد في

الشقة، سوى زوجة الجد هذه. في لحظة رائعة، بدا لي أن السقف والجدران كانا يتحركان ويصعدان عليَّ. فقفزت مسرعة من الغرفة المرعبة، والعرق يتصبب مني، واندفعت في الممر للبحث عن شخص ما، فتعثرت بزوجة والد أمي. اشتكيت لها من السقف والجدران. أخذتني بيدها النحيفة من كتفي، وقادتني إلى الغرفة، وأجبرتني بعناية على الاستلقاء، ثم خرجت وأدارت المفتاح بالاتجاه الآخر! وقفلت الباب! لا أتذكر ما فعلته، جعلتُ أضرب على الباب، على ما أعتقد. وربما بكيتُ وصرختُ؟ كم من الساعات استغرق ذلك ومَن وجدني وفتح الباب؟ لا أعرف.

يمكن مقارنة حالة الرعب هذه مع الانطباع الذي تركته تمثيلية للأطفال في المسرح في مدينة كويبيشيف. كنت أيامها، على ما يبدو، صغيرة جداً. مثَّل في تلك المسرحية كوشي بيسميرتني. وقد بقي إلى الوقت المحدد خلف الكواليس وراء أحد الأبواب، ومن ثم فُتح الباب – فظهر بالكامل في ضوء أخضر مرعب، بمظهر عجوز - هيكل عظمي، مغطى بأسمال من الطحلب وسلاسل مجلجلة. ارتفع من تحت الأرض، ونما... فصرختُ يائسة، ودوّى صوتي في المسرح كله. جاء إليَّ في الحلم عدة مرات. ذات مرة (في الحلم) كنت أمشي على رصيف شارع فارغ، السماء تبدو كما هي عند الفجر، كانت المنازل صفراً ومنخفضة، في نافذة فوق باب أحد المنازل رأيت شعلة صغيرة، لونها أخضر، شريرة ومألوفة. كان الباب على وشك أنْ يُفتَح. لحقتُ بأحد المارة وأخبرته بشيء من البراعة: «يا عم، دعنا نوقف هذا الحلم الرهيب». واستيقظت.

(عندما شاهدت فيلم المخرج لويس بونويل «سحر البورجوازية الخفي»، رأيتُ فيه المشهد نفسه بالضبط، حلم الجندي – يسير في شارع مهجور ذي منازل منخفضة، إنها مدينة ميتة، ينفرج باب المدخل الأمامي، وفيه ينهال من السقف تراب. فيما بعد كتبتُ حكاية عن مدينة الموتى، عنوان الحكاية «المعطف الأسود»، حيث تركض فيها فتاة في الشارع، وكانت وحدها الحية هناك).

دار رعاية الأطفال

كان لا بدّ أن أُودَع في مكان ما، أو على الأقل أن أُرسَلُ للدراسة في المدرسة.

ها قد حان الوقت الآن، وبعد أن خبزت لي والدتي الخبز المحمص الأبيض للطريق، أرسلتني، أنا ابنتها الصغيرة، مع امرأة مسافرة بالطريق نفسه إلى باشكيريا، إلى دارٍ لرعاية الأطفال الضعفاء الواهنين.

كان الوقتُ خريفاً. سافرنا بضعة أيام، وقد أطعمت الجميع في الطريق باستمرار من خبزي المحمص الذي صنعته لي أمي. ثم كان عليَّ أن أسير مسافة طويلة مشياً على الأقدام من المحطة البعيدة. أتذكر الغابة الذهبية، التي سرنا على طولها إلى دار رعاية الأطفال، والحديقة ورائحة الأوراق الساقطة والدخان، وأتذكر من الشاطئ، روح النضارة ووحل النهر. تقع دار رعاية الأطفال، وهي قصر ريفي يتألف من طابقين، على الضفة العالية لنهر أوفيمكي بالقرب من مدينة أوفا عاصمة باشكيريا.

(آنذاك بالفعل كانت تُخصص القصور لدور رعاية الأطفال ودور الطلائع. والحقيقة، أنَّ أدِيرة الرهبان كانت تُستغَل بمثابة مستشفيات للأمراض العقلية وسجون ومعتقلات).

وهناك أجلسني المعنيون على الفور في الصف الثاني، بعد أن عرفوا أني أُجيد القراءة والكتابة. أعطوني دفتراً. ولأول مرة في حياتي أمسكتُ قلماً بأصابعي، غمسته في المحبرة وبدأت أخطُّ الحروف على نحو احتفالي.

اقتربت المعلمة مني وقالت:

- لماذا بدأت الكتابة من منتصف الصفحة؟ ينبغي أن تكتبي من البداية.

عند ذاك انتزعت الورقة بلا مبالاة، وكتبتُ على الورقة التالية التاريخ والكلمات من جديد «إنه عمل رائع» بالضبط في وسط الصفحة. كأنها عنوان على صفحة اسم الكتاب. بينما كان ينبغي أن أكتب على السطر الأول...

جاءت المعلمة، نظرتْ إلى ما كتبتُ، وأمرتني أن أكتب من جديد مرة أخرى. فبدأت أكتب مرة أخرى من الوسط. نفد صبرها - فأخذوني إلى الصف الأول...

وهناك سرعان ما أصبحت التلميذة المميزة. الأمر الذي لم يمنعني من التصرف بالطريقة نفسها التي تصرفتُ بها في المخيم الصيفي. وبما أنني كنت طلائعية بالفعل، فقد طُردت مرة أخرى من الطلائع!

أتذكر كيف مرضتُ بالتهاب اللوزتين، ورقدتُ في المستشفى. كان المستشفى لا يزال يسمى «الحَجْر الصحي». رقدتُ هناك على سرير أبيض نظيف وأنا في حالة من الهذيان، وأعتقد، منفردة، وحدي تماماً. كان الأمر مخيفاً جداً. وفرحتُ عندما رأيت فأرة صغيرة أسفل السرير المجاور. فأعطيتها على الفور الخبز المخزن تحت الوسادة. أخذَته بمخلبيها الأماميين، وجلست على ذيلها مثل السنجاب وبدأت تأكل!

استعددنا هناك، في دار رعاية الأطفال، للاحتفال برأس السنة الجديدة. كانت معلماتنا جميعهنَّ من مدينة لينينغراد، اللواتي أتين مع الأطفال في أيام حصار لينينغراد. فقمن معاً بترتيب حفل رأس السنة الجديدة - كان ذلك مسرحاً! ارتديتُ زيّ غجرية، وغنّيتُ وأنا جالسة على الأرض في جوقة «لي- لاي - لاي» ذوات التنانير الملونة والشالات، وعلى صدري النحيف تدلت قلادة من الخرز الزجاجي لشجرة عيد الميلاد! وبعد ذلك رقصتُ، وأنا أُلَوِّح بتنورتي!

كنتُ على اطلاع على شيء من الحياة في مخيم الغجر الذين نراهم

كل عام، بعد تدفق المياه في نهر الفولغا. كانوا ينصبون خيامهم على شاطئنا، ويطبخون الحساء، هذا ما جذبنا نحوهم. كانت النار تطقطق، والدب يجلس على سلسلة فيها حلقة مربوطة بأنفه، والأطفال القذرون يركضون في كل مكان كالمجانين وهم يرتدون الوزرات الفضفاضة المفتوحة عند القدمين (جلس أحد الأطفال، فانفرجت الفتحة، قضى حاجته، ثم قفز وركض). لا أتذكر كيف كانوا يرقصون، لكنني رقصت في دار رعاية الأطفال بالطريقة نفسها.

بعد ذلك، بدأ يأتيني بإصرار أول فارس في حياتي، إنه ابن المعلمة المهذب، تلميذ في الصف الثاني أشقر صغير. صددته بصرامة، كما يفترض أن تفعل أيّ آنسة شابة من عائلة محترمة، ولم أدخل معه حتى في شجار.

لسوء الحظ، لم يكن لديَّ أيّ شيء من الملابس التي يمكن أن ألبسها وأتنزه، لقد جمدتُ من البرد. وكتبت رسالة إلى والدتي أطلب فيها أن ترسل لي معطفاً وحذاء. وإذا بالمعجزة تتحقق فقد أرسلت لي أمي طرداً كبيراً فيه معطف مخملي سميك وحذاء شتوي من اللباد! (إرث من قريبتي ماريشكا فيغير، معطف أمريكي من الفرو الصناعي فيه لطخة حبر كبيرة على جهة اليمين). ارتديت هذه الملابس الدافئة والمريحة (عند ارتدائها بإمكاني الاستلقاء على الثلج) ، ثم بدأت أجري بنشوة وألفُّ وأدور على جليد البركة. حذاء اللباد الشتوي سلب عقلي وجنَّني! كنت فرحة به، كم كان ملائماً لقدميَّ ولطيفاً! ثم هبطت قدمي في حفرة صغيرة غير متجمدة في البِركة لم ألاحظها. هوت رجلي في الحذاء بشكل ميئوس منه. فاضطررت إلى الجلوس على الجليد، بعد أن مددتُ رجلي الأخرى وهي في فردة الحذاء، ولسبب ما صرخت «مرحى، يا رفاق!». ولهذا تأخروا في انتشالي ولم يسحبوني على الفور. لم ألاحظ أنني أصبحت برجل واحدة. عندما أخرجوني، غاصت فردة الحذاء تلك إلى القعر...

وبحلول الربيع تضاءَل عدد الأطفال، فقد أعيدوا إلى أماكنهم، وفي شهر مايو (أيّار) رُحِّل الجميع. مُنحتْ دار رعاية الأطفال الضعفاء

إجازة، وربما، حُلَّتْ على الإطلاق. في سنوات ما بعد الحرب حدثت مجاعة ونقص في المحاصيل. وغادرت المعلمات كذلك، كل واحدة إلى وجهتها. وغادر صديقي الصغير أيضاً. ورَحَّلوا ماني إلى أهلها، وهي صبية في الرابعة عشرة من عمرها، لكنها ضعيفة لدرجة أنها بالكاد تستطيع مسك القلم بأصابعها، لذلك جلسنا كلانا في الصف الأول نفسه. كانت طويلة ونحيفة، ولديها صعوبة في المشي. ولديها عينان سوداوان واسعتان.

فرغتْ دارنا الكبيرة على الضفة الشديدة الانحدار لنهر أوفيمكا، وأُغلِقَتْ. ظلت الحارسة مع أحد الرجال. عشت عندهم في منزلهم. كانوا يتكلمون باللغة البشكيرية. (وقد علق بذاكرتي منذ ذلك الوقت الحساب باللغة البشكيرية، واليوم أنا أعتذر من البشكيريين إن كنتُ لا أعرف لغتهم بشكل جيد).

كانت الحارسة وزوجها يجمعان زهور النرجس في الغابات ويبيعانها. وكنت أذهب معهما، وأساعدهما. حاولت بطريقة ما أن أساهم في هذه الحياة غير المفهومة الآن.

جمعنا الزهور في المروج الندية الكبيرة، المحاطة بأشجار عالية، في ظل الصباح، عندما كانت الشمس لا تزال منخفضة. كنا نجمع الزهور في الفجر، سلالاً كاملة. كان ثمة بعض العشب الأزرق السميك، الذي يحتوي على أزهار النرجس البيض الكبيرة. وكان علينا أن نقطف البراعم غير المتفتحة.

أصبحتُ أعرف ما يحكي عنه البشكيريون (فقد مكثتُ ثمانية أشهر بين السكان المحليين! والأطفال يحبون أن يتعلموا لغات الآخرين ويستوعبونها بسهولة، من أجل أن يفهموا كل شيء، ويستكشفوه ويحيطوا به علماً. إنهم لا يقدرون من دون امتلاك هذه المعلومات. يولد الأطفال مستكشِفين).

قال البشكيريان إنَّ من المحتمل أن أُنقَل إلى دار رعاية أطفال أخرى،

ولكن في أيّ مكان لم يُعرف بعد. لم تأتِ الأوامر. لأن أمي لا تأخذني. لقد تخلت عني وتركتني.

لم أصدق ذلك. ثم اكتشفت أنَّ من طبعنا، أن نتأخر دائماً في كل مكان. حتى عندما كان من المقرر أن تُعَمَّد عائلة آل فيغير، عائلة والد جدي إيليا سيرغيفيتش، في الكنيسة اللوثرية (على أثر رغبة الشابّين آنذاك إيليا سيرغييفيتش وآسيا، اللذين وُلِدَ لديهما بالفعل أطفال غير شرعيين، بما فيهم جدتي الصغيرة فاليا، بإعلان زواجهما، لإضفاء الشرعية على الأطفال، وإلحاقهم بالمدرسة) - إذن، حتى في مثل هذه الحادثة الأكثر أهمية تأخرت أسرة آل فيغير بشكل كارثي. ومع ذلك، انتظرهم القس الألماني الذي يولي الانضباط أهمية كبيرة، لكنه سأل بأدب: «فاروم زو شبيت»، لماذا تأخروا هكذا.

في النهار كنت أتنزه وحدي في الغابة. فقد كان هناك شيء مغرٍ - هو كهف بوغاتشيوف الشهير. المدخل إليه عبارة عن شق منحنٍ ضيق، يمتد عالياً في جرف شديد الانحدار. قيل إن فيه ثمة فضاءات كبيرة. فحاولت لمدة طويلة أن أتسلق وأن أحشر نفسي وأدخل فيه، ولكن شيئاً ما حال دون ذلك ومنعني. فالغريزة تقول لا تدخل في الأماكن الضيقة. لكن في المقابل عثرتُ صدفة في الغابة على كوخ صغير، يبدو أنه منزل للاصطياف الريفي. ثمة امرأة فيه تجلس عند النافذة وتدخن. طلبتُ منها سيجارة. أعطتني سيجارة وناراً. فاتخذت هيئة المدخن المحترف، ولم أسعل. نظرت إليَّ المرأة باهتمام. من أين جاءت إلى الغابة هذه السيدة الجميلة؟

أعتقد، لو أني بقيت في هذه الغابات، لتبنَّتني بلا ريب. كذبت عليها وقلت إنه ليس لديَّ أحد في هذه الدنيا، وإنّي يتيمة.

أريد أن أعيش

ثم، أخيراً على كل حال، جاءت امرأة إليَّ، وأخذتني، وقد نلتُ بالفعل قدراً من التعليم المناسب للصف الأول (حصيلة عشر سنوات من العمر!)، ولكن مع هذا كنت تلميذة متميزة للغاية. وهكذا عدت إلى البيت من منطقة الأورال. وفي الطريق كانت النساء المرافقات لي في الرحلة يتغيرن. فقد عشت لبعضٍ من الوقت مع امرأة غريبة أخرى، نمت على الأرض. وهنا، أعتقد، أنها تعاطفت معي، لأنها أعربت عن رغبتها في تبني مثل هذه اليتيمة المتميزة، التي، الله وحده يعلم أنواع الكذب الذي تفتريه. وفعلاً، حكيتُ عن نفسي أشياء للغرباء، لكن هذا لم يؤثر فيهم (على ما يبدو).

لكني لا أسمح لأحد أن يتبناني. لقد كرهتها على الفور بوصفها شخصاً متعدّياً على ممتلكات أمي. أنا أنتمي إلى أمي تماماً وكلّي من حصتها وحدها. وأحبها لدرجة العبادة. صورتها الرائعة لم تتركني لحظة قط، وكما يقول الشعراء، صـــــورتُها مـا غادرت أبداً مُخَــيّلَتي. ومُحيّاها يُشعرني، أنا اليتيمة ابنة دار رعاية الأطفال، بالدفء (مع وجود أبي وجدتي وجدي وخالتي الأحياء وجماعة كاملة من الأقارب من النساء والرجال). كان لديَّ هدف واحد في الحياة – هو أنْ أعيش مع والدتي!

وصلتُ إلى موسكو، وعلى الفور ذهبت إلى مخيم الطلائع لمدة ثلاثة أشهر. كانت هذه مرة أخرى أصعب عملية لإعادة التعليم. في دار رعاية

الأطفال، كنت أُحتَرم وأُقَدَّر بوصفي تلميذة متفوقة وممثلة ممتازة. بينما هنا طردوني مرة أخرى - في البداية عزلوني من منصب رئيس مجلس الفصيل، الذي اختُرتُ له على الفور تقديراً للنشاط الفائق والسلوك المثالي في الأيام الأولى (على ما أظن)، ومن ثم طُرِدتُ من الطلائع في الاصطفاف. والسبب واضح، إنه العراك وعدم الانضباط وهلمّ جرّاً. لم أرَ جواربي وصندلي ومناديلي ومشطي وشرائطي بعيني من الأيام الأولى في المخيم. وسرعان ما نُقِلتُ عقوبةً لي إلى فصيلِ الأطفالُ فيه أصغر سنّاً. وهناك، في اللحظة الأولى، سعدت بالمشاركةِ في عراك عام، لقد ضُرِبتُ بشدة، وواصلت السير على الشكل الذي اعتدت عليه.

وكان العزاء الوحيد لي في الاستغراق في الفن. فقد التحقت في جوقة الغناء وفي حلقة المسرح وفي حلقة الرسم وفي حلقة الرقص. وكنت آمل أن أحقق بواسطة مواهبي الاعتراف بي في مجتمع المخيم هذا، وفي جماعة أطفال الحرب الذين تربوا في ظروف المجاعة الشاملة والانضباط المدرسي.

لكنني لا أتذكر أن الأطفال احترموا أيّ شخص لغنائه أو لرسمه. وكانوا يعاملون الممثلين والمغنين بازدراء كما يُعامَل المهرجون في العصور القديمة. الحقيقة، أنَّ الأطفال يقدرون ما يقدره الناس في كل الأوقات - القوة والاحتقار والصمت ورباطة الجأش والتطلع نحو أيّ شيء مهما كان، أي إنه الطبع. والثقة بالنفس كانت رائجة ولها قيمتها أيضاً، ولكن أكثر ما يُقيَّم هو القوة البدنية البسيطة والغاشمة.

ترسخت سمعتي على حساب أحدهم - ففي الليل، عندما أُطفئت الأضواء حدَّثتهم في غرفة النوم عن حوادث مخيفة!

وأتذكر أني ذات مرة في دار رعاية الأطفال الخيبة تلك عندما كان عمري تسع سنوات تحدثتُ كثيراً إلى أن نام الجميع، ولكني لم أستطع النوم وفجأة انتابتني حالة من الذعر الرهيب، للمرة الأولى في حياتي أدركت أني سأموت في يوم من الأيام، وبدأت أتدحرج على السرير

وصرخت بصوت عالٍ: «لا أريد أن أموت، أنا لا أريد أن أموت! لا أريد أن أموووووت! أريد أن أعيش!!! أريد أن أعيش! آآآ، آه!» استيقظ الجميع، وأشعلوا الضوء، وهرع الكبار نحوي وأمسكوني من يدي، فاندفعتُ في أحد الاتجاهات وصرخت مرعوبة.

رأيت الموت في يوم من الأيام- حدث ذلك من الشرفة في مدينة كويبيشيف. مباشرة تحتها وقفت شاحنة، وفي حوضها، لسبب ما، رقدت صبية ميتة على وسائد زُرق، وكانت ترتدي ملابس تشبه ملابس دمية. فبقيتُ من جراء ذلك أبكي طوال الليل.

والمرة اللاحقة التي بكيتُ بها بمثل تلك الحرقة، ولسبب ما ليس بصوت عالٍ جداً، وأنا مختبئة، حدثت في الخريف من عام 1949 بعد العودة من المخيم، عندما أخبرتني أمي على الفور أنَّ ديديا توفي قبل عام.

توفي ديديا في عام 1948، بعد مرور عشر سنوات منذ تنفيذ حكم الإعدام بأولاده لينوتشكا وجينيا (تلك السنوات العشر مضت من دون حق المراسلات). وقد ذهب عدة مرات إلى لوبيانكا حيث مقر المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية، عجوزاً شائب الشعر بلحية بيضاء كالثلج (يظنه الأطفال دائماً أنه بابا نويل ويحيطون به وهم يضحكون). كان يكتب عرائض يقول فيها: مرّت عشر سنوات، أين أولادي. وقبل كل زيارة إلى لوبيانكا يودّع الجميع. كتب عدة رسائل إلى ستالين، يلقي باللوم فيها على رئيس المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية أفاكوموف على «غطرسته». وبعد ذلك ذهب يحمل صفيحة إلى شارع غوركي ليجلب الحليب، ووقف مع الحشد عند إشارة المرور في الزاوية المقابلة لفندق «ناتسيونال»، وما إن تحركت السيارات، حتى دفعه أحدهم بقوة مباشرة تحت عجلات شاحنة الخبز (قال السائق، وهي امرأة، في المحكمة إن هذا العجوز خرج من الحشد ورمى بنفسه تحت عجلات الشاحنة وهو محني الظهر). وقد كُتِبَ في محضر القضية أنه كان في حالة سكر. اخترع ذلك رجال الشؤون الداخلية البائسون. مع أنَّ ديديا لم يشرب المسكرات قط.

ودَّعتُ ديديا بقدر ما استطعت، بنشيج هادئ، تقريباً من دون دموع. وكأني أُؤدّي طقساً مهمّاً. وقفتُ في الممر المظلم وبكيتُ عليه. وقلتُ في نفسي: لن أراك بعد اليوم. كيف يمكن لي أنْ لا أراك مرة أخرى. يا ديديا، يا حبيبي، يا ديديا.

تراءى لي أنه يسمعني.

حبات عنب الثعلب غير الناضجة

جلبت الأم الصبيّة إلى مصحة للأطفال الضعفاء وتركتها هناك.

الوقتُ آنذاك خريفٌ، والمنزل ذو الطابقين المبني بجذوع الأشجار ذو الشرفات على طوله، والمحترق في الطابق الثاني، يقع على شاطئ بركة كبيرة، مثل العديد من منازل النبلاء.

امتد من حول المنزل متنزه خريفي ذو مماشٍ بين الأشجار، ومروج ومنازل، وكان شذى الأوراق المتساقطة يُثمل بعطره الفواح بعد رائحة خبَث المدينة - وبدت الأشجار بأوراقها الصفر كأنها ترتدي حللاً من الذهب والنحاس تحت السماء الزرقاء الداكنة.

في غرفة نوم البنات ثمة بيانو ضخم، كنزٌ غير متوقع، وأولئك المحظوظات اللائي يُجدن العزف، عزَفنَ عليه، وسيئات الحظ اللائي لا يجدن العزف، حاولن أن يتعلمن.

كانت هذه الصبية هي أنا، الكائن البالغ من العمر اثني عشر عاماً. وأنا التي أجبرت بالفعل الصبية بيتي التي تجيد العزف كي تعلِّمَني. في النهاية، تمكنتُ من حفظ أغنية «السيدة تركب الدراجة»، الكف الأيسر يتدلى بين مفتاحين، مفصولين أحدهما عن الآخر بالضبط بمسافة الأصابع الممدودة - الإبهام والخنصر (بين الدو والصول)، والكف الأيمن تحت هذا الخبط الإيقاعي (دو - صول، دو - صول) يعطي تألّقاً للحن.

كان البيانو أول شيء ننكبّ عليه في المهجع (عنبر النوم).

وجدت الصبية تلك نفسها في منزل مترف ذي أعمدة وسقوف عالية، والمهجع مرتَّب في قاعة.

ويبدو أنه بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية، نُقِلَت ملكية الضيعة لأطفال العمال، ولأبناء العمال الذين يعانون من السل، ولكن في الوقت الذي بلغت فيه الصبية حدّ الصف الخامس، كان قد اختلط كل شيء منذ زمن طويل، إذ غدا جميع الأطفال – من أبناء العمال الذين كانوا يعيشون على نحو متشابه في الشقق المشتركة التي تسكنها أكثر من عائلة، ويركبون وسائط النقل العام المزدحمة ويأكلون في المقاصف العامة التي لا يكفي فيها عدد المقاعد للجلوس، لذا كان يتوجب عليهم أن يقفوا في الدور على كل كرسي يجلس عليه شخص يتناول الطعام. وكانت الطوابير تمتد متقاطعة من كل طاولة على شكل أربع حُزَم من أربعة كراسي، وتتشابك مع بعضها البعض طوابير الجياع الذين يراقبون كل ملعقة متوجهة إلى فم الآكلين الجالسين على مهل وغير المستعجلين إلى أيّ مكان، الذين حصلوا على مقعد بشق الأنفس. الجميع كانوا عمالاً، كلهم وقفوا في طوابير لشراء الخبز والبطاطا والأحذية والبنطلونات، ونادراً جدّاً ما كانوا يقفون لشراء شيء فاخر كالمعطف مثلاً.

وفي الشقة كان علينا أن ننتظر عند الباب أو عند المرحاض أو عند الحمام، وفي محطة الحافلات كان يجب أن ننتظر، وزيادة على ذلك في الحشد ليس الذي في الأمام بالضرورة أول من يندفع إلى وسيلة النقل القادمة، ففي بعض الأحيان الواقفون في الأخير يكونون أقوى ويندفعون بشدة فيحرمون الضعفاء الذين جاؤوا قبلهم من الميزة الصغيرة التي منحها لهم الطابور العادل.

الطابور – هو تجسيد للعدالة، ووصل الطابور إلى الصبية، التي سجلتها والدتها في مستشفى السل للحصول على تذكرة الالتحاق بمدرسة في الغابة (ما يسمى بالمصحة).

وهكذا، بعد أن غادرت الصبية شوارع موسكو المليئة بالدخان،

ومدرستها في الحيّ المتألقة بالنظافة، هذه الصبية، التي كانت ترقد على فراش على الأرض تحت الطاولة، ذهبت وهي تحمل حقيبة برفقة أمها بالقطار الكهربائي إلى مدرسة الغابة، حيث غرفة النوم الرئيسة فيها بيانو كبير وتسمى «مهجعاً» وحيث المقصف فيها يحتوي على صف كامل من الأعمدة على الجانبين وعلى شرفات في الأعلى (إنها قاعة حفلات راقصة).

لن أقوم بوصف كيف كانت تلك الصبية ذات الاثنتي عشرة سنة نظيفةً في مظهرها الخارجي. فكما هو معروف، المظهر الخارجي يُنبئ عن الكثير، ولكن ليس عن كل شيء، يمكن للمظهر الخارجي، في سبيل المثال، أن يكشف كيف يأكل الشخص وكيف يمشي وكيف يتكلم وماذا يقول وكيف يُجيب عن سؤال المعلم أو كيف يجري في المتنزه، ولكنه لا يُنبئ مطلقاً في أيّ حال من الأحوال عن الكيفية التي تسير فيها الحياة الداخلية، وحتى لا يمكن لأحد أن يخمن ولا يستطيع الحكم على الشخص من خلال المظهر الخارجي الفارغ. فحتى لدى المجرم، على سبيل المثال، يجري حوار داخلي مستمر مع نفسه، حوار تبريري تسويغي، يا ليت أحدنا يسمع هذا الحوار، ليته فقط! وعند الصبية العادية البسيطة ابنة الاثني عشر عاماً جرى هذا الحوار باستمرار من دون انقطاع، فطوال الوقت كان عليها أن تقرر ما يجب القيام به في كل دقيقة تماماً – كيف وماذا تجيب، وأين تقف، وإلى أين تذهب، كيف تتصرف. وكل هذا من أجل هدف واحد مهم جدّاً، من أجل أن تخلِّص نفسها، لكي لا يضربها أحد ولا يثيرها ولا يزاحمها.

القوة لدى الطفلة التي لا يتجاوز عمرها اثني عشر عاماً لا تكفي للتعامل مع طبيعتها العنيفة، ولا مراقبة نفسها ولا أن تكون مثالاً للسلوك الجيد والدقة والصمت. القوة لا تكفي، والطفلة تعربد وتجري وتصرخ، فتتمزق جواربها، وحذاؤها دائماً رطب من هذا الصخب في المتنزه الخريفي البليل، وفمها لا يُغلَق، تنطلق الصرخات من قفصها الصدري،

لأنها تلعب لعبة المطاردة أو الشرطة واللصوص. وفي المدرسة أيضاً أثناء الفسحة، طرادٌ في الممرات - الشعر أشعث، والأنف يقطر، فإمّا العراك وإمّا الجمال.

إنَّ الطفل الذي يبقى من دون أمه، ويجب أن يقوم هو بالاعتناء بنفسه - على الأقل عليه أن لا يضيّع حاجياته، بدءاً من تلك الحاجيات التي يمكنه السير بها عبر الحديقة إلى المدرسة، لا أن تكون فردة من الجوارب موجودة، والثانية تبحث عنها في المهجع كله. أول شيء يختفي هو المناديل والقفاز (الأيمن) والوشاح، ويجري البحث طويلاً عن القبعة، ناهيك عن أقلام الرصاص والمسطرة والممحاة الضائعات دائماً. وأغلب الظن أنه لا يمكن العثور على أيٍّ من تلك الحاجيات عند أيّ أحد في الفصل.

وحتى إن الصبية فكرت بكتابة حكاية عن بلد الحاجيات الضائعة، الذي تختفي فيه كل الأمشاط (نعم، فقدت حتى مشط الشعر)، والأشرطة من جدائلها، والدبابيس وقلم الحبر وأقلام الرصاص كلها، وهلمّ جرّاً. لا عودة لشيء من هذا البلد، هكذا وضعت الخطة التي ستكون عليها الحكاية.

وها هي الصبية التي أضاعت أشياءها الصغيرة كلها لا يمكن أن تعيش من دون قلم رصاص وممحاة ومسطرة ومن دون مشط وأشرطة ودبابيس الشعر، فكتبت لأمها رسالة: ماما العزيزة، كيف حالك، أنا أموري جيدة، أرسلي إلي - وذكرت اللائحة بأكملها.

فالطفل، مثل روبنسون كروزو، يجب عليه أن يؤمّن لنفسه كل ما هو ضروري. في الاقتصاد هناك دائماً هفوات: لقد ضاع الحذاء المطاطي (القالوش، الجرموق). والقالوش - شيء مهم، فمن دونه لا يمكنك الوصول إلى المبنى التعليمي في الدروب المبلّلة بين البرك على الطين، ولا يمكنك أن تشق طريقك نحو المقصف بالحذاء الموحل، إذ لن يُسمح لك بالدخول بهذا الشكل. المعلمة غالينا إيفانوفنا أعطتها مؤقتاً

قالوشاً كبيراً، وبعد أن قامت الصبية بصفق نعل الحذاء وجرّه جعلت تمشي خلف الفصل كله كالمنبوذ وكالروح الشريرة بفردَتَي قالوش مختلفتين. إلى أن تجلب لها أمها زوجاً جديداً من الأحذية.

لم أكن على قَدَر كبير من الجمال، وزد على ذلك هذا القالوش الكبير الشبيه بالقِدر، الذي اضطررت للتزحلق فيه على الطين لمدة أسبوعين، ذهاباً وإياباً، إلى المدرسة وقاعة النوم وبناية المقصف.

المهم آنذاك بالنسبة لي أن يبدو شكلي كأشكال البشر، صبية بعمر اثني عشر عاماً، نكتة، أليس كذلك! كان يدرس في الصف السادس الطفل توليك، وهو من أترابي، عمره مثل عمري لكنه أقصر مني قليلاً، وجماله فائق. إنه ذو عينين سوادهما حالك، وذو أنف صغير، ونمش على قصبة الأنف، ورموش كثيفة، وعموماً عيناه كأنهما نجمتان، وطوال الوقت يبتسم – شكله يغوي بدهاء.

الصبية طويلة بالنسبة إليه، لكن سِحر هرمس الشابّ هذا، إلهِ اللصوص، توزَّع بالتساوي تماماً على الجميع. كان يشع طاقته كمفاعل صغير، بصورة غير معقولة، ومن دون وجهة معينة وعنوان، إلى مسافة مئة متر من حوله. كان توليك أشبه ما يكون بشيطان صغير ذي وجه ذهبي، فالتوهج يرافقه في كل مكان، ودائماً ما يحيط به الأولاد الذين يدرسون معنا في الفصل، وكان دائماً في المركز، إنه خطير مثل سهم خارق، يخترق جميع العيون ويُحرقها. ويكفي أن نقول إنه عندما يأتي إلى المقصف، فإن ذلك الجزء من الصالة، الذي فيه طاولته، يشعُّ بضوء من نوع خاص، وتشعر الصبية بفرح لا مثيل له، فقد جاء توليك، وتكبر عيناها وكأنهما تحت عدسة مكبرة، إنهما تبحثان بعناية عن مملكتهما، التي فيها توليك ابن الملك، فتتحول جميع الوجوه شطره كما تدور أزهار عباد الشمس مع قرص الشمس، أو أنَّ هذا فحسب ما بدا للصبية الطويلة القامة ذات الاثني عشر عاماً، الصبية ذات فردة القالوش الواحدة، الصبية التي تجر وراءها فردة القالوش الثانية الغريبة عنها على طول الممشى بين

الأشجار مثل القيد الصغير بانتظام ذهاباً وإياباً إلى الفطور وإلى الدروس وإلى الغداء، وإلى المهجع، وإلى تناول وجبة العصرونية وهلمّ جرّاً. إنها كالحلزون الذي ينزلق إلى باطن إحدى فردتي القالوش، هكذا كانت هذه الصبية، التي أصابها سهمه في القلب كالشوكة، أصابها في القلب الذي نشأ فيه ورم بحجم حبة عنب الثعلب الكبيرة.

لقد ظهر هذا الورم عند الجميع، عند الأطفال في المصحة كلهم، الفِتيان والفتيات، عند تلامذة الصفوف المنتهية وتلامذة الصف الخامس والسادس، وذات يوم في بهو الدار الرئيس الذي يضم المقصف، بدا لي في الأبواب العالية، عندما خلعتُ فردة القالوش الثانية الاعتيادية، شعاع نور توليك، فقد دخل واندفع إليه أحد أصدقائه على الفور ودفعه من دون قصد في الصدر بيديه.

- آخ، آخ! - راح توليك يصرخ ويعول بحماقة وبوهن، - واه، ياه! جعلتَ صدري يؤلمني، أيها الأحمق!

كان يضع راحة كفّه فوق حلمته اليسرى. وقد لاحت ابتسامة شيطان على وجهه.

«صدره يؤلمه، هو، أيضاً! - صاحت الصبية في سرِّها. - ينبغي أنْ يؤلمه! يجب أن لا يقتصر ألم الصدر على الصبيات وحدهن! الآن ما عاد صدري يؤلمني وحدي!».

من الواضح أنه انتبه إليَّ، وقد بان هذا في حقيقة أن شعاع انتباهه تركَّز على عينيَّ. وعلى ما يبدو، أني كنت أنظر إلى توليك، وكان يمكن أن تُقرَأ أفكاري بوضوح، وهي أفكار مهمة، وكان كيوبيدو (إله الحب والرغبة والجنس) يريد قراءة هذه الأفكار وقد فسرها بالفعل لصالحه. لكن الأولاد الذين هبّوا بسرعة خاطفة اصطحبوا معهم معبودي إلى المقصف. وهكذا لأول مرة التقت عيناه بعينَيَّ.

لقد قُرِئت أفكاري بالشكل الآتي: «يا تُرى هل تورمت قلوبهم وجعلتْ تؤلمهم؟».

إنَّ حقيقة كون توليك يعاني أوصلتني إلى النشوة. إذ اتضح أنه بسيط مثلي! وأنه كائن حيّ كذلك! ويمرّ بمرحلة التطور نفسها! فنحن مثل الشراغف (الضفادع الصغيرة)!

تحركت الصبية باتجاه المقصف كالممسوس، وزيادة على ذلك كان دخولها المقصف في وقت كانت فيه المدرسة بأكملها تتناول الغداء (فتوجب عليها أن تجرَّ نفسها بهذا القالوش بعيداً خلف الجميع).

الجماعة لا تحب أن يعزل شخص ما نفسه عنها، أو أن يأتي متأخراً عنها أو أنْ يلبس ملابس تختلف عمّا يرتديه أفرادها. الجماعة (والصبية ترعرعت في ظل جماعات منذ الروضة) صارمة بشدة في العقاب. إنها، أي الجماعة، تسخر وتُعنِّف وتقرص وتسحق وتذِل، وتستولي على كل ما يمكن أن يوجد عند الضعيف، وتستفز وتشاكس. أفرادها يلكمون مباشرة في الأنف مما يتسبب بنزيف. ويضحكون بوحشية عندما يرون قالوشاً كبيراً. ويسرقون كل شيء (بلد الأشياء المفقودة!).

ينبغي على المرء مع الجماعة، التي تشبه الأفعوان الخرافي ذا العيون الكثيرة، أن يكون حذراً، وأن يمتلك العديد من الحيل التي تجنبه الوقوع في الفخاخ. ويجب على المرء ألّا يبوح لأيّ شخص بأفكاره. فإذا ما اكتشف شخص ما أفكارك، ستكون النهاية، وسوف يخبر الآخرين بها على الفور. وسيضحك الجميع منك أثناء غيابك.

لم أستطع حتى أن آكل خفيةً الكعكَ المتحجر الذي أرسلته لي أمي من المنزل. شحيحة بخيلة! (الآخرون ليسوا بخيلين).

فقد أجهزت الجماعة إلى الأبد على الإحساس بالملكية الخاصة. أعطِ كل شيء!

وكان الأمر في الصيف، في مخيم الطلائع، أسوأ من ذلك، إذ لم يراقب أيُّ واحد من الكبار الشجارات التي تنشب بين الأطفال. إنهم مشغولون بإطعام الجميع وترتيب منامهم ونهوضهم، وهذا ما يفرضه قانون كثرة الأبناء، ولا يهتمون بالتفاصيل.

كانت الفصول الدراسية في مدرسة الغابة صغيرة، ولم يكن ثمة الكثير من الأطفال. وقد ساعد المتنزه والأعمدة والبيانو وعزلة السل على جعل المعلمين يولون انتباهاً أكثر للأطفال. المعلمون أيضاً كانوا من بين المرضى غير الخطرين. والكثيرون منهم كانوا يرتدون الصدريات بسبب مرض سل العظام. لذا كان العديد منهم معلمين هنا، بعيداً عن الناس، في الهواء الطلق والجوّ النقي. إنهم مربون غير اعتياديين وأذكياء وغريبو الأطوار تركوا العالم وتوجهوا إلى هذا المتنزه وإلى القصور ذات الأعمدة، إلى هذه المنطقة ذات السماء الصافية كالبلور، وذات الظلام الدامس في الليل، والأضواء القليلة النادرة التي تُرى من خلال جذوع الأشجار العالية.

بسبب القالوش حدثت بلوى، إذ أصبحت الصبية منبوذة، وصارت تجلس في آخر الصف. وجعلت تجرّ قدميها متثاقلة وراء جميع الفتيات، وتتخلف عنهن متقصّدة، فهنّ يضحكن عليها بشكل مكشوف.

في نهاية الأسبوع الثاني في ليلة من ليالي أكتوبر، عندما انسحب فريق الطلائع بعد العشاء عبر المتنزه نحو المهاجع، تخلفت الصبية عن الفتيات، وانسلّت بالقالوش بعيداً عنهنَ بكثير، بينما هناك كان الأولاد يسيرون من دون معلمين.

صارت الصبية بين الأولاد.

مثل قطيع من الذئاب، الذين يقطعون بالغريزة الطريق على كل كائن حيّ ويحتشدون ويلتفون حول الضحية، هكذا بدا الأولاد فجأة أمام الصبية في الأدغال الكثيفة عند الممر الضيق في الغابة، وقطعوا عليها الطريق، وهم كالظلال لا يمكن تمييزهم في الظلام.

تطلعت الصبية بعينيها ورأت أن الأولاد الذين في المؤخرة، وكأنهم تُحركهم هواجس معيَّنة، قد اقتربوا منها أكثر ثم كبحوا حركتهم، مقتربين ببطء.

وكأنَّ شعوراً واحداً قد استولى عليهم جميعهم، إنه الإدراك

الجمعي للصيادين، الذي يجعل الجميع كائناً عضويّاً واحداً، ينقضُّ كله على جثة واحدة.

إنه هاجس مختصر وخاطف وسريع جدّاً، مثير وسخيف، لا يبعث على التطلع إلى الأمام ولا يحثّ على التفكير في المستقبل. الآن هناك هدف، إنه يتحرك، يجب إيقافه والإمساك به. الجميع أحسّوا بهاجس واحد.

ما جرى في أذهانهم الفتية وفي قلوبهم التي ما زالت فارغة وفي أعضائهم غير المكتملة وفي حبات عنب الثعلب غير الناضجة حول الحلمات – هو شيء واحد: إنه الشعور بالشبق الجماعي، إنه الإمساك بالصبية!

وقفت الصبية في عتمة الأشجار، في الحلقة، في وسط حرشٍ صغيرٍ. وبعيداً، بعيداً جدّاً، عند طرف الحقل أنارت أضواء المبنى المخصص للمنام، ولا زالت هناك تومض أشباح قامات الفتيات المغادرات. معافَيات يمشين في أمان تام.

صرختُ عليهم. وأطلقت صيحة وحشية. وجعلتُ أزعقُ مثل البوق، مثل صفارات الإنذار. كانت تلك صرخة رعب، بلا انقطاع، على الرغم من أن الدموع غمرت حنجرتي.

الأولاد، أولئك الذين كانوا في المقدمة، اقتربوا وهم يقهقهون. كان يمكن رؤية وجوههم المبتسمة بغباء. رفعوا أيديهم، واستعدوا للإمساك بي.

وقفت في مكاني وأطلقت صراخي للفتيات.

رأيت أن أشباح قامات الفتيات البعيدة بدأت تنظر من حولها وركضتْ عائدة نحو الخلف.

تجمع الأولاد. ثم أدركت – طوال حياتي – مغزى قناع الابتسامة الماكرة الكريهة التي لا معنى لها، هذه الابتسامة الساخرة اللاإرادية التي أفعلها لنفسي خلسة وخفية، عندما لا يراني أحد.

أصابعهم تحركت. ربما، في تلك اللحظة، انتفخت حبات عنب الثعلب الخاصة بهم.

صرختُ بصوت أعلى من ذي قبل. إذ إني ما كنت على استعداد لبيع نفسي بالثمن الزهيد.

فما عساهم أن يفعلوا بي؟

وكأنهم عملياً جماعة من الجراحين، يقودهم الإحساس بالضرورة أو بالغريزة الجمعية عند رؤية الضحية، شعروا أنهم ينبغي عليهم في نهاية المطاف أن يمزقوها بأيديهم إرباً إرباً بالحرف الواحد ويدفنون رفاتها، لأن من الضروري فيما بعد إخفاء حصيلة الصيد. قبل أن يقوموا بكل ما يمكن القيام به مع شخص حيّ قد وقع في ملكيتهم. وهذا ما يُدعى بكلمة «استهزاء».

في ذلك الوقت، كانت رغبتهم أن يسدّوا فمي بأيّ شيء.

لكن: شيء ما أوقفهم على مسافة مترين. لم تعد الحلقة تضيق. وجعلوا ينتظرون. فأفلتُّ وصرختُ صرخة وحشية واندفعت من خلال طوقهم نحو الخلاص والحرية إلى الحقل.

لقد أضعتُ فردة قالوشي، إذ هرعتُ مثل زوبعة ولحقتُ بآخر الفتيات على باب المبنى.

كانت تمشي وهي تبتسم أيضاً بالابتسامة الماكرة الكريهة نفسها عندما كان عليها أن تلتفت إلى وقع أقدامي. هرعتُ إلى المنزل منتحبة تنهمر من عينيَّ الدموع وينهمر من أنفي المخاط، لكن لم يسأل أحد لماذا صرختُ هكذا. كان هذا مفهوماً للجميع من مصدر ما، فهنَّ أيضاً انحدرن من أزمان الكهوف المظلمة، فكل واحدة كانت سليلة مثل هذا الصيد والقنص. الأطفال يفهمون الحياة ويقبلون قواعدها البسيطة بسهولة. هم على استعداد لحياة الكهوف. إنهم يفسدون بسرعة رهيبة، عندما يعودون مرة أخرى إلى الطريقة القديمة للحياة، حيث الجلوس متكدسين أمام

الموقد، ووجبات الطعام الجماعية التي يحصل الجميع فيها على الغذاء بشكل متساوٍ، بينما القياديون يحصلون على وجبات طعام أكثر والضعفاء والذين يأتون في الأخير يحصلون على كميات أقل أو قد لا يحصلون على شيء البتة. والتي فيها الإناث مشاعات. من دون فراش ومن دون أوانٍ، وحيث الأكل بالأيدي، والنوم على ما تقف عليه، وحيث التدخين معاً، والشراب أيضاً، والعواء معاً، وحيث لا تشمئز من الآخرين، ومن لعابهم وإفرازاتهم ودمهم، وحيث الجميع يرتدون الملابس نفسها.

في ذلك المساء بقيت جميع الفتيات صامتات، ولم تحدثني إحداهنَّ بأيّ شيء. كما لو أنَّ ثمة شيئاً مهمّاً وضرورياً للجميع قد حدث، وخيم العدل، فالجميع راضون.

إنهم لا يعرفون حتى الآن أنني تمكنت من الهرب.

ماذا كان سيحدث لو أن الحلقة أُغلِقت على الصبية، ولو أنّها بقيت راقدة هناك تحت الأشجار؟ إذن لاحتشدوا. ولأطالوا النظر فيها بنهمٍ. ولكانوا على استعداد لأن يلتهموا الجثة بأعينهم.

ماذا كان سيحدث لو أنها عادت حيةً، ولكن مسحوقة وشعثاء مُفترَسَةً ومحطمة؟ لوصف مثل هذه الحالات، توجد كلمة «مُنكَّس». الجميع يعرفون منذ العصور القديمة أنَّ المُنكَّس يمكن استغلاله كما يحلو للمرء، إذ يجوز تقريعه والاستهزاء به والسخرية منه، وأيّ أحد من حوله يمكن أن يجبره على فعل ما يريد.

وهذا كان يسمى في تلك الأيام «الإلحاح في إزعاج المقابل».

كان في المدينة، في الفناء ثمة أطفال ممن أُلِحَّ في إزعاجهم، وكأنَّ لجميع الأطفال المحيطين بهم الحق بالقيام بفعلهم ذلك.

دائماً ما كانوا يقطعون عليهم الطريق ويحصرونهم ويضغطونهم على الحائط بمرأى من الجميع، ويلاحقونهم أين ما ذهبوا مثنى وثُلاث. وعندما يرونهم كانوا يضحكون ويهرعون بسرور لمقابلتهم.

كانت ملامح المُلاحَقين تبدو كملامح مخلوق حقير صبور غير مبالٍ ويبتسم ابتسامة بلهاء غريبة.

ما كان يقدر على تخليصهم إلّا الكبار البالغون، ولكن أين يمكن أن تجدهم طوال الوقت، وفي جميع الطرق؟

وفي اليوم التالي كان كل شيء كما كان من قبل، لا أسوأ ولا أفضل. فردة القالوش عثرتُ عليها في الطريق إلى المقصف، ووضعتُ فيه الحذاء القذر وانطلقتُ بأقصى سرعة، في محاولة مني لعدم التأخر. وتصرف الأولاد كالمعتاد، من دون أن يفوتوا فرصة صفعي على قفاي أو جرِّ جديلتي أو مدّ الرجل من أجل إسقاطي.

الفتيات كُنَّ يراقبنني عن كثب لكنهنَّ لم يكتشفن أيّ شيء.

فلو أنَّ الأولاد ضحكوا وقهقهوا، ولو أنهم لاقوني على غير العادة، لاتضح كل شيء وبان.

لكن الفتيات وفق أَمارات معينة أدركن أنني قد أفلتُّ.

كل شيء عاد إلى مكانه. شخص واحد فقط في المصحة بأكملها شعر بكل ما حدث لي، إذ نُقِل إليه ذلك بطريقة ما على ما يبدو بشكل غير مباشر. كان ذلك الولد الأكثر تهذيباً بين الأطفال، والأكثر استعداداً وتسلحاً للصيد – إنه توليك.

صار توليك يعوق طريقي، إضافة إلى ذلك لم يأتِ وحده، فقد كان معه دائماً صديقان أو ثلاثة.

جعل يسد الطريق أمامي، وعيناه السوداوان اللامعتان المشعتان تومضان على وجهي وعلى جسدي وعلى ساقيَّ. كان يبتسم بحماقة، وحراسه الشخصيون الواقفون دائماً على مسافة بعيدة، يحرسون المنطقة في وجوم. إنهم في شغل عن الابتسامة. فليس هم من يقتنص الفريسة.

إنّ المصابيح الكشافة تفتش في سماء الليل باحثة عن انتهاك.

دائماً ما أخرج سالمةً، فقد تعلمت الإفادة من الكبار البالغين ومن أيّ ثغرة.

قلبي ينبض بشكل رهيب عندما كنتُ أعثر على كمين أمامي.
لم يكن هذا ما يسمى بـ«إنه يلاحقها».
هذا كان شيئاً آخر.

ما استطاعت الصبيات أن يفهمن أيّ شيء فتجاهلن الأمر وجعلن يهززن أكتافهن غير مكترثات.

أنا وحدي مَن عرف أن توليك كان يلاحقني، منوهاً إلى فضيحة لي.

على الرغم من أن الأولاد في الصف كفّوا عن إزعاج الصبية تدريجيّاً، إلّا أنها بدت مدافعة عن نفسها بعزيمة قوية وبلا مهادنة. فقد تبيّن أن الصبية تتمتع بموهبة الصراخ بشكل مرعب، وأنَّ لديها صوتاً قويّاً غير عادي، من أقل مستوى للعويل إلى أعلى مستوى من الصياح. وأنَّ هذه الموهبة تتجلى في الوقت المناسب.

كانت هذه، على ما يبدو، موهبة القطة التي، قبل الدخول في عراك، تقيس قوة صراخها.

كنت مهتاجة للغاية ومتوترة، ومع ذلك حصلت بأيّ ثمن على درجات كاملة في جميع المواد الدراسية.

فهنا في الواقع ليس مخيماً صيفيّاً للطلائع، إنها مدرسة في الغابة تُقاس فيها مهارات الطفل ليس بقدرته على النهوض بسرعة والوصول في الوقت المناسب فحسب.

درجة الامتياز لا يمكن كسرها بضربة، وليس من السهل السخرية من درجة الامتياز، ولا يقدر المرء على الاستهزاء بالإنشاء، الذي كانت تقرؤه المعلمة بوصفه نموذجاً للكتابة الصحيحة، أثناء غياب كاتبه.

أما درجات الرسوب، لا سيما في الرياضيات، فتؤدي إلى البصاق على الأرض وإلى الهيجان والتمرد وإلى القيام بجولات خارج المدرسة، والخوف من الامتحان يؤدي إلى التمرد، وعدم القدرة على فهم الكسور – يؤدي إلى السجن.

في ظروف طفولتها في موسكو، في تلك الطوابير على كرسي في

مطعم الحمية (لأن أمها تقضي طوال الوقت في العمل، اشترت لها كوبونات وجبات طعام)، وفي الشقة المشتركة ذات المطبخ المشترك لم تكن الصبية بحاجة إلى درجات الامتياز، لأنها محاطة برعاية أمها الحنون وحمايتها.

أما هنا، في ظل الوحدة، حيث تعيش وحدها وسط الغرباء الذين يجمعهم السكن الداخلي في المدرسة، فقد كانت الصبية تحمي نفسها بنفسها من خلال كتابة إنشاء عن الخريف. الإنشاء كأنه هذيان حُمّى، فقد كدَّسَتْ الوصف على الوصف، الكريستال على القرمز، والذهب على الشلالات المتساقطة، والفيروز على الزخرفة، والبلور على المرجان، ومعلمة اللغة الروسية المندهشة، بل وحتى المنذهلة، الجميلة التي ترتدي مشدّاً مُقرقِعاً من الجلد، المريضة بسل العظام، أعطت إنشائي لجميع المعلمين كي يقرؤوه ثم قرأتْه بصوت عالٍ في الفصل.

نعم، في هذا الفصل الذي كاد أن يدوسني ويسحقني.

علاوة على ذلك فقد كتبتُ أشعاراً، بمناسبة يوم الدستور في النشرة الجدارية. لم تكن، بطبيعة الحال، من أشعار النوع السائد في هذه الأيام التي يمكن الضحك منها والاستهزاء بها والتي يمزقها أحد الضعفاء بكل عنف وضراوة كاندفاع عاصف لمرض. لقد كتبت أشعاراً من النوع الذي لا يمكن أن يكون عرضة للسخرية. إنه شِعرٌ نلتُ بفضله احترام الجميع. نحن الشعب السوفياتي، اليوم نحن الأقوى – وإننا اليوم نقف من أجل السلام في جميع أنحاء العالم. ثلاثة أشْطُرٍ.

– هل كتبتِها أنتِ بنفسك؟ – سألت المعلمة الجميلة وهي تقرقع بمشدها وتبتسم.

سقطت شمس الشتاء المنخفضة على النافذة الكبيرة جاعلةً حول رأسها المعتم الملفوف بضفائر دائرةً مشرقة، وهالة على شعرها المجعد.

ولذلك فإنني أقف بثبات على هذا الطريق، حيث لا يمكن لأحد أن يقطع عليَّ دربي. أرسلت لي أمي حذاءً شتويّاً من اللباد وقالوشاً.

في الليل كنت أخرج إلى المراحيض المضاءة بشكل ساطع، وأكمل مراجعة دروسي وأنا واقفة عند عتبة النافذة، وأحلّ المسائل وأحفظ القواعد (لا سيما القواعد الإملائية). وعندما يسمعني الصبيان والصبيات أكرر القواعد يضحكون مني، دعهم يضحكون.

غنّيت بصوتي القوي الطري، وبدأت أغني في جوقة المدرسة. واختُرْتُ للرقص مع الفتيات أيضاً لتأدية رقصة «المولدوفية» الدائرية حيث نقفز وندور ونندفع إلى الأمام بأيدينا أزواجاً.

المصحة أكملت استعداداتها للاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة.

بعد رأس السنة الجديدة سُمِح لنا بالذهاب إلى منازلنا، إنها النهاية. ولم أعد أرى أبداً معذبي، معبودي توليك.

توليك، يا توليك، كنت أهذي بذكره، إنَّ اسمك مثل الحليب الدافئ الحلو.

عيناك كأنهما نجمتان.

والنمش على وجهك كأنه نجوم.

صوتك مثل الكريستال.

يُشرق وجهك عليَّ، وخصلات شعرك الأسود، ونظرة عينيك الوقحة الواهنة.

كان يلاحقني بالضبط كل مرة في الزاوية، ويتفوّه بصفاقة وبوضوح ببعض الكلمات السوقية السمجة، وفوق هذا كان يضحك. وإضافة إلى ذلك كان أقصر مني بكثير. لكنه قوي البنية ومستقيم كالسهم ورأسه شامخ إلى الأعلى.

لا الطفل السمين كيوبيد، ولا أبولو الأنثوي - بل الصبي المسلول المتوتر والمنحني. المسدد على هدفه بدقة. العارف لحقوقه.

كنت أختبئ منه. وألتقي به في كل مكان كالهاجس. أشتاق إليه، وعندما أراه، أشعر بوخزة في صدري، وكأنها صادرة من ضربة ريح.

لقد لاحظ الجميعُ ذلك منذ زمن طويل، ولم يتفاجؤوا حينما عثروا على هذا الثنائي الغريب، الصبية الطويلة ملتصقة على الجدار، والصبي القصير، الذي كان واقفاً ومستنداً بيديه على الجدار ذلك نفسه بجانب الصبية بالضبط، وشيء ما يتكرر باستمالة وهدوء.

خُيِّل إليَّ أن الصبيات كلهن يعشقن توليك.

فقُصرُ قامته علاوة على ذلك أعطاه امتيازات إضافية، لأن خدَمه والتابعين له كانوا أطول منه، أي حاشيته كلها أطول منه.

كان يسير في وسطهم مثل الغور، مثل الفجوة. كالفراغ، ينشق الجميع فيسير هو وحده في هذا الفضاء.

أحلامي كلها مليئة بوجهه.

عندما بدأت تلك الاستعدادات للاحتفال بالعيد، بدت الفتاة كالمحمومة، إذ كانوا يتدربون على أداء هذه أو تلك من الأغاني والرقصات، لأن الموعد الأخير 28 ديسمبر (كانون الأول) اقترب جدّاً.

وفي النهاية، وجدت الصبية مكاناً لتبكي فيه - في غرفة تبديل الملابس، بعد أن حشرت نفسها في معطف مستعار.

لقد عرفتُ أنني لن أرى توليك مرة أخرى في حياتي.

إنها صبية في الثانية عشرة من عمرها ولديها حبتان من ثمار عنب الثعلب في صدرها. تلميذة متميزة ومظهرها الخارجي على ما يرام، لديها حذاء شتوي من اللباد وقالوش، ولديها مشط أيضاً أرسلته أمها، وأشرطة ومشابك. وفي الوقت نفسه تبكي مسبقاً على حياتها المستقبلية، التي ستمضي كلها من دون معبودها توليك.

ارتدت الصبية ملابسها وانتعلت حذاءها الجديد مع القالوش (الجرموق)، وتسكعتْ خارجة من المهجع إلى المتنزه المكسوّ بالثلج، على الطريق الجليدي في النهار المشمس للقاء والدتها - إذ إنَّ هذا اليوم هو يوم المغادرة، فالعيد قد انتهى.

نظرت الصبية إلى الخلف صوب القلعة السحرية حيث ساد مُلْك توليك في الساعات الأخيرة، وبكت تحت السماء الفيروزية الشاحبة وسط زخرفة الشتاء، تحت مساقط بلورات الثلج النازل من الأشجار كالكريستال، فالريح هبت جليدية وجمَّدت كل شيء، بما في ذلك دموعها. ولمع الثلج تحت قبة السماء كأنه فصوص من الماس.

لقد حان عيد رأس السنة الجديدة، وغنيتُ أمام الجوقة كمغنٍّ أو عازف منفرد، ثم رقصتُ رقصة «المولدوفية» الغجرية الوحشية وأنا أرتدي تنورة مرقشة وعقداً من الخرز، وأضربُ على الأرض بخُفٍّ وجوارب بيض مع صديقتي تلك نفسها، ونحن نسرع ونلوّح بأيدينا في دوامة من الموسيقى وسط صالة الرقص. كل شيء من أجلكَ أنتَ وحدك.

الحق يقال إن توليك أيضاً غنَّى على إيقاع البيانو أغنية «الوطن يسمع... الوطن يعرف... كيف يحلّق أبناؤه فوق السُّحُب»، وتبين أنه يمتلك صوتاً رخيماً وعالياً وقويّاً.

لم يكن الأمر هنا من أجل السخرية، إذ حاول أن يؤدي الغناء بشكل جيد. وكان قلقاً. وقد أبدى ضعفاً، مثل أيّ فنان متردد. استقبله الجمهور بطريقة غريبة، وصفق له في دهشة. لا يمكن لزعيم مثله أن يهتم للتصفيق!

ثم بعد ذلك كانت مأدبة عشاء، والأهم من ذلك، الرقص. أدّينا الرقصة الهنغارية ورقصة باديكاتر ورقصة باديسبال (مع الصبية ناديا)، ورقصة بادياتينير، وتوليك واقف في الحشد، وقد عاد إلى وعيه. أخذ اللعوب يضحك مع أصحابه الدائمين. إنه يضحك مني.

أُعلِنَ عن رقصة السيدات. فتزحزحت من مكاني وتوجهتُ إليه.

كانت تلك رقصة باديكاتر، رقصة المينويت الكلاسيكية القديمة المعلقة بحركة القرفصة.

لم أرَ وجهه.

مسك أحدنا الآخر من يده بأصابعٍ متجمدة، وأدّينا الرقصة كلها متوترين كالخشب، ونحن نقرفص على الأرض، وكان يديرني بحركة يده المرفوعة وهو يقف بخفة على رؤوس أصابع قدميه.

كان ذلك الوقت بداية الخمسينيات، الذي جرى فيه تعليم الأطفال الرقصات الرزينة لمدرسة سمولينسكي العليا للفتيات النبيلات.

تسمَّر توليك الرزين في مكانه، ولم يضحك، إذ كان في شغل عن الهزل، فقد ذهبت الأمور أبعد من مداها، وتأكدت سخرياته كلها. لم يكن بمقدوره أن يُخفي شيئاً عني. فبكيت، وسال المخاط من أنفي.

احترمني توليك، وقدَّر حالتي، وحتى إنه شيَّعني إلى أحد الأعمدة، ثم عاد إلى مكانه.

ذهبت إلى المهجع وبكيت قبل أن تأتي الفتيات.

انعطفت علاقاتنا أنا وتوليك في مرحلة جديدة، مكشوفة لم يعد فيها قادراً أن يعرف ما يجب عليه القيام به. إنها مرحلة تختلف عن تلك المرحلة التي كان يقف فيها بسهولة وببساطة أمامي، ويعصرني على الجدار، ويكرر باستخفاف: «حسناً، ماذا بحق الجحيم، هل إني عاشق؟ حسناً، ماذا بحق الجحيم، هل إني عاشق؟».

وصلت أمي في وقت متأخر، ومشيتُ معها تحت السماء الداكنة على الطريق الثلجي الأبيض إلى المحطة وأنا أحمل الحقيبة، وقد رافقت أضواء نوافذ المهجع مسيرنا البائس. أمي أخذتني آخر الجميع كما هي عادتها دائماً. فقد غادر الجميع بالفعل. ولم أعرف كيف أخذ توليكَ أهلُه ومتى.

لم أرَ توليك بعد ذلك مطلقاً، لكنني سمعت صوته الجميل في وقت لاحق.

لقد بدأ يتصل بي في موسكو.

كانت تدعوني إلى الهاتف يولينكا التي تسكن في الغرفة المجاورة لغرفتنا، وهي ابنة جدي من زواجه الثاني، طالبة في معهد السينما ورسامة.

- اتصل بكِ أحد الشباب، - قالت، وهي تحملق بعينيها كالمعتاد.

- أيّ شاب، ماذا تقولين، - تمتمتُ، وأنا أسير إلى الممر. - ألو!

- أنا توليك، أتكلم، هل عرفتني؟ أنشد صوت قويّ كالحديد - مرحباً.

- آه، مرحباً، لينكا، - قلت بصورة معبرة، وأنا أنظر إلى يولينكا. ودخلت أمي أيضاً إلى الممر. فقلتُ لأمي: - إنها لينكا ميتيايفا.

وفتح العم ميشا شيلنغ باب غرفته، وهو طبيب الأشعة في مستوصف الكي. جي. بي. (لجنة أمن الدولة)، وأطل بأنفه ليستطلع أمر تجمع الناس. لم يفهم شيئاً، لكنه ترك الباب مفتوحاً.

وكأنهم جميعاً ينتظرون أن أنتهي من شَغل الهاتف.

وحتى إنَّ عمي المحبوب ميشا فرجَ ستارته السوداء، وكأنه في غرفة الأشعة السينية، ووقف بملابسه الداخلية، الزرقاء الدافئة الخاصة بسلاح الفرسان، بين الستائر مثل أمير يرتدي عباءة.

- هذا توليك يتكلم، - صدح صوت خشن.

- مرحباً، مرحباً، - أجبتُ أنا.

لقد سحبتْ سماعة الهاتف هذه المصنوعة من المطاط المُصَلَّد الأسود الجميعَ إلى الممر وكأنها تحتوي على مغناطيس. إذ خرجت عائلة آل كالينوفسكي - ستاركوفسكي، ومن ثم زوجة جدي الثانية، وكذلك جدي نفسه الذي كان يدخن سجائر «بيلومور» في السرير، والعمة كاتيا التي تعمل وقّاداً (لمرجل التدفئة المركزية).

- ماذا، يا لينكا؟ لا، يا لينكا. لا أستطيع. لا يمكنني ذلك، - تمتمتُ وأنا مشوشة. وقلتُ لأمي وأنا أضع السماعة: - إنهم ذاهبون الى السينما.

- إنها الأخبار الآن! الوقت متأخر، لقد فات الأوان! - ردّت أمي بِدويٍّ، وكان العم ميشا ويولينكا ينتظران شيئاً ما.

تحدثتُ أمام أقاربي وجيراني مع أكبر سرّ في حياتي!

- وما الداعي إلى ذلك، يا لينكا - سألتُ في إحدى المرات، لأن توليك دعاني بصوته القوي العالي للذهاب إلى السينما.

كاد أن يُغمى عليَّ من الضعف.

- يا لينكا، لماذا - قلت، وأنا أتحطَّم ذهنياً.

إنَّ ذلك الشخص الذي تركني إلى الأبد، وذلك العالم المليء بالأحلام والزخارف النحاسية ومساقط بلورات الثلج النازل، عالم السعادة والمآثر والخَلاصات الرائعة والحب الكبير - ذلك العالم لا يمكن أن يعيش في ظروف موسكو، في شقة مشتركة، وسط الجيران، وفي غرفتنا، المليئة بخزانات الكتب، التي اختبأ فيها البق، ولا يمكن النوم فيها إلّا على الأرض تحت الطاولة.

البلور والفيروز، وأنشودة الوطنُ يسمعُ، ورقصة باديكاتر، وبكائي، والأصابع المتجمدة - كل ذلك ذهب وتلاشى، ظل كل شيء هناك، في الجنة، الأمر هنا مختلف. هنا أنا تلميذة الصف الخامس التي تعاني من التهاب الأنف المزمن (المخاط) وترتدي كل يوم الجوارب البيض الممزقة نفسها.

إنَّ توليك ملاك وأمير صغير لا يمكنه أن يمكث طويلاً في البرد وفي الظلام في كابينة الهاتف العمومي عند دار السينما القذرة.

لكن روحي كلها كانت عليلة وتتألم، فقد تكلم معي حبيبي الذي ضاع منّي إلى الأبد.

سعى توليك إلى معرفة رقم هاتفي، وها هو الآن يدعوني بنفسه إلى الرقص، ولا أعرف أيّ رقصة يقصد.

لم أستطع أن أصدق سعادتي، فأنا ما عرفت يوماً معنى السعادة، وجعلتُ أكرر على نحو مثير للملل أنواع الهذر والهراء على مسامع مَنْ أصغى إليَّ بانتباه: أمي ويولنكا والعم ميشا.

لقد فهموا كل شيء منذ أمد طويل، وقد نظروا باهتمام إلى حكايتي الثورية المُقاوِمة.

- كلا، يا لينكا، لا أستطيع. أمي لن تسمح لي بالخروج، أليس كذلك، يا ماما؟

أومأت ماما، وأطرقت برأسها.

لم أثق بتوليك مطلقاً، وحسناً فعلتُ، فقد سمعته يقول لشخص وهو مختنق «ألا تكفّ عن هذا!» وأطلق أحدهم ضحكة مكتومة، بفظاظة وعجَلة.

استحكمت حلقة الوجوه المتوترة المبتسمة بغباء من حولي. بيد أنّي كنت بعيدة عنهم.

- الآن الجيران بحاجة للهاتف، - قلت بلامبالاة (لكن في الحلق غصة)، ووضعت سماعة الهاتف بعد أن قلتُ بأدب، «إلى اللقاء يا لينكا».

اتصل توليك بعد ذلك عدة مرات، ودعاني للذهاب إلى السينما وإلى حلبة التزلج، وظللت أتمتم «لا داعي لهذا، يا لينكا».

- لا داعي، لا داعي، - ردَّ الصبي الوقح توليك عليَّ، وهو يقهقه.

واضح أن توليك العبقري والصبي المعجزة، استغل حبّاً تعيساً لشخص آخر بلا مقابل، وخمّن كيف يستفيد من القضية - لكن حلقة الأشخاص الذين يبتسمون ابتسامة حيوانية، وحلقة الأصابع المستعدة لأن تُجهِز على الصبية وتخنقها لم تُطْبِق عليها، بل بقيت هناك، في الغابة، هناك، في مملكة حبات عنب الثعلب غير الناضجة المسحورة.

اللُقطة

عَثر عليَّ في الخريف من 1961 في أرض كازاخستان البِكر يوري كونستنتينوفيتش آردي وفاسيا أنانتشينكو مراسلا برنامج «آخر الأخبار» في إذاعة عموم الاتحاد السوفياتي.

وهكذا صارا أحياناً فيما بعد يدعواني «اللقطة».

بتعبير أدق، وقعت القصة كلها في استوديو إذاعة بتروبافلوفسك في شمال كازاخستان.

كان الاثنان هناك، في بتروبافلوفسك، في مأمورية، وقد ذهبتُ أنا إلى هناك ليوم وليلة من مركز ناحية بولايفو النائية، لكي آخذ كليشيهات من مطبعة المحافظة (التقنية القديمة التي تُعمل بها الصور الفوتوغرافية لهيئات الطباعة). إذ أصدرتُ في بلدة بولايفو «الناحية» - وهو عدد من صحيفة، مكرس لعمل فريق البناء القادم من جامعة موسكو الحكومية إلى الأرض البكر، في هذه المنطقة من محافظة شمال كازاخستان.

حلَّ سبتمبر (أيلول). وقد غادر جميع الطلاب في فريق العمل إلى موسكو وهم يغنون ويحملون معهم ما جمعوه من المال والأرزاق الجافة، بعد أن نحفت أجسادهم واسودَّت بشرتهم وفُتِلَت عضلاتهم، الجميع بلا استثناء يرتدون قمصاناً مخططة من تلك التي يرتديها البحارة وسراويل من قماش كتاني سميك (برعاية من الأسطول زُوِّدوا ببدلات مستعملة). بقيَتْ في ناحية بولايفسكي جدران صومعة الحبوب ذات الحمولة الكبيرة التي شيدتها الأيادي البيض للطلاب (المبنية من كتل

الحجر الطبيعي)، والمنازل المبنية من اللَّبِن وحظائر الأغنام، - جاء بعد ذلك العمال الأرمن الذين يقومون بأعمال إضافية ليكملوا بناءها «عمل التشطيبات». (لا أعلم إنْ كان بالفعل قد أُنجِزَ العمل أم أنَّ كل شيء ذهب وتغطى بطبقات عميقة من الثلج، عندما انتهت الحملة لتعويد الطلاب على الحياة البسيطة للسجناء).

وبقيتُ أنا في الأراضي البكر - أعمل في إصدار الصحيفة عن فريق البناء الجامعي، التي كتبتُ موضوعاتها كلها تحت أسماء مختلفة.

وفجأة، احتاج مراسلٌ بعيدٌ للإذاعة الكازاخستانية، بعد تأخره، لتقديم بعض المواد ملحقاً عن فريقنا للبناء. فاتصل هاتفياً باللجنة في ناحية بولايفسكي، حيث كنت جالسة وحدي في كآبة مع قيثارتي.

أوه، يا لليل في واحدة من محافظات كازاخستان! مكتب فارغ فيه سرير، وهاتف في الممر، ونباح الكلاب في كل مكان، وكآبة لا حدود لها، والرياح تهدر عبر أسطح المنازل، لا غير.

وإذا بالهاتف يرنّ! مَن هذا الذي يتصل في مثل هذا الوقت المتأخر؟

- ألو، يا صبية! أريد أن أتكلم مع أيّ شخص من فرقة الطلاب!

- لقد غادر الجميع.

- وأنتِ؟ من أنتِ؟

- أنا أعمل في إعداد جريدة حول الفريق هنا، وسأكملها عمّا قريب...

- أوه! أنتِ بالذات مَن أنا بحاجة إليه! هل يمكنكِ المجيء إليَّ في بتروبافلوفسك للتحدث إلى الإذاعة؟ للأسف، فاتني عمل ذلك، كنت في رحلة عمل، كم أردت أن أسجّل لقاءً، إذا جاز التعبير، في ظل الأغاني عند مشاعل النار التي يوقدها الشباب في الأمسيات.

- نعم، غداً سآتي إليكم في بتروبافلوفسك إلى المطبعة للحصول على كليشهات. ولديَّ، بالمناسبة، قيثارة.

ظلَّ صامتاً - من الواضح، أنه أُصيبَ بحالة من الذهول من هذه المصادفة:

- حسناً، هذا رائع! ولمَ لا! وستقضينَ الليلة معنا، ستُضيِّفُكِ زوجتي.

في اليوم التالي، كان يجب أن أحصلِ من مطبعة المحافظة على الكليشهات الأخيرة للصور، ومن ثم أُقدِّم إلى الطباعة كامل الطبعة وأُرافقها إلى موسكو.

انتشرت ذرات الثلج السميكة الرطبة على بيوت بلدة بولايفو ذات الطابق الواحد، وتموجت البرك الطويلة والعميقة كما في العاصفة... هبَّت ريح السهوب قوية جليدية حقيقية من رياح ما قبل فصل الشتاء. وصلتُ إلى محطة القطارات مع قيثارتي. كان لديَّ من الملابس الخارجية معطف مطاطي خفيف لونه أحمر داكن من صنعٍ صيني ومنديل للرأس كبير، يشبه منشفة برتقالية. تحته قميص بحارة مخطط. وفي الأسفل - سروال بحارة فضفاض وحذاء عسكري. شيء ما لا يمكن تصوره. كل شيء، باستثناء الزيّ البحري العسكري، كانت تشتريه لي أمي في أوقات مختلفة. لقد أزعجتني كثيراً وضايقتني. بكيت من هذه الملابس الجديدة، ولكن لم يكن باليد حيلة. ارتديتُها. وبهذا الشكل سافرتُ إلى عاصمة شمال كازاخستان، لمواجهة قدري.

* * *

وهكذا وجدتُ نفسي هناك، في الأرض البِكر.

في الربيع من ذلك العام، عندما اقترب أوان التخرج في الجامعة في قسم الصحافة، حاولت الحصول على وظيفة. ولكن لم أُقبل للعمل لا في صحيفة «الأسبوع» (التي سألتُ فيها زميلاً لي عيِّن هناك عن كيفية الحصول على الوظيفة، فغنّى وفتح درج المكتب الذي دوَّت فيه زجاجة كونياك فارغة وهي تتدحرج. لكني لم أفهم التلميح، ورفضتُ إعطاء الرشوة وخرجتُ وأنا أردد مع نفسي: «هل أنتِ بكامل قواكِ العقلية، أيتها العجوز، أيّ عمل تجدين هنا، أنا بالكاد...»)، ولا في صحيفة «التمساح» الساخرة (التي التحق للعمل فيها أحد الأولاد من صفنا، في قسم الرسائل، وهو كوليا موناخوف الذي أصبح فيما بعد مشهوراً من خلال نشر عبارات

من رسائل الناس تحت عنوان: «لا يمكنك تخيل ما يجب القيام به». ولم أُقبَل كذلك في قسم السخرية والفكاهة في الإذاعة - وحتى إن العاملين هناك ضحكوا على نحو محتشم، بعد أن تبادلوا النظرات بعضهم إلى بعض، وبصعوبة اندفعتُ إلى الداخل وأجبت عن سؤالهم حول نوع العمل الذي أريد أن أُؤديه لصالحهم، وليتهم لم يضحكوا بعد! وفي ذلك الوقت، كان فلاديمير فوينوفيتش وماريك روزوفسكي يعملان هناك!

لماذا حاولت أن أحصل على وظيفة في مثل هذه الصحف الغريبة - لأنني للتوّ دافعت عن بحث التخرج الإبداعي في موضوعة السخرية والهزل، الذي تناول المقالات الهجائية والقصص القصيرة الهزلية (وقد تعارك أثناء الدفاع عن هذا البحث اثنان من المدرسين - رئيس اللجنة قال: هذا ليس من الهزل، بينما صاحت إحدى المناقشات: إنه هزلي، ماذا تقول! واشتبكا حول تعليقاتي على رسالة موجهة إلى مجلة «التمساح». واستمر نزاعهما طويلاً ثم تصالحا بعد نقاش طويل، وفي الختام منحوني تقدير أربعة وهو ما يعادل جيد جدّاً وخرجت من المناقشة راضية ومسرورة).

ومع هذا لم أحصل على وظيفة.

وفي هذه اللحظة العصيبة من حياتي، سمعت أن الجامعة أرسلت فريق بناء إلى الأراضي البكر، في مكان ما من سهوب كازاخستان. فخطرت في بالي خطة ذكية: أن أذهب معهم إلى هناك، وهذه بشكل عام سفرة مجانية إلى نهاية العالم، طالما أنّه لا تزال ثمة فرصة للوصول إلى هناك!

بدت لي فكرة السفر هذه هي الحل لجميع مسائلي.

آنذاك كان الزمن يختلف. فمن الصعب - السفر إلى ما وراء الضباب ورائحة التايغا، إلى الجانب الآخر من جبال الأورال، على طريق اللصوص والقتلة، الذين في وقتهم سيقوا إلى المنفى والأشغال الشاقة على الطريق هذا نفسه باتجاه طريق مدينة فلاديمير العام (حالياً يسمى جادة إنتوزياستوف «المتحمسين» حسب ما قررت إدارة موسكو

تسمية أولئك الإخوة وفق روح العصر)، ومن ثم إلى المحيط الهادئ، ثلاث سنوات مشياً على الأقدام (كما وصفها تشيخوف في تقريره عن مأموريته المسماة «جزيرة سخالين»)، لكي تطأ خطاك على سفينة شحن في فلاديفوستوك ومن ثم العبور إلى الأشغال الشاقة، إلى تلك الجزيرة، إلى غولاغ ذلك الزمان... (إنَّ كتاب تشيخوف، أي تقريره العلمي عن رحلته عبر سيبيريا كلها إلى سخالين، ألَّفَه من دون أيّ عاطفة وقناعة، كتبه بشكل مملّ ومضجر، لكن هذا كان «الأرخبيل» الحقيقي الأول (الذي جاء على شاكلته كتاب سولجنيتسين «أرخبيل الغولاغ»)، وهناك بالذات طُبِّقَت الاشتراكية الحقيقية بحذافيرها من دون المُلكية الخاصة، والأمر هناك ليس أسوأ من رواية بلاتونوف «الحفرة» («حفرة الأساس»): كان المحكومون يحصلون على منزل وأرض وطالما أنَّ ذلك لم يكن «مُلكية» للدولة فإنهم يبيعون كل شيء، بما في ذلك لباس السجن، ويمشون متثاقلين لاستلام حصص الخبز والطعام كل يوم، أحياناً لمدة أربع ساعات ذهاباً وأربع ساعات إياباً، من دون طريق سالك، عبر تايغا جزيرة سخالين، إلى المطبخ. لم يزرعوا أيّ شيء أبداً، ولم يفعلوا شيئاً على الإطلاق. ينامون على الأرض العارية. النكتة الوحيدة عند تشيخوف في الكتاب كله – أنَّ الصيادين من السكان الأصليين يرتدون لباس السجناء المحكومين «من أجل التأنق»).

تجوال الكاتب هذا في روسيا لم يُلهمه في شيء...

استولت عليه، على ما يبدو، الكآبة وأضجره الإحساس الداخلي.

دفع الكتّاب الروس الكبار ثمن هذه الرحلات غالياً – فقد سُجِنَ الكاتب ألكساندر راديتشيف بتهمة التشهير بعد إحدى رحلاته من بطرسبورغ إلى موسكو التي فضح فيها نظام القنانة أيام القياصرة.

لم يُبدِ تشيخوف أيّ شفقة أو استنكار، وحسناً فعل.

والقليل من الناس مَن قرأ كتابه «جزيرة سخالين».

***

وتجدر الإشارة إلى أني وصلتُ إلى اللحظة الحاسمة، إلى نهاية دراستي الجامعية، إلى امتحان التخرج الأخير، منهكة تماماً. وهذا ما يحدث مع الطلاب. توقفت عن الدراسة. أكملتُ بحث التخرج حول موضوع «طبيعة الهزل»، بعد أن ثبتُّ إلى صوابي، في ليلة واحدة قبيل الموعد النهائي للتسليم، كان فيه اثنتا عشرة صفحة من الكلام النظري وخمس عشرة صفحة من الملاحظات من مجلة «التمساح». بشكل عام، خلال خمس سنوات من الدراسة، لم أتعلم شيئاً جديداً فحسب، بل حتى نسيت أيضاً كل ما قرأته في المدرسة. كان أعضاء هيئة التدريس في الكلية يدربوننا دائماً لنكون منظرين سياسيين في المستقبل، ويجبروننا على قراءة كتابات لينين التي لا نهاية لها حول الصحافة الحزبية، وكتبه حول مذهب نقد التجربة، ثم درسنا المادية الجدلية والمادية التاريخية وأساسيات الفلسفة الماركسية، ولسبب ما درسنا نظرية الصحافة الشيوعية (لا أعرف، ماذا يُقصَد بها؟)، بالإضافة إلى بعض المحاولات لتعلم الكتابة بشكل صحيح خالٍ من الأخطاء، ودروس تطبيقية على تنقيح النص، أي أن نضع في مكان الفراغ الحالة القواعدية الصحيحة (الرفع أو النصب أو الجر) أو أن نضع حرف الجر أو الجزم اللازم... مع أن لدينا في الفصل خبراء ممتازين قادمين من مناطق نائية ذات أعراق إثنية مختلفة، الذين ارتكبوا في الإملاء على صفحة واحدة 38 غلطة (هذا الرقم القياسي سجله طالب من باكو). وقد أصبحوا فيما بعد رؤساء تحرير للصحف في مناطقهم. بما في ذلك كان لدينا أيضاً اثنان من المنغوليين المتوانين، الذين لم يتمكنوا من كتابة محاضرة واحدة خلال خمس سنوات...

بيد أنَّ تعليم الإنسان على أن يعبِّر عن أفكاره بشكل صحيح يكاد يكون مستحيلاً. ثمَّ إنَّ جعل الأجنبي بارعاً وحاذقاً هذا نصف المشكلة، فهو يكتسب ذلك بالحفظ عن ظهر قلب. ولن تقع مسؤولية عليه. لكن الروس الأصلاء القادمين «من كالينينغراد» و«من تيراسبول» الذين لغتهم

مشوَّهة من الولادة بسبب البعد عن المركز، لا هي لغة القرية ولا لغة المدينة (وكما يقول المثل «جاء يتعلم لسان الغير فضيَّع لسانه») لم يتمكنوا من إتقان الكتابة بشكل صحيح في كليتنا! على الرغم من وجود أساتذة لامعين في الأسلوبية. لأن الشيء الرئيس كان هو الإخلاص لأفكار الحزب والتفاني فيها.

وهكذا لم يعدّوا منا محترفين، بل جهلة راسخين من الناحية العقائدية...

لا بدّ أن أقول إنَّ هذا كله حدث من دون أن ندرس الأدب الكلاسيكي العظيم، في الوقت نفسه!

وهنا جاء موعد الامتحان النهائي الموحد، وسأتخرج بعده في الجامعة. هذا الامتحان في مادة نظرية وممارسة الصحافة السوفياتية بالإضافة إلى الصحافة الشيوعية الأجنبية. الذي نسميه، نحن الطلاب، «الصحافة الحزبية السوفياتية».

يا إلهي! لم أستطع إجبار نفسي على الدراسة والتحضير لهذا الامتحان. ولكن في ليلة الامتحان، ذهبت، وأنا أتعثر بأذيالي، إلى مكتبة لينين لكي أقرأ شيئاً على أقل تقدير. ولو في الموسوعات. لم أكن أعرف أيّ شيء، لا اسماً ولا تاريخاً ولا أيّ شيء!

وقد ساق إليَّ سوء الحظ في طريقي صديقاً جيداً، إنه يوركا. كان يسير مع والدته في الزقاق نفسه بالذات، ولكن في الاتجاه المعاكس. أي بملاقاتي، أنا التي كنت أتسكع، مليئة بالشكوك حول وجود مصدر غير معروف للمعرفة عن الصحافة الشيوعية (فالأساتذة العجائز لم يقوموا بإعداد كتاب حول هذه المسألة).

– اليوم عيد ميلادي، مرحباً! – صاح يوركا بأعلى صوته، وتهلل وجه أمه، القصيرة، طبيبة الأشعة، بهجةً وأومأت برأسها. – هيا تعالي معنا؟

- حقاً، تعالي! - أومأت أمه. - هيا يا لوسينكا!

- حسناً، لنذهب، - قلت لهما.

وعدتُ إلى المنزل مع آخر مترو، هذا ما جرى.

ثم في الصباح، ذهبت إلى الامتحان النهائي الموحد بتأخير واضح. وكان زملاء الدراسة يكتظون عند الباب، وهم يكتبون في دفاتر ملاحظاتهم بعيون مملوءة بالتعب. لقد فات الأوان حتى على طلب شيء للقراءة. هم أنفسهم كانوا يتوسلون علناً لطلب الملاحظات الثمينة من الطالبات المتميزات. أما الطالبات المتميزات فقد جلسن منذ مدة طويلة في القاعة.

نظرت إلى هناك. يا للهول، نجاح باهر! اللجنة رائعة، برئاسة عميدنا ذي اليد الواحدة. والشاب زاسورسكي، مؤسس قسم الصحافة الشيوعية الأجنبية. وبعض الشيوخ والعجائز. سبعة أشخاص تقريباً.

وهنا دخلتُ على الفور. لم يكن لديَّ أيّ شيء أخسره. كما في الحلم، بكل هدوء أخذت ورقة الأسئلة. جلست، وتطلعت في الورقة. كلا! لا أعرف أيّ شيء عن الصحافة الشيوعية اليابانية! وكذلك نشأة الصحافة الحزبية البلشفية في سيبيريا وظهورها في حقبة الثورة لم تُثِر فيَّ أيّ مشاعر وأحاسيس. الجنرال كولتشاك؟ والجنرال فرانجيل؟ ما علاقتهما بالصحافة الحزبية؟ هذان الاسمان فقط، بالإضافة إلى اسمَي البطلين اللذين أُعدِما في فرن القاطرة (إما لازو؟ أو، على العكس من ذلك، شورس؟) جالت في رأسي الصغير المسكين. لكن الصحافة الحزبية؟ كلا، لا أعرف عنها شيئاً. وكيف تمكنتْ من تغطية كل هذه الأشياء الفظيعة؟

نهضتُ ومشيتُ إلى مكان متقدم أمام اللجنة. أعضاء اللجنة ما يزالون نشطين لم يتعبوا بعد. كان يجلس الأصلع ذو اليد الصناعية وذو العينين غير المتطابقتين تماماً، إنه عميدنا. كان قاسياً، كأنه بطل في أحد أفلام الرعب. يختلف بعض الأساتذة في كليتنا بشكل كبير عن بقية

الناس واشتهروا بمظهرهم الخارجي الخيالي. فأحد مدرّسي المادية الجدلية، كان ينهض على طول قامته، ويمدّ حاجبيه إلى حافة الطاولة تماماً، وينظر بهذا الشكل أحياناً، من دون أن يُرى من هناك. دخلنا ذات مرة أنا وصديقتي فيركا مسرعتين في قاعة فارغة، وبعد أن رفعت فيركا تنورتها جعلتْ تعدِّل الجورب - يا للرعب! فجأة وإذا بعينين عليهما نظارات مكبرة تتوهجان من على الطاولة مباشرة بنار العتاب والتوبيخ! فقد تبيَّنَ أنَّ المدرّس رفع رأسه ورأى كل شيء!

مُنِحنا كلانا درجة مستوفٍ في هذه المادة...

حسناً. وقفت في وضع حر أمام لجنة الامتحان الموحد. ثم قلتُ بنبرة سيئة (لا تخلو من التشتت):

- لكنني لا أعرف ما في ورقة الامتحان.

انتعشوا قليلاً وأخذوا يتحركون. يا لها من مغامرة! وعرضوا عليَّ بأدب أن أختار ورقة أخرى.

- وهذه الورقة أيضاً لا أعرف ما فيها. لا أعرف أيّ شيء على الإطلاق.

- حسناً، حسناً، - قال الأستاذ العجوز الجالس على اليمين بانزعاج، - ولكن كيف سمّى خروشيف الصحفيين؟ قولي، كيف؟

اتكأَت العجوز الجالسة في الوسط فجأة على كرسيها إلى الوراء، وبصورة غير محسوسة للجنة، بدأت تُلقِّنُني، وهي تحرك شفتيها. وأنّى لي ذلك! فقد كنت في شغل عن التفاصيل.

- لا أعرف، - قلتُ بغضب.

امتعضوا مني كثيراً. فقد ظهرتُ كمجرم متأصل في الإجرام، انفلت من عقاله. وبشكل عام، أخذت القضية تبدو وكأنها محكمة.

- أتباع الحزب! - أجاب بدلاً عنّي أحد الأساتذة الشيوخ بملامة مُرّة.

- آه، صحيح، - وكأني تذكرت شيئاً ما. بالطبع، كنت على دراية بهذه

العبارة. بشكل عام، عادة ما كانت تُطلق كلمة أتباع في أيام طفولتي في مجلة «التمساح» على مساعدي الجلادين. الجلاد المرتد تيتو وأتباعه.

- حسناً هكذا، - هزّ العجوز رأسه. وكأنه يريد أن يقول لماذا أنتِ هكذا.

ظلوا صامتين. لا أحد منهم يعرف كيف ومتى يقودني من رقبتي ويطردني إلى الخارج. استولى الرعب على القاعة. توترَ من خلفي أفاضل الفصل، الصفوف الأولى من الطلاب المتميزين.

وهنا فجأة قلت لنفسي، في خدعة قذرة واضحة:

- إنَّ هذا لا ينفعني.

حلَّ الصمت. لم يصدقوا آذانهم. تقول خريجة إنَّها لا تحتاج إلى المعرفة المكتسبة هنا! داخل أسوار الجامعة!

- ما الذي لا ينفعكِ؟ - طرح العجوز الجالس على اليمين سؤالاً إيحائيّاً.

- لا شيء يعجبني! صحافة الخارج كلها لا تنفعني!

عدَّل زاسورسكي جلسته واستقام، ثم قال:

- ماذا تعنين؟ كيف؟

كانت تلك قضيته في الحياة منذ شبابه! إنها ابتكاره هو العارف باللغات المتحمس!

- نعم، أنا ذاهبة إلى الأراضي البكر بعد ثلاثة أيام، - قلتُ بكل قوة الطبقة العاملة السليمة المعافاة، - لأشتغل في موقع بناء! يجب علينا دراسة الحياة! قبل أن نتعلم الكتابة!

قسم من اللجنة فكّرَ بشكل سيّئ. ماذا سيحدث الآن لو قمنا وأعطينا درجة رسوب لطالبة ستصبح عمّا قريب عاملة بناء! ومن الناحية الإيديولوجية، إنها حقّاً متماسكة! نعم، وحتى زاسورسكي أيضاً طيب! ما حاجة الطلاب الأغبياء بصحافته الأجنبية؟ ومن سيقرأ ذلك؟ وحتى إن كانت تلك الصحافة شيوعية، لكنها تصدر بلغات أخرى! ولا أحد يعرف

تلك اللغات! إنها خطوط يابانية وهندية غير واضحة! وما هو المفهوم فيها؟ ما هي إلّا وثيقة من غير قوة قانونية لا غير! نعم، لتكن شيوعية، ولكن الجحيم يعرف ما يُكتب فيها! وليس ثمة من يتحقق من أمرها!

على الأرجح، إنهم فكّروا – من الممكن أن يُعاقب الطالب المهمل، بأن يُطرد من الجامعة وأن يُرسل لمدة سنة لنفض دماغه في إحدى الصحف في موقع بناء- بيد أنَّ هذه الطالبة هي نفسها تريد الذهاب إلى هناك، وبكل فخر تسعى لذلك! ومع هذا هي تعلّمنا!

آنذاك لم أكن أفهم هذا على الإطلاق، لكني، على ما يبدو، تعلمتُ الأساليب الديماغوجية بدقة طوال خمس سنوات من الدراسة. ها أنا ذي أمتلك المبادئ الشيوعية! وأذهب إلى الأرض البكر، إلى موقع البناء! إلى الأدغال! ولن أبقى هنا عندكم في موسكو!

إنه عمل البروليتاريا من أجل تحقيق المبادئ الشيوعية، ومن أجل إظهار تفوق الطبقة العاملة على المثقفين الإنتليجينسيا الفاسدين. وقد يكون ذلك من خلال رسائل موجهة إلى اللجنة المركزية، كل شيء جائز. فهُمْ جميعاً طالما كتبوا الوشايات على بعضهم البعض.

ربما كانت هذه هي الطريقة الوحيدة الصحيحة للتحدث مع هؤلاء الناس.

ثم قمتُ على الفور وخرجتُ من القاعة بشكل مهيب، وقلبي ينبض بجبنٍ.

الطلاب الذين استرقوا السمع من خلال شق الباب، أفسحوا لي الطريق في رعب، وكأنهم أمام هرطقي. سرتُ في الفضاء الفارغ، وأنا أبتسم ابتسامة إجرامية ماكرة، بطريقة ما، ومشيتُ عبر الممر بأكمله واختبأت في مكان ما في الزاوية.

أخيراً، كل شيء انتهى بالنسبة لي.

ما الذي ينتظرني؟ سوف لن يعطوني الشهادة، وبدونها لن أجد عملاً في أيّ مكان، ولا حتى في أيّ صحيفة محلية، ولن نجد ما نقتات به، وبعد سنة يتوجب عليَّ على كل حال أن أؤدي هذا الامتحان النهائي الموحد نفسه مرة أخرى... فلتسقط الصحافة الشيوعية في اليابان.

بعد هُنَيْهة من الزمن، ركض أحدهم في الممر، ودعا الجميع إلى الاستماع لإعلان درجات التقييم.

مشيتُ مرة أخرى في الفراغ، وجلستُ في القاعة على حِدة.

أُعْلِنَتْ درجتي ناجحة في الامتحان بدرجة مقبول!

انفجرتُ ضاحكة من هول المفاجأة. بدت هذه الضحكة غريبة وكافرة في لحظة التخرج الجدية، بل المهيبة في الجامعة.

غضَّ أعضاء اللجنة بصرهم وجعلوا ينظرون بمرارة كل واحد في جهة، من جانبي، مثل أفعى ذات رؤوس متعددة، أفلت منها أرنب وصار على الجانب الآخر من النهر. كان من الواضح أنهم يتمنون في هذه اللحظة أنهم أعطوني درجة راسب التي أستحقها. ولكن ما العمل وقد قُضِي الأمرُ وسَبَقَ السَّيْفُ العَذَلَ!

* * *

بعد التخرج، كان لديَّ خمسة روبلات، ولقد سلَّمتها، عندما جئت بعد ثلاثة أيام في الصباح الموعود إلى الجامعة الواقعة على تلال لينين، إلى قائد أول مجموعة التقيتها في الحافلة ثمناً للطعام، وذهبتُ مع الأولاد إلى محطة السكك الحديدية الخاصة بالبضائع، وقفزت إلى عربة لنقل الماشية وجلستُ على مقعد خشبي وبدأت في تفعيل خطتي لحياتي اللاحقة. عزمتُ على الذهاب للعمل في أحد مواقع البناء في شمال كازاخستان مع الطلاب، وبعد ذلك، عندما يغادرون، أبقى في السهوب وأتنقل بهدوء من مدينة إلى أخرى، وأكتب للصحف المحلية، إلى أن أصل إلى المحيط الهادئ على امتداد الطريق الذي سار فيه تشيخوف.

وأعيش من المكافآت المالية التي أحصل عليها من الكتابة. وأدرس حياة الناس العاديين الحقيقيين! لسبب ما بدا لي هذا هو الأمر الأكثر أهمية.

وهكذا حقّاً غادرتُ كما وعدتُ. والتحقتُ بالفعل في موقع البناء بصفة عامل بسيط، حمّال. كنتُ أحمل الحجارة مثل المحكومين بالأشغال الشاقة، تحت أشعة الشمس الحارقة. أحمل نقالات مليئة يعجز عن حملها شخصان، في حرارة تبلغ الخمسين درجة، من دون اغتسال في حمام (مرتين خلال الشهرين)، بالمياه المالحة من البرميل مباشرة، ومن دون بريد ومراسلات، ولا أكل سوى المعكرونة البنية للفطور والغداء والعشاء كما هو الحال في بلدة من إيطاليا، مع فارق وحيد أن هذه الكتلة الملتصقة ما كان الطباخون في إيطاليا ليُتبِّلوها بقطع من شحم الضأن المغلي. معكرونة مثل هذا المطبخ لم تخطر على بالي حتى في الحلم!

بعد شهر بدأنا نصاب بالدمّل وساءت حالنا وأصابتنا بعض التقيحات، وحتى إننا نظمنا إضراباً، أي جلسنا متجهمين عند العنبر غير المكتمل بناءه الخاص بنا الذي يشبه الكولوسيوم الروماني (المدرج الفلافي) المدمر بالكامل، ولم نعمل. كان من الممكن تصنيف ذلك التصرف كجريمة اقتصادية، وطرد الجميع، الفصل كله، من الجامعة ومن الكومسومول - لكن مسؤولنا بيلينكي، وهو طالب دكتوراه في الرياضيات، لم يفكر في ذلك. لقد كان طارئاً على الإيديولوجية. وكان ببساطة شخصاً طيباً. وبدلاً من ذلك، أخذنا بالشاحنة إلى حمام المزرعة الحكومية (السوفخوز)، وأعطانا نقوداً لشراء المعجنات والكراميل (أعتقد أنَّ المال كان من مخصصات طالب الدكتوراه بيلينكي)، وكذلك تمكنا من شراء دفاتر وظروف تغليف، وعندما دخلنا إلى متجر القرطاسية تصورنا كأننا دخلنا إلى الجنة. ومباشرة بعد الحمام والقرطاسية، في اللحظة التي كنا فيها مستعدين للعودة، هطلت علينا أمطار غزيرة، واخضرَّت السهوب أمام أعيننا، وتحول الطريق على الفور إلى مستنقع عميق، فركبنا ونحن

مبللين، وملطخين بالأوحال إلى حدّ الحواجب بعد الاستحمام، ووقفنا في حوض الشاحنة، مبتهجين وننشد الأغاني.

بعد أسبوع من هذا النوع من الحياة، عَثر عليَّ في وضح النهار (مستلقيةً على الأرض خلف الموقد في الكرفان بسبب المرض) مسؤولو الفصيل المشترك الذين جاؤوا بالسيارة من مركز المنطقة (لقد كنت الصحفي الوحيد الحاصل على شهادة من جامعة موسكو في الإقليم، الذي اعتادوا آنذاك أن يصفوه مازحين، يعادل مساحة أراضي فرنسا ثلاث مرات). نظروا بأدب إلى الأرضية، حيث كنت مستلقية في الجوّ الخانق ودرجة حرارتي مرتفعة، وعرضوا عليَّ أن أغيِّر حالي ومصيري: وأذهب إلى بولايفو وأبدأ في إنشاء صحيفة عن فريق البناء في الجامعة. في البداية، حسبتُ ذلك خيانة، ثم بعد ذلك بيومين، عندما جاؤوا مرة أخرى، وافقتُ (على كل حال سوف ينتهي كل ذلك عن قريب) وبدأت أتعافى بسرعة.

لقد كانت حياة رائعة! حرية! مساحات مفتوحة! بدأت أنتقل من فصيل إلى فصيل آخر، أجريت مقابلات، وجمعت أغاني وحوادث مضحكة وحكايات مختلقة. الشيء الوحيد الذي لم أزره مرة واحدة هو معسكر كلية الصحافة. لسبب ما، كنتُ لا أطيق زملائي اللاحقين وأشعر بأنهم كالشوكة في حلقي.

تنقلتُ بواسطة العربات القليلة النادرة، وأحياناً كنت أستلقي على العشب الطويل في وسط السهوب، في انتظار شاحنة، تحت السماء العالية، في الفضاء الرنان. ليس ثمة شيء أجمل من السهوب. لا شيء على الإطلاق. حتى البحر أصغر منها، ويمكن أن يُقطَع بصورة أسرع. بقيت طوال حياتي أتذكر شروق الشمس في السهوب فوق البخار الأسود - الأرض الرطبة المحروثة ذات اللون الليلكي والأرجواني الكثيف، والشمس الكبيرة البرتقالية اللون التي تنشر أشعتها في الأفق وكأنها صفار بيضة عملاقة. ما إن تطلع الشمس، وقبل أن تضيء أيّ

شيء، بل «تنير» فقط - كانت شاحنة تتوقف على الطريق وتقفز منها النساء الحلابات إلى الأرض وهنَّ يرتدين الأردية البيض التي تبدو حمراً من انبلاج الضوء، ويسير القطيع وفي وسطه يركب الرعاة الخيول ويصرخون بشيء ما هزلي باللغة الألمانية، كما يصيح الرجال للنساء اللواتي يأتين لملاقاتهم، لم أفهم من ذلك إلّا العبارة الجريئة «دونر فيتر!» (Donner wetter) (يا إلهي، ليأخذنا الشيطان!) فتردّ عليهم الحلابات النظيفات تماماً، بل حتى الأنيقات والمورَّدات الخدود والمعافيات، ويقلن وهُنَّ يضحكن: «غوتِن مورغِن» (Guten Morgen) (صباح الخير!)- كان أولئك من ألمان الفولغا الذين نفتهم السلطات أيام ستالين إلى السهوب...

ولكن بعد ذلك، عندما غادر فريق البناء إلى موسكو، وحضَّرتُ نفسي لأنطلق في السير قُدماً في البلاد باتجاه المحيط الهادئ، قال لي أصحاب الخبرة والدراية في الجريدة المحلية إن الصحف المحلية لا تدفع مكافآت، والملاكات في كل الصحف مليئة بأعضاء الحزب، ولن يكون عندي من المال حتى ما أدفع به أجرة سرير في فندق أو نزل رخيص - إضافة إلى ذلك لن أجد مَن يرغب في نشر مقالاتي. هكذا قالوا لي. وفعلاً، لم يكن أولئك التافهون العاملون في الصحف مهتمين بالإبداع. قرأت الأرشيف الموجود هناك، كانت فيه أشياء كئيبة تثير الرعب. إذ نشر المحرّرون المحليون أخباراً مبهجة من الحقول، ومقابلات مع رؤساء مزارع الدولة، وأنواع الترهات ذات التوجه الإيديولوجي من وكالات الأخبار الحكومية، ومواد من وكالة تاس، وفضلاً عن ذلك، كما أفهم الآن، كانوا تحت ضغط قوي من اللجنة الإقليمية واللجنة المحلية للحزب، أي إنهم في الدرك الأسفل من قاع محيط الحزب تماماً. ولم يكن لهؤلاء الناس الصغار السكارى طوال الوقت من يحميهم. وكلما كان الشخص أبعد عن المركز، كانت المساحة الفارغة من حوله أكبر

والمكان الذي يعيش فيه أضيق. وكان مكشوفاً وظاهراً للعيان. ولديه مساحة أقل للحركة والمناورة. ويزيد الضغط عليه من الأعلى. لم أتمكن من البقاء والعيش هناك.

في ذلك الربيع، قبل تخرجي في الجامعة، كان لديَّ أمل آخر في العثور على وظيفة - من خلال علاقات والدي الغريب عني. كان أستاذاً للفلسفة (علم الأخلاق الماركسي- اللينيني، والإلحاد) وعضواً في هيئة تحرير مجلة «العلم والدين». بإمكانه أن يساعدني. بعد بحث طويل، عثرتُ على أبي بالضبط في فناء الكلية نفسها التي تعلمتُ فيها لمدة خمس سنوات - كان قسمه قسم تدريب معلمي العلوم الاجتماعية يقع مباشرة قبالة باب كلية الصحافة التي درستُ فيها. كان يعرف الكثير عني. ومن الواضح أنه سمع شائعات عن تصرفاتي غير المتوازنة إيديولوجياً.

عندما دخلت إلى مكتبه فزعَ وحتى إنه نهض من مكانه واقفاً. رأيته قبل ذلك مرة واحدة فقط في حياتي، قبل عشر سنوات. ومع ذلك، عرفنا بعضنا البعض على الفور: ربما، بفعل صوت رابطة الدم. وبعد أن هدأ من روعه، أخذني إلى مطعم عائم وأطعمني. وسألني في نهاية المطاف، بحذر كبير:

- ماذا تنوين أن تشتغلي؟

- على كل حال، - أجبته - سأذهب للعمل في الأراضي البكر، إلى موقع البناء بصفة عامل بناء بسيط.

- حسناً تفعلين! قال بنوع من الراحة. - هكذا يبدأ الترقي الصحيح بالوظيفة!

أشعلت خططي هذه حماسة كبيرة لديه. وأعطاني عشرة روبلات.

جئت إليه مرة أخرى، هكذا ببساطة لا من أجل شيء. ربما، اشتقت إليه. فقال لي:

- زوجتي لا تحبذ أن ألتقي بكِ. لكنني قلت لها: «أنتِ لا تعرفين، ربما، ستنفعنا».

وأخذني إلى مقصف الجامعة.

لم أرَ أبي الحكيم بشكل مدهش بعد ذلك مرة أخرى.

لكن كل شيء تبين بالضبط كما قال.

هذه هي خلفية مجيئي إلى مدينة بتروبافلوفسك.

* * *

وفي اليوم التالي، بعدما نزلت من القطار المحلي الذي كانت تجرّه قاطرة بخارية، جلستُ في دار إذاعة بيتروبافلوفو في الاستوديو خلف الميكروفون، في مكان دافئ ومنير، وجعلتُ أعيد سرد محتوى الجريدة التي كتبتها (كل مقالة كأنها رواية) وكذلك أنشدتُ أغاني فريق البناء على أنغام قيثارتي. أعتقد أنني غنيت لمدة ساعة على الأقل، بما في ذلك ألحان اللصوص من نوع «ها أنا ذا ذاهبٌ إلى الحانة»، والأغاني المفضلة في سهوب كازاخستان الفسيحة. وكان ما فعلته بالنسبة للإذاعة السوفياتية آنذاك، كما أفهمها الآن، تقليعة جديدة إلى حدّ الجنون!

عندما غادرت الاستوديو، وكنت أرتدي سترة مخططة وسروالَ بحارة أبيض، وكذلك حذاءً عسكريّاً، من المحتمل أن يكون منظري لا يليق بالإذاعة، بل حتى غريباً، إضافة إلى أنَّ بشرتي التي أحرقتها الشمس جعلتني أبدو كالخلاسية، وشعري المحروق تماماً الذي لونه كلون القش، وزيادة على ذلك أحمل في يدي قيثارة، - تقدم مني رجل كهل حيوي نشط في الأربعين من العمر مظهره يوحي بأنه من الإنتليجينسيا، الطبقة المثقفة، كأنه فرنسي، تحول إليَّ وقال بحنان:

- من أين أتيتِ، يا هذه؟

- من بولايفو.

- أين تقع؟

- إنها على بعد ستين كيلومتراً من هنا.

- رائع، مَن كان يتصور، - قال الكهل المتعلم المثقف. - كم هذا مثير للاهتمام. لقد استمعنا لكِ. أنا معلق برنامج «آخر الأخبار» كونستانتين أردي.

ومن زاوية بعيدة، أومأ برأسه رجل آخر يقرب عمره من الخامسة والثلاثين. بدا متعباً، قد أنهكه العمل. هكذا يبدو الناس في الصباح بعد ليلة سكر وشراب. ولأني قبل ذلك أكملتُ ممارسة تطبيقية في مدينة غوركي، في فريق صحيفة محلية جميع أفراده يُسرفون كثيراً في شراب الكحول، وكانوا يلمزون صحيفتهم «غوركايا برافدا» (الحقيقة المرة)، فأنا أعرف جيداً حالة مثل هؤلاء الناس من شكلهم.

- آه، إنه فاسيا أنانتشينكو، المراسل الصحفي، جئنا معاً. إنكِ أثرتِ إعجابنا.

حاول فاسيا الكهل أن يبتسم. كانت عيناه زرقاوين، والمنطقة المحيطة بالعينين تقريباً كلها بلون العينين نفسه. جلس واضعاً ساقاً على ساق، بعد أن نكّس رأسه وأطرقَ واجماً.

الفتيات دائماً ينظرن إلى المجاملات بعين الريبة. فنحن النساء، نعرفكم جيداً أيها الكهول! لهذا أخذت حذري.

واصل الرجل التباهي:

- إيه، الآن، لو كنتِ من سكان موسكو، لأخذتكِ للعمل في الإذاعة!

وهنا على الفور أجبته بصرامة:

- إني من سكان موسكو.

- حسناً، حسناً، - ارتبك الشيخ، - عندما تعودين إلى موسكو تعالي إليَّ.

بدا كأنه صار ملزماً بوعد قطعه من دون مبالاة.

ثم تبعت ذلك فترة صمت ثقيلة. وجعل فاسيا ينظر إلى الأرض، ويهزّ رأسه وحذاءه.

لكن يوري كونستانتينوفيتش أردي كان، بوجه عام، شخصاً بسيطاً وطيباً على نحو مدهش. وخرج من الموقف بشجاعة:

- هاكِ رقم الهاتف (أحدث جلبة، وهو يبحث عن قلم)، وزوجتي، ألكسندرا فلاديميروفنا إيلينا، هي مديرة قسم الأدب والثقافة في «آخر الأخبار».

أي ليس ثمة شيء من الغموض، هي زوجته!

حدَّق فاسيا أنانتشينكو من زاويته البعيدة، وكأنه صحا من سكره على حين غرة.

سنرى، قال ذلك بمظهره كله.

ربما كان يجب أن تستمر هذه القصة في إحدى الحانات المحلية، لكن مراسل الإذاعة أخذني على الفور إلى منزله، حيث أعدت زوجته البلميني (كريات من العجين مسلوقة في داخلها لحم مثروم)، حيثُ أمضيا الليلة كلها يشتكيان لي ساخرين من الحياة في مدينة بتروبافلوفسك التي أسمياها بِتروديروفسك (مدينة ثقب بيتر)!

كان الأطفال يركضون من حولنا فرحين، ثم أعطوني غرفة بسرير عليه فراشان من الريش! فألقيتُ بنفسي على هذا الترف، لكنني لم أفلح في النوم: فقد جاءت أسراب البق التي عششت سابقاً هنا، ربما، لتجرب شرب الدم الجديد الطازج. مساكين نحن، كيف كنا جميعاً نعيش آنذاك!

* * *

أكملتُ طباعة الجريدة الجامعية في بولايفو، وعُدت بنُسخ منها إلى موسكو، لم أقرر الذهاب إلى الإذاعة، وبقيت في المنزل لمدة شهر، ترافقني آهاتُ والدتي وشكواها من أننا لا يمكننا أن نعيش مما يجود به راتبها وحده، كانت تلك حقيقة صارخة، فالأمهات دائماً ما يتفوهن

بحقائق مريرة وهذا يزعج أبناءهنَّ، الذين لا يريدون الإذعان للظروف؛ ثم استجمعتُ قواي وعزمتُ أمري واتصلتُ بأردي على الرقم الذي كتبه لي على الورقة التي بقيت محفوظة وسالمة بأعجوبة.

- حسناً، أين أنتِ، - قال صوتُ امرأة عالٍ ومبحوح من أثر التدخين (اتضح أنها إيلينا نفسها). - إننا ننتظركِ من زمان بعيد... تعالي على الفور. حدّثني أردي عنكِ.

وصلتُ إلى الإذاعة وأنا في حالة من الذهول، فقيل لي أنْ أكتب نصّاً حول عودة فريق الطلاب (وكأن هذا حدث اليوم، وليس قبل شهرين)، قرأت إيلينا ما كتبت، ثم أومأتْ برأسها، فاقتادوني على الفور إلى الاستوديو، وفي أول الليل جلسنا أنا وأمي وجهاً لوجه قرب المذياع واستمعنا إلى تقريري، لم أفهم كلمة واحدة منه... يا لنبرات صوتي القصيرة الحادة! كان كلامي غير مفهوم وكأني ألوك شيئاً في فمي، هذا هو انطباعي عن حديثي في الإذاعة.

ومع ذلك، بدأت العمل هناك بصفة موظف خارج الملاك.

بعد شهرين، قبلتني إيلينا في العمل بصفة مراسل صحفي.

بالنسبة إلى الترقي في المهنة، كان والدي الحكيم على صواب.

أول رئيس لي، مديرة قسم الأدب والثقافة، ألكسندرا فلاديميروفنا إيلينا الرائعة، الصارمة المظهر كأنها الممثل والمغني الفرنسي جان غابين، التي تدخن سجائر «بيلومور»، كانت تدافع عني بصوت عالٍ أمام الإدارة وفي اجتماعات القسم، لكنها في الأحاديث الشخصية دائماً ما تقرعني. أُعدِمَ زوجها الأول في عام 1937، وقُتِلَ ابنها في الجبهة. فكانت تعاملنا جميعاً كأبنائها.

وكنتُ كذلك أحترم وأخشى بافيل أوسيبوفيتش، باشا مايزلين. إنه رئيس قسم الصناعة، على الرغم من كونه يهوديّاً وليس عضواً في الحزب، فالأمر في الإذاعة على العموم غير مفهوم ولا يمكن إدراك

كنهه، وزيادة على ذلك في الجبهة، عندما خرج من الحصار مع سربته، دفن جميع المستندات، بما في ذلك بطاقة الحزب، وكذلك الأنواط - ثم خرج بصعوبة من التطويق، ولكن معروفٌ ماذا كان «جماعتنا» يفعلون مع هكذا أشخاص. لقد اجتاز عقبات جهنم كلها وظل معانداً في عدم إبداء رغبته في العودة من جديد إلى أوساط الحزب، مهما عُرِضَ عليه، وعلى الرغم حتى من الوعود بالترقية العالية. ومع ذلك، بقي في منصب عالٍ: لم يكن له كفؤ ولا عديل في عمله.

كانت لدينا ورشة عمل، ورشة عمل كما في المصانع، سيل من تدفق الأخبار، من دون كلمات رفيعة، وهو أكثر شيء إثارة للشفقة في جميع وسائل الإعلام. وعلى الرغم من أننا نكذب هنا بلا خجل: على سبيل المثال، بدأت البذرة دائماً هنا «قبل ثلاثة أيام من نهاية العام الماضي». ونظراً لنقص المعلومات، عمد مراسلو الأقاليم إلى تكرار الموضوعات نفسها عدة مرات، فكان يتوجب علينا إعادة صياغتها والإضافة عليها وبثّها من جديد من دون أن يلاحظ المستمعون ذلك.

أحياناً كان مايزلين، الرجل الأصلع الجالس خلف مكتب فارغ تماماً ونظيف ولامع مثل رأسه (وهذا على الرغم من الكم الهائل من المعلومات التي تأتي من خلال نقطة الاستقبال هذه)، لأنه المدير، يدقق كثيراً في المعلومات التي أقدمها ويشطب، وهو يدندن مع نفسه بأغنية ما من الأغاني الشائعة، ويقول بحسرة:

- الشيء نفسه يتكرر، لو سلّموني إياكِ لمدة أربعة أشهر لعلّمتُكِ كيف تكتبين.

(ذهبتُ إلى صاحبتي إيلينا، وأنا أبكي في داخلي، لأحيطها علماً بأنهم سيأخذونني، ابتسمتْ قليلاً ابتسامة جان غابين المفعمة بالدخان، وأخذت نفَساً من سيجارتها وقالت بصوت أجش: «حسناً يفعلون».)

إنَّ أساتذتي جميعاً أناسٌ ذوو صلابة متأصلة ورباطة جأش حديدية. كنت معهم كطرف متدرب (من دون أن أترك، مع ذلك، الجهود الرامية

إلى تقويض معايير اللغة المعتمدة هناك). وبشكل عام، لم أصادف بعد ذلك أبداً مثل هذا الفريق الودود والمتماسك والمترابط بشكل جيد. كانوا يحمون بعضهم بعضاً، ولو سألهم أحد عن المتغيبين لقالوا: «حقيبته موجودة هنا، خرج لدقائق وسيعود، على الأرجح»، وفي أكثر الأحيان يجلسون في الأمسيات، ويستمعون إلى الحكايات المختلفة. ويفضلون على وجه الخصوص المعلق الرياضي فاديم سينيافسكي مؤسس المدرسة السوفياتية في التحقيقات الرياضية الصحفية. أتذكر قصته عن الأولمبياد في أستراليا، عندما خسر أحد الصحفيين من جماعتنا في القمار مبلغاً مساوياً للمخصصات اليومية للوفد السوفياتي بأكمله! عندها ذهب سينيافسكي مبعوثاً مفاوضاً، بعد أن أخذ معه اللاعبين الدوليين بصفة مترجمين، ودعا العالم للمبارزة والتحدي: من يشرب الكحول أكثر. المنتخب الوطني الروسي ضد المنتخب العالمي. أولمبياد كحولي. والرهان هو ما خسره الصحفي. والمشروبات الكحولية أيضاً على حساب الجانب الخاسر. توقف سينيافسكي لبرهة في هذا الموضع وقال:

- أنا أبدأ بالرقم واحد.

أومأ الجمهور برؤوسهم موافقين بحماسة. بالتأكيد، لَكُم الرهان!

- لقد تقدمتُ عليهم بالبيرة - وأمر بالاستعداد وأن يُملأ القدح. وكان يشرب من تلك العلب التي يستعملونها هم!

دوَّت ضحكة مكتومة.

- في شرب الفودكا، سقط رقمهم الأول مباشرة تحت الطاولة.

تظاهر الجمهور بالدهشة. ثم تبع ذلك ضحكُ تعاطفٍ معه. فالجميع يعرفون هذه الحكاية.

ثم بعد ذلك جرى حساب قائمة المشروبات. كانت قصيدة! البيرة والنبيذ العنابي الفرنسي المعتق والشمبانيا الفرنسية الراقية... إيه،

والويسكي من صنف «وايت هورس»... الفودكا جماعتنا قدموها. مساهمة من الجانب السوفياتي، من صنف «ستوليتشنايا». إيه، أنتم أنفسكم تعرفون...

- وبعد ذلك!..

هؤلاء جميعاً كانوا أساس المعلومات التي حصلنا عليها، إنهم شيوخنا.

وحتى مسؤولنا لم يكن بسيطاً. إنَّ مديرنا، فلاديمير تريغوبوف، الوسيم، المتزوج عدة مرات، ذا الشعر الشائب بالكامل، الأشعث، المحروق البشرة دائماً، الذي يصفر في الممرات مثل الطوربيد، فاء دال كما نسميه، - كان يتحدث بشكل متقطع، وينظر دائماً إلى الأعلى من رأس المحاور، ودائماً في عجلة من أمره، لم يتدخل في الأشياء الصغيرة، ولم يتعمق في التفاصيل كما يفعل الكثير من مديريَّ اللاحقين؛ ولكن تريغوبوف في إحدى اللحظات الرئيسة وضع حدّاً بشكل نهائي لحياته، ارتكب انتحاراً سياسيّاً، لعدم رغبته أن يكذب: ففي اجتماع الحزب المكرّس لدخول القوات إلى تشيكوسلوفاكيا، رفض التصويت بـ«نعم» لصالح القرار، ورفع يده «ضد». كان الوحيد الذي أحرق نفسه. ثم نجا بالتدريج. وكان يتجول في محطات القطارات، طويل القامة، وسيماً، ذكيّاً، مثقفاً، ذا أربطة متدلية دائماً، ويدعو الفتيات إلى رحلات هو ينظمها، ويقودهنَّ في جولات في موسكو. وذات مرة (انتشرت شائعات)، وعد إحداهنَّ بالحصول على سجادة... فاشتكت الفتاة من محل العمل. وفيما بعد ساءت أموره وأخذ تقريباً يتسوّل ويقال إنه جُنَّ وفقد عقله.

يمكن للرجال الأقوياء، القادة الملهمين، أن يتحملوا الكثير - بما في ذلك السجن ومعسكر الاعتقال، ولكنهم لا يطيقون البطالة...

اللجنة الإذاعية كلها، جميع فصائل الكذابين المحترفين هذه، الجميع كان يغلي في أيام حوادث «تشيكوسلوفاكيا» تلك لعام 1968. كنتُ أعمل آنذاك في مجلة الإذاعة. قبل الاجتماع، أمرتِ الإدارة بغلق الباب. وتحدثوا بفورة من العاطفة الجياشة. قال أحد الشيوعيين الشباب لدينا بحماسة إنه سيطلق النار على الجميع هناك. رفعنا أيدينا إلى الأعلى بالموافقة على دخول الجيش إلى هناك. لم أسمح لنفسي بنيل مثل ذلك الترف الذي تمتع به تريغوبوف، فلديَّ في العائلة شخصان معوقان، وكذلك طفل، وأنا المعيل الوحيد.

في الأوقات الصعبة لمثل هذه الاجتماعات، عندما تضطر لرفع يدك وتصوت بنعم، كنتُ أقول لنفسي: نحن استخبارات استطلاع في معسكر العدوّ. الشيء المضحك هو أنه في ذلك الوقت كان ثمة العديد من هؤلاء المخبرين، إذ تكاد البلاد كلها أن تكون مخبرين. الجميع كانوا يكذبون بصوت واحد ويخفون مشاعرهم الحقيقية.

عندما أخبرت الشاعر والناثر ألكساندر تفاردوفسكي، رئيس تحرير مجلة «نوفي مير»، حول كيفية تصويتي، أجابني لسان حاله «هلّا عرفتم حالتي عندما رفعت يدي...» كان ذلك بعد خمسة أشهر من اندلاع الحوادث في تشيكوسلوفاكيا، في يناير (كانون الثاني) من العام 1969. استدعاني تفاردوفسكي ليخبرني بأنه لا يستطيع نشر قصصي القصيرة في مجلته. وقال لي إنه ليس لديه ما يمكنه أن يحميني به. وبعد ذلك بوقت قصير أُزيح هو من منصبه ومات من الناحية العملية.

ليس ثمة نهاية سعيدة في الحياة.

لقد ابتُليَ يوري كونستانتينوفيتش أردي بالعمى قبل وفاته. أما عرابتي ألكسندرا فلاديميروفنا إيلينا فماتت بالميتة المألوفة للمدخنين – احترقت في فراشها في المستشفى. لم تعد قادرة على المشي (التهاب الشرايين المُسِدّ) ونامت والسيجارة في فمها... توفيت هي ويوري بفارقِ يوم – هو مات قبلها بيوم واحد، وحيداً في شقة فارغة.

توفي فاديم سينيافسكي من السل المزمن. ذهبنا لعيادته في حيّ سوكولنيكي، في المستشفى كذلك. وجدناه رجلاً متزناً وهادئاً وخامداً... لم يخفَ على أحد أنَّ رئيس التحرير الجديد قد سعى لتدميره، ولم يسمح له بتقديم برنامجه على الهواء.

كنت أتحدث، عن أولئك الأعزاء الذين غادرونا، مع الشخص الوحيد الذي يعرفهم جميعاً، مع المعلق الإذاعي ماكس هيندنبورغ. حدَّثني ماكس بأشياء لم أعرفها بسبب صغر سنّي...

سأعود إلى أحاديثنا تلك في نهاية ذكريات طفولتي في الإذاعة.

كانت لديَّ مشكلة مهنية – إذ أتحدث في الميكروفون في جميع الظروف بالقدر نفسه من الصأصأة. بعض أصدقائي الذين سمعوني في المذياع اعتقدوا أنني أعمل في برنامج «فجر الطلائع» للأطفال!

بدأ عرابي فاسيا أنانتشينكو، يوحي إليَّ بالعديد من الأشياء المفيدة، ومن بين ذلك قال لي فاسيا إنه من الضروري التحدث ببطء في الإذاعة.

- لا تثرثري، يا لُقطة، - قال لي مهدِّئاً من روعي.

(ذات مرة جلبت تسجيلاً من أمسية أدبية في مكتبة - كانت إحدى الفتيات تنشد أغنياتها بصوت أكثر صأصأة مني. أثناء التسجيل، حدث شيء ما لـ«مجرشتي» - هكذا كنّا نسمي جهاز التسجيل المحمول. كان وزنه 8 كغم. صلّحتُ الآلة بمساعدة قلم رصاص بطريقة ما وطلبتُ أن نبدأ كل شيء من البداية، وبدأت الفتاة تكرر بطريقة منضبطة، وكنت سعيدة ومبتهجة بأغانيها، وما زلت أحفظها عن ظهر قلب.

أخذت ألكسندرا فلاديميروفنا إيلينا هذا الشريط مني، ووضعته على الطاولة، أغلقت الصندوق، وقالت: «اذهبي إلى شغلكِ».

كان هذا من المفترض أن يغدو أول تسجيل للأديبة نوفيلا ماتفيفا... لكن الوقت لم يحن بعد.

الحقيقة، شهرتها بدأت بسرعة كبيرة وستبقى إلى الأبد).

وهكذا، قرر فاسيا ذات مرة أن يضعني على الطريق الصحيح ويعطيني درساً في العمل الحقيقي، وعندما سمع بأنني سأقوم معه بأمر من الإدارة بتغطية فعاليات أحد المعارض الصناعية في قاعة المعارض المركزية في ساحة مانيش في موسكو، أخذ يتلعثم في الكلام.

في الواقع، ابتعدت في البداية عن مسؤولي، وأخذت «مجرشتي» على كتفي، وأنا أتلوى من ثقل الوزن، وذهبت بنفسي لأجد من يتحدث إليَّ. وعثرت على الشخص المطلوب! إذ سار باتجاهي شيخ أنيق ذو مظهر وقور.

وبعدما اعترضته في وسط الطريق، وجهت الميكروفون تحت أنفه وقلتُ بصوت عالٍ:

- من فضلك، بضع كلمات حول انطباعاتك!

وهنا شعرت أنَّ بعض الناس أزاحوني عن طريقه؛ والأصح، أنهم جروني من إبطيَّ وسحبوني بعيداً.

كان ذلك العلّامة الأكاديمي ميليونشيكوف نفسه (ما زلت حتى اليوم لا أعرف من هو).

لم يدعني فاسيا وحدي بعد ذلك أبداً. وأمرني أن أقف عند الحائط وأحضرَ على الفور امرأة في منتصف العمر لكي تتحدث إليَّ.

ومرة أخرى، دسستُ لها الميكروفون في وجهها مثل فوهة البندقية.

ردّاً على سؤالي البسيط: «كيف أعجبكِ المعرض؟» - هزّت رأسها بحكمة وأزالت الشيء الخطير من أمام وجهها. وقف فاسيا إلى جانبها وهزّ رأسه أيضاً. ثم قال:

- انظري كيف يجب أن تفعلي!

بعد أن أمسك الميكروفون بيده اليمنى، بدأ يُمسد بيده اليسرى ظهر المرأة، وهو يملي عليها بلطف ما ينبغي أن تقول.

انتعشت المرأة، ولكن لم تستطع نطق العبارة على الفور.

أجابت المسكينة عن السؤال بـ«حسناً» فقط.

بدأ فاسيا الحوار:

- هل أعجبكِ المعرض؟ لا تُجيبي «نعم» فقط! بل قولي بكل بساطة: «أعجبني، هذا المعرض».

- حسناً.

- هل أعجبكِ؟.. يا إلهي، اللعنة! ليس «حسناً» يا رايتشكا! (وبدأت جلسة التمسيد). قولي فقط: «أعجبني المعرض». نبدأ؟

- حسناً.

الإجابة صحيحة تماماً: طالما أنَّ كل شيء قد قيلَ، فما الداعي إلى التكرار.

- آخ، يا إلهي... انتظروا دقيقة. هكذا. (بوقار) هل أعجبكِ هذا المعرض؟ آه؟ (...) حسناً لماذا طوال الوقت تكررين كلمة حسناً! يا لهذه الكلمة!

ثم كتب لها على قطعة من الورق بحروف كبيرة كلمة «نعم»...

وعندما سمح لها بالذهاب، قال لي:

- ها أنتِ ترين... كيف ينبغي أن تعملي، وفي أيّ ظروف... وهذا هو ما ينبغي أن يكون!

يجب أن يقال إنه حتى ليونيد إيليتش بريجنيف نفسه (الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، إذا ما تذكر أحدٌ، أنَّ هذا الشيء كان موجوداً)، كان يتلعثم في نطق بعض اقترانات الحروف عندما كان يلقي خطاباته الغريبة في مؤتمرات الحزب، إلى درجة أنَّ شركة «ميلوديا»، التي كانت مُلزَمة بإصدار تسجيلات لخطاباته على أسطوانات، بحثت في حالة من الذعر عن مقلدي أصوات مناسبين من أجل إعادة نطق الكلمات التي لا ينطق اقترانات الحروف فيها بشكل صحيح. ومن بين بعض الذين استُدعوا إلى الاستوديو مخرج أفلام

الرسوم المتحركة إديك نازاروف (من أفلامه التي أحبها الناس «كيف عادت النملة مسرعة إلى البيت»، «كان يا ما كان كلبٌ»، وما إلى ذلك). وقد نقل إديك ببراعة نبرة صوت ليونيد.

ومع ذلك، فقد ترك العمل الإبداعي الرائع في برنامج «آخر الأخبار» أجمل انطباع عندي. فقد كان ذلك ذروة مسيرتي الإذاعية.

وعندما صعدتُ إلى الفضاء المرأة الأولى، فاليا تيريشكوفا، وهي نسّاجة سابقة حاصلة على شهادة الدراسة في ثانوية تقنية، سُمِحَ لنا نحن، الفتيات العاملات في قسم «آخر الأخبار» أن نُعِدَّ تقريراً مباشراً من الطريق السريع. إذ قرر المسؤولون أن يثيروا البهجة في صفوف قبيلة النساء من الصحفيين. لاستعادة التوازن الهش بين الجنسين، طالما سُمِح لفتاة بالانطلاق نحو الفضاء.

لقد دُفِع الناس للقاء أبطالهم.

طُلِبَ منّي الوقوف على شرفة متجر دار الأحذية الواقع في شارع لينين.

تجمهرت الحشود في الأسفل وإلى الأفق وكان الناس يضجون بهدوء ويتحركون ويهزون بالأعلام.

كان ذلك احتفاءً بالمساواة، على ما يبدو. وكما يقول الكاتب والناقد الساخر الكبير زينوفي بابيرني بلغةٍ شبيهةٍ باللغة الهندية «المرأة والرجل بهاي- بهاي» (محاكاة لشعار «هندي – روسي بهاي – بهاي!» الهنود والروس إخوة).

رقصت حروف نصّي أمام عينيّ، لقد كتبته مسبقاً، وافقتْ عليه إيلينا (ها هو الموكب يبدو للعيان من بعيد... إنها سيارات مكشوفة... ودوّت هتافات «مرحى» بصوت عالٍ! الناس يلوّحون بالأعلام!).

وبيدي الأخرى أمسكت الميكروفون بإحكام.

كُلِّف بتروفيتش بمرافقتي، وهو شخص متجهم وسكير من قسم الرياضة. كان من المفترض أن نكون أنا وهو، على الأرجح، كنصب إذاعي متوازن على غرار نصب «العامل والفلاحة»، لكننا وقفنا منفصلين ولم نرفع أيدينا إلى الأعلى، في الأحوال كلها! غير أننا على كل حال مثلنا رمزاً للوحدة الوثيقة لهيئة تحرير القسم الرياضي وقسم الثقافة، أي المزيج الأكثر وحشية، إضافة إلى أننا حُشرنا في الأعلى في شرفة في الطابق السادس. وبسبب الاضطراب لم أتمكن من رؤية أيّ شيء في الشارع، مهما حدَّقت وضيَّقتُ عينيَّ، لكن بتروفيتش، المعتاد على تقارير كرة القدم، كان ينظر بعين حادة إلى الأفق البعيد.

في يده، أيضاً، رفرف نص، ولكن لسبب مختلف (على ما يبدو، كان بتروفيتش من الصباح يخشى «أن يصحو من سكره»).

وفجأة، دوّى ضجيج بعيد في الشارع. وتناهت صيحات «مرحى»، وكأنها صيحات ما قبل الهجوم. بدت السيارات في الشارع الفارغ كالنقاط الصغيرة. وعلى حين غرة دفعني بتروفيتش بكوعه بقوة.

بدأت أخرج عن النص المكتوب تماماً:

- انظروا! أعزاؤنا قادمون!!! إنها تيريشكوفا!!!

ثم خنقتني العبرة من العاطفة وجعلتُ أبكي.

كمَّمَ بتروفيتش فمي بيده الخالية من الميكروفون.

لا أعرف كيف أفلحَ وبأيّ شكل في قراءة النص (الذي صادقت عليه الإدارة)، الذي كان في يده التي كمم بها فمي؟...

وبعد ذلك بقيتُ لمدة طويلة، عندما أصادفه في الممر، أنا مَن يبادر في السلام أولاً. تعلمتُ الكثير منه على الشرفة، فقد قاسينا الكثير هناك معاً! كيف استطاع أن يغلق فمي بفطنة سريعة الخاطر! ولكني أعتقد، أنَّ بتروفيتش الصارم قرر عدم الاعتراف بي.

إذا ما قام أحدهم بنحت تمثال لنا في تلك اللحظة، فيمكن آنذاك أن

يطلق عليه بكل حرية اسم «عامل يكمم فم فلاحة، أو الرقابة تنشط في العمل».

* * *

في الواقع، كان يصعب الشغل والاستقرار في قسم «آخر الأخبار». ولو بالنسبة لي، أنا على الأقل.

كان يعمل هناك أناس وقورون ومشهورون، محنكون وممارسون من الدرجة الأولى، الذين كانت أصواتهم كنوزاً وثروة وطنية. من بينهم فاديم (سلافيتش) سينيافسكي، المعلق الرياضي المفضل في البلاد، المثقف ذو الصوت الخشن الأجش وصاحب النغمة الشعبية البسيطة المميزة. إنه إنسان محترم ومحبوب إلى حدّ الوله من جميع المشجعين!

يُذكر في الحكايات، أنه أصيب برصاصة في عينيه عندما كان يعدّ تقريراً من ستالينغراد في وقت القبض على قائد الجيش الألماني السادس فريدريش باولوس...

وهناك كذلك بدأ نيكولاي نيكولايفيتش أوزيروف، كوليا، عمله، في أيام شبابه، إذ كان في ذلك الوقت لا يزال فناناً في مسرح موسكو للفنون، ولكن لأنه كان بطلاً للتنس، فقد عمل بالإضافة إلى ذلك في قسم الرياضة في هيئة تحرير «آخر الأخبار» أيضاً. لقد كان رجلاً مهذباً بشكل خيالي، ودائماً ما يبادرني بالسلام وهو يسير مسرعاً في الممر! وحتى إني كنت أخجل حيال ذلك، وأُسلِّم عليه من بعيد.

وقد أخذه أردي وأنانتشينكو ويورا سكالوف إلى الجبهة أيام الحرب وهو ما يزال صبيّاً، وجاب أوروبا كلها مشياً على الأقدام بوصفه جنديّاً بسيطاً في صفّ المشاة... كان الناس دائماً يصفقون له في عيد النصر في التاسع من أيّار (مايو) أكثر من الجميع، عندما يجتمع ملاك الإذاعة لمدة وجيزة في القاعة الكبيرة.

الملاكات العاملة هناك ودودون ويعملون بجدّ أكثر من أيّ أناس

صادفتهم في أيّ مكان آخر. عملٌ بحجم ست صحف «برافدا» يوميّاً – هذا القدَر من المعلومات يتطلب عملاً إلى درجة الإعياء.

مستمعو الإذاعة في الاتحاد السوفياتي كانوا في كل مكان – في كل كوخ تقريباً، وفي مكتب المدعي العام، وفي الوحدات العسكرية، وفي كل قرية في المخفر بالقرب من مجلس القرية، وفي المتنزهات، وفي صالونات الحلاقة وتصفيف الشعر، وفي القطارات في كل مقصورة وحتى في الممر ثلاث سماعات للمذياع، وفي رياض الأطفال، وفي المحلات التجارية، وفي العيادات الطبية، وفي المكاتب الإدارية من أعلى إلى أسفل، وفي الغُرَف في الشقق المشتركة...

كان هناك برنامج واحد للجميع. الناس كانوا يستمعون إلى برنامج «آخر الأخبار»، ولكن (للأسف) بشكل رئيس من أجل حالة الطقس ونتائج الرياضة... الأخبار الباقية بالنسبة للإنسان البسيط العادي عديمة الفائدة تماماً. لم تعتمد حياته آنذاك على ما زُرِعَ وحُصِد ومقداره وأين جرى إنتاجه. فعلى أيّ حال، الحياة تسير إلى جانب هذه المعلومات غير الصادقة دائماً. ليتهم يذيعون أين تُباع فَرشات الأَسِرَّة أو الصحون أو الأحذية – أوه! أو الغلايات والأرائك والسجق! أو أين تُباع البطانيات والجوارب وكتب الشاعرة آنّا أخماتوفا! بيد أنَّ السلطات لا تفعل ذلك. إنهم لا يسمحون بإذاعة أخبار عن أماكن توفر السلع لكي لا تتكرر حادثة حقل خودينكا في شمال غرب موسكو. كان هذا أكثر ما يثير هلعهم...

(بالمناسبة، سمعت مؤخراً عن حقيقة ما جرى هناك، في خودينكا، خلال تتويج القيصر نيكولاي الثاني، ولماذا اندفع الناس إلى هذا الحقل الملعون. القضية كلها تكمن في خبرٍ أُسيء فهمه: أُعلِنَ في المدينة أنَّ بمناسبة عيد التتويج سيُقدم الشراب للجميع بكؤوس فيها تاج، فسمع الناس سيقدم الشراب مع «بقرة». فاندفع الجميع للحصول على الماشية).

أحد السجناء من الإنتليجينسيا (الطبقة المثقفة)، مدير مختبر معهد

تصنيع الجلد الصناعي (لقبه الحزبي بين أصدقائه مايكل) سُجِنَ في عام 1983 بسبب كونه بعد محضر الشطب لم يدمر معدات العام الماضي والبراغي الملحقة بها (كيف يمكن لحائز أن يُلقي بالبراغي! مع وجود نقص في كل شيء!) - حُكِمَ عليه بسبع سنوات بالسجن الثقيل مع الحق في كتابة رسالة واحدة شهرياً لحيازة الملكية العامة بكميات كبيرة - وهكذا، بعد إطلاق سراحه قال إنه كانت لديهم سماعة المذياع في الزنزانة توجد في الجهة الخارجية من القضبان، أي، كأنها في الحرية خارج السجن. وكانت توقظ الجميع في الساعة السادسة صباحاً بالنشيد الوطني. فقاموا بكبح الصوت بلفِّ ذلك القضيب بالخِرَق. ودعا مايكل بوق الاستيقاظ هذا «خوار قطيع الأبقار»...

هكذا كان المذياع، واحد للجميع.

ألكسندرا فلاديميروفنا إيلينا، كما سبق أن ذكرت، كانت مسؤولة قسم الأدب والثقافة، وهو القسم العديم الفائدة، في رأي الإدارة، في «آخر الأخبار». فجميع هذه العروض الأولى، وحفلات افتتاح المعارض الفنية، والحفلات الموسيقية، والأفلام، واللقاءات مع الكُتّاب، ناهيك عن الكتب الجديدة كانت بعيدة كل البعد عن ناسنا، الذين كانوا مشغولين بالعمل وتربية الأطفال والحصول على الطعام، والذين يتحدثون بلغة السباب القبيحة، وفي أوقات فراغهم يلعبون الدومينو ويصنعون الساموغون (المشروب الكحولي القوي الذي يُصنع في المنازل). وفي هذه الحالة، كانت النساء يَهتمِمْنَ بماذا يُباع وأين، وبالمدارس والمستشفيات، والرجال يهتمون بكرة القدم والدومينو. والجميع بلا استثناء يسرقون من مؤسساتهم التي يعملون بها.

وبطبيعة الحال لا يمكن أن تبثّ معلومات عن كون النجار من الدرجة الرابعة العم ديما بولوتين أخذ لوحاً خشبياً من ورشة العمل (وألقى به خارج السياج إلى صديقه) لأن زوجته، زوجة ديما، ألحّت عليه أن يصنع رفوفاً في المطبخ، والعم ساشا القصاب في معمل منتجات اللحوم لفّ

لحم الخنزير كالمعتاد وخرج عبر نقطة التفتيش دون عوائق، لكن المارة شاهدوا بعيون مبحلقة: رجلاً يمشي وخلفه يقطر أثر الدم. وإنَّ الجيران لديهم حفل زفاف، إذ ستتزوج نينكا، فجلبت العمة فاليا الساكنة في الطابق الأول زجاجة وطلبت حصتها من الشراب.

لقد كتبتُ أنواع الترهات، الشيطان وحده يعرفها.

أي إني، في البداية، بوصفي بنتاً عادية غير متدربة، أُرسِلتُ لتغطية عمل وزارة الزراعة. كيف أُغطيه؟ ذهبتُ إلى وزارة ذلك الفرع من الاقتصاد، ووجدت هناك أحد الموظفين في منتصف العمر مظهره يشبه بطلاً تراجيدياً من فيلم صامت، شعره ممشط بعناية ومفروق على الجانب، ولديه هالات سود في المنطقة الواقعة تحت العينين. يرتدي بدلة مائلة تقريباً للون الوردي. يشبه طائر طيطوي الأحمر الساق الأرقط. كان يجلس في مكتبه، وأنامله تبحث في أوراق، وقد رحب بي بحرارة في البداية. كان مديراً لشيء ما خاص بالبحث العلمي. كان اسمه الأخير معقداً، وينتهي بـ «جي»، كما أتذكر الآن. ربما اسمٌ شرقي؟ في البداية، نظر إليَّ بطريقة ما توحي بشيء من الحزن إلى حدّ كبير. ولكن عندما اكتشف لماذا جئت، بدأ يجيب بالنفي بسرعة، ويرفع يده ويخفضها معترضاً، وكأنه يرقص، وقال إنه ليس لديه أيّ أخبار، وأمرني بالعودة إلى المكان الذي أتيتُ منه. لكنني أخذت رقم هاتفه وبقيت أتصل به بإلحاح. وماذا كان ينبغي عليَّ أن أفعل؟ يجب أن أغطي عمل الوزارة! أليس الوزارة تعمل، أم ماذا؟ ثم بعد حوالي أسبوع، عثرَ أخيراً على خبر: لقد اخترعوا شيئاً، يُلقى به في كومة من الحبوب. فإذا اشتعل الضوء الأحمر، يعني الحبوب رديئة. مرحى! كتبتُ المعلومة تحت عنوان: «إشارة المرور الصحية». وقُرِئ الخبر صباح يوم الأحد. أكرر، كانت لدينا إذاعة واحدة في جميع أنحاء البلاد، وكانت تُسمع في كل مكان. استمعت صديقتي إلى هذا الخبر المثير للاهتمام، واتصلتْ بي هاتفياً وسألتني: «هل أنتِ من كتب هذا الخبر؟».

بعد ذلك، كلما اتصلتُ بهذا الـ «جي» اسأله عن معلومات، لم يستطع أن يجد شيئاً مهمّاً لي، وحتى إنه عاتبني لأنه تعرض للوم بسببي على نشر المعلومات (ربما، كان ذلك كذباً منه، مَن يدري؟).

وفي ذلك الوقت تقدم زعيمنا، خروتشوف، بفكرة إرسال هذه الوزارة إلى الريف. وأن تستقر بالقرب من المشاريع الزراعية والمزارع الجماعية، التي كانت في دمار رهيب، كالعادة.

وقد تكتمت وزارة الزراعة تماماً على خبر هذا الإبعاد القسري إلى الريف، إلى الأماكن التي عاش فيها أجدادهم.

بعد ذلك، عندما انشغل مصدري للمعلومات في الانتقال إلى المكان الجديد، وجِّهتُ للعمل على تغطية عمل اللجنة المركزية للكومسومول (اتحاد منظمات الشباب السوفياتي).

أتذكر، جئت إلى المكتب حيث كانت تجلس ثلاث مدربات. إلى طاولة إحداهنَّ ، وقف رجل ممتلئ الجسم، ظهره إليَّ ويتكئ على الطاولة مظللاً على المكان. وكانت المدربة توبخه بكل ما تحمل كلمة توبيخ من معنى:

- إلى أين أُرسِلتَ؟ أنتَ طلبت أن تذهب في مأمورية إلى الكولخوز (المزرعة التعاونية). وقلتَ إنك سوف ترسم صور المتفوقين في الكومسومول. وماذا أحضرت لي؟ لماذا قدمتَ لي تذكرة السفر إلى شواطئ البحر في القرم؟ لن أدفع ثمن التذكرة!

انحنى الرسام على المدربة وأوضح لها بصوت منخفض بأن تلك كانت حاجة إبداعية... أملتها رغبة محددة... وكأنَّ الحدس يقودها...

- وهي التي قادتك إلى البحر بدلاً من الذهاب إلى الكولخوز؟

- كما ترون، إنها طبيعة البحث... قال الرسام بثقة وحماس. - الروحانيات... الأديرة الكهنوتية... الأماكن المقدسة...

بهذا أجهز عليها، وسلَّمها جميع الوثائق وخرج راضياً.

- إنه يحتاج إلى جبل آثوس مقدسٍ جديدٍ، ألا ترونَ، كم هو بحاجة إليه، - قالت المدربة بضجر. - حسناً، ماذا لديكم؟

- أنا من الإذاعة العامة للاتحاد السوفياتي، جئت رغبة في الحصول على أيّ أخبار.

- هاكِ، استلمي! هل رأيتِ هذا الفنان الرسام إيليا غلازونوف، بدلاً من الذهاب إلى المزرعة التعاونية، حيث أرسلناه، ذهب إلى البحر. تمتع بالسباحة لمدة شهر. وعلينا أن ندفع مصاريف سفرته. هذا خبر.

لم تجلب لي اللجنة المركزية في الكومسومول كذلك الكثير من الأخبار.

وفي ذلك الوقت، رفض يورا سكالوف تغطية عمل اتحاد الفنانين. وقال إنه ضجرَ من تكرار الشيء نفسه. وقف في منتصف غرفتنا الكبيرة ولوَّح بيده، وهو يبتسم، مشيراً إلى أنه لا يستطيع الاستمرار أكثر من ذلك. ولا زلتُ أتذكر هذه اللحظة.

(في الواقع، كما أخبرني مؤخراً ماكس هيندنبورغ، المعلق الإذاعي، أنَّ يورا كان مريضاً جدّاً. وصار يصعب عليه المشي، ومع ذلك، كان يعمل في ظل ذلك الظرف. ثم كفّت يداه عن الحركة. فجعل يُملي ويكتبون له، وبعد ذلك رقد تماماً).

أُرسلت لتغطية حياة اتحاد الفنانين.

يا لفرحتي! لقد رسمت في كتاباتي صورة تخطيطية وجدانيةً ساخنة من أول معرض قمت بزيارته (بدا لي أنه من الضروري تحسين أسلوب المعلومات الإذاعية). كانت تلك قصة مروعة.

بدأتُ معلوماتي بالعبارة: «مياه أنهار الشمال الهادئة التي تجري ببطء...» (والبقية لا أتذكرها، ربما، بعدها واصلتُ «حياة الصيادين التي تسير على مهل، والنيران البعيدة الموقدة في الليل») - ومن ثم سارت قضايا محددة جدّاً: لهذا الشيء، كُرِّس المعرض الفلاني، ومَن هو الرسام، وعدد اللوحات.

حدث ذات مرة أنَّ إحدى المذيعات (على ما أظن، فيسوتسكيا)، بعد أن قرأت نبأً عاجلاً بعد تدفق الأخبار حول تشغيل الأفران العالية ورفع أطنان الفحم، بدأتْ بسرعة وبالنبرة العملية والصارمة الخشنة: «مياه أنهار الشمال الهادئة التي تجري ببطء...» ثم تلعثمتْ. كان من المفترض قراءة ذلك بشكل آخر، بترنيمة، أو شيء من هذا القبيل. مسكينة المذيعة! يا له من موقف غبيّ وضعتها فيه!

لم تكن هناك فضيحة، إلّا أن محررة الأخبار نينا سكالوفا قالت لي بشكل غير رسمي وغير صارم: «ماذا دهاكِ، هل أصبحتِ كاتبة شهيرة مثل قسطنطين باوستوفسكي، على طول! غيِّري هذا الأسلوب!». فشعرتُ بإحراج شديد وخجل.

ولا بدّ أن أقول، إني لم أشعر بموقف ودّي تجاهي في هيئة التحرير. فهم ينظرون إليَّ على أني فتاة جلبها أردي للعمل، لكن من هي؟ والواضح أنه نفسه يتجنبها... ثمة شيء ما يثير الشكوك. هل لأن زوجته بالقرب منه وقد تراقب تصرفاته؟...

لم أستطع أن أفهم شيئاً من ذلك، لكنني شعرت بنفور الجميع مني.

إلى أن قيل لي ذات يوم أن أقدم تقريراً عن معلومات سياسية. عن أيّ شيء أختاره بنفسي. نوع من الامتحان. فقدمتُ تقريراً مفصلاً عن بابلو بيكاسو. وكان شبه ممنوع عندنا. وماذا في ذلك؟ فقد كان في وقته شيوعيّاً ومناضلاً من أجل السلام!

وكنتُ آنذاك أقرأ المجلات البولندية وعثرت في إحداها على مقابلة رائعة وظريفة مع هذا الرسام القدير الناجح. بعد التقرير عن بيكاسو، قبلني الناس بطريقة ما. وغدوا أكثر لطفاً معي. لقد شعروا أني شخصٌ لا يخشى أن يُسلَخ جلده، إنه يقول ما يريد بحرية. باختصار، شعروا أنَّ البنت ليست غريبة عنهم.

واظبتُ بجدّ على الذهاب إلى المعارض، وإلى ورش الفنانين. وزرتُ حتى الفنانين المحظورين، من أمثال فاسيا سيتنيكوف ونحاتٍ

آخر جريء من الذين يعملون في السرّ. واستقبلوني عن طيب خاطر: ماذا لو؟ فجأة وحالفهم الحظ وقيلت كلمة طيبة عنهم في الإذاعة؟ لكن لم تحدث معجزات. الحقيقة، أنَّ النحات استحسن جهاز التسجيل الخاص بي أكثر من أيّ شيء، بل وألمح إلى أنه سيكون من الرائع بالنسبة لي أن آتي وأكتب كتاباً عن مذكراته. لكنني لم أحب أعماله، إنها نوع من التفكيك ورسوم للعضلات، ولم يعجبني حديثه عن حقيقة أنه يعيش مع فتاتين توأم، ويحممهما بنفسه في الحمام. ولم أزره مرة أخرى بعد ذلك.

بدأت أكثر الأشياء فظاعة في عام 1962، في سبتمبر (أيلول). إذ جرت مناقشة موضوع «التقاليد والابتكار» في نادي الفنانين، وهناك أجريتُ (خلف الكواليس) مقابلة مع الناقد والمُنظِّر الأدبي ليف كوبيليف. من الناحية العملية، أعاق الموجودون في قاعة النادي حديث المخرج سيرغي يوتكفيتش (إذ كانوا يدعونه إيودكيفيتش – أي ابن يهوذا). كان الجميع متفائلين ومتحمسين للغاية: إنه التغيير، وحقبة ذوبان الجليد التي دعا إليها خروشيف! وفي تلك الأيام افتتح المعرض الشهير في قاعة المعارض في ساحة مانيش (بمناسبة الذكرى الثلاثين لتأسيس اتحاد فناني موسكو)، وتعمد المحرضون من أكاديمية الفنون توجيه دعوة إلى الفنانين «اليساريين» للحضور إليه، وقد عُرضت هناك من بين أشياء أخرى لوحة «المتعرية» الشهيرة للفنان الكبير روبرت فالك.

بيد أن حقبة ذوبان الجليد انتهت بهذا. والحقيقة، أنَّ الفنانين في فرع الاتحاد في موسكو، وجهوا رسالة إلى الجهات «العليا» يشكون فيها من أكاديمية الفنون. وزعموا، أنها تستهلك الكثير من المال، بينما اتحادات الفنانين الأخرى ليس لديهم أيّ أكاديمية، والفنانون في الأكاديمية رديئون. وهذه كانت حقيقة خالصة لا مراء فيها.

شنّت الأكاديمية، ممثلة بشخص الفنان فالنتين سيروف، وهو اختصاصي بموضوعات الماركسية اللينينية، هجوماً. (حتى إن الفنانين

كان لديهم أغنية تحاكي أنشودة «عندما يأمر البلد أن أكون بطلاً»: «عندما يأمر البلد أن أكون سيروف، يصبح كل واحدٍ منّا سيروف».)

دعا سيروف خروشيف وجميع حاشيته إلى معرض «اليساريين». وحتى إنه عرض لوحة فالك «العارية». وقد تداول الناس نكتة مفادها أنَّ خروشيف سأل: «ما هذه؟!» فأجابوه هذه «العارية» لفالك، فسأل خروشيف مرة ثانية: «ألا توجد فالكا عارية أخرى بعد؟».

وباختصار، بعد أن رأت السلطة الفن اليساري، اشتاطت غضباً، وهذا ما كان مطلوباً. فأبقت على الأكاديمية. وانتُخِب سيروف رئيساً لها. ورُشِّحت لجائزة لينين لوحة هذا الفنان، التي صوَّرَت لينين وبجانبه عامل يرفع قبضته داعياً إلى التقدم نحو الأمام. قال عضو لجنة الجوائز، الفنان ف. بوبكوف (وهو رجل من جماعتنا) إن هذه القبضة نحو الأمام تبدو بطريقة ما غير صحيحة إيديولوجيّاً. خافت اللجنة ورفضت لوحة سيروف. فأصبحت أكاديمية الفنون في وضع لا تُحسَد عليه. وجعل الشباب يستهزئون بها.

أجريتُ مقابلة مع فلاديمير سيروف الحقير النذل هذا بعد انتخابه رئيساً للأكاديمية. لقد اشتغلتُ كثيراً على الشريط. وعملت مونتاجاً. وأبقيتُ جميع زلات لسانه وجميع أغلاطه وكلماته السوقية وجميع أفكاره الصغيرة البائسة دفعة واحدة، وكلامه وهو يرغي ويزبد.

قبل المسؤولون اللقاء من دون أن يعترضوا على كلمة واحدة لم يلاحظ أحد حيلتي. وحتى إيلينا لم تنتبه إلى أيّ شيء (راقبتها). والناس في البلاد، بعد أن استمعوا، لم يهتزّ لهم طرف. آنذاك كان القادة كلهم في جميع المستويات يتكلمون بهذا القدر من الأغلاط والشطحات.

(وحتى الآن الناس يفعلون ذلك أيضاً، فهم يضحكون من فيكتور تشيرنوميردين، بل إنه أصبح بطلاً للنكات مثل تشابايف. لسبب ما شعبنا الذكي أحب أولئك الذين هم أكثر غباءً واعوجاجاً. وبعد أن انتبه الناس وعادوا إلى رشدهم، وجدوا أن الوقت قد فات وأصبح الرجل ملياردير اً!).

اكتملت بهذا عملية ذوبان الجليد (1962) نهائياً وتكللت بتكوين طبقة جديدة من الجليد. واستمر الجليد على مدى السنوات الثلاث والعشرين التي تلته.

أي إنَّ أي محاولة لدينا لتحسين الوضع تؤدي إلى التدهور وإلى ما هو أسوأ.

كان عدد العاملين في هيئة التحرير ليس كبيراً. قسم الرياضة (المعلقان الكبيران فاديم سنيافسكي، ونيكولاي أوزيروف)، قسم الشؤون الدولية (الشهير فالنتين زورين، الذي طالما فضح أسلوب الحياة الأمريكي ثم انتقل إلى هناك لإنتاج أفلام تشهير). إضافة إلى قسم الصناعة والاقتصاد، وهو أكبر الأقسام وأكثرها تقديماً للأخبار (ومن الأمثلة على أخبار هذا القسم: قام الرجال بإشعال الفرن العالي في منطقة كذا؛ انتهت حملة حصاد محصول كذا؛ جرى تشغيل كذا؛ وجرى تجاوز الخطة في إنتاج كذا؛ جرى توصيل كذا؛ جرى قطع كذا؛ جرى التحام سفينة كذا؛ غُمِرَ...، أُنتِجَ...، استُخرِجَ...، قُصَّ شريط...).

ولو تحدثنا عن لغة الإذاعة، نلاحظ أنَّ الفعل المفضل هو «أطلق» باشتقاقاته المختلفة، حسب المادة والقسم المعني.

أما نحن في قسم الأدب والثقافة، كانت لغتنا هي الأكثر تواضعاً، ولا تحتوي على كلمات غريبة أو عبارات ومصطلحات لا يفهمها الناس. فإن كان الحديث عن معرض – نذكر الأعداد وتصنيف الموضوعات. وعادة ما تُلقى قُصاصات أخبارنا في سلة المهملات.

وفي المقدمة كان يقف المعلقون النوابغ الأفذاذ الذين يرون أنفسهم أفضل منّا ولم ينزلوا إلى مستوانا.

من بينهم كان المعلق ماكس هيندنبورغ الذي ذكرناه سابقاً. كنت أتبادل التحية معه، ولكن لم تكن ثمة صداقة معينة بيننا- فهو مسؤول مشهور وذو شأن، وأنا بنت نكرة مبتدئة لم تستطع بعد أن تُرتب أمورها. فأنا دائماً لا أكتب بالشكل المضبوط... ودائماً لا يُسمح ببثّ تقاريري

على الهواء، وعندما أعود من غرفة المسؤول عادة ما أقول: «لقد أحبطوني مرة أخرى». عشر ساعات من العمل ذهبت سدًى، بلا جدوى. وأذهب إلى غرفتي لأبكي هناك حيث مكان الآلات المبرقة الكاتبة...

ثم انتقلتُ إلى العمل في إحدى المجلات. تَفَهَّمَ العاملون في «آخر الأخبار» موقفي. وودعوني بكلمات نصح طيبة. وقد تنبأ لي باشا مازلين بأني سأكون كاتبة، لا أكثر ولا أقل، قائلاً: « لدينا الآن عضو واحد في اتحاد الكتاب فقط، هو فاسيلي أرداماتسكي».

مرّت سنوات عديدة، وفجأة رنَّ جرس الهاتف:

- لوسيا، أنا ماكس هيندنبورغ. كيف حالك؟

- بخير، وأنت؟ - أجبت كصديق قديم.

- كما ترين، لقد كتبت قصة قصيرة...

مرّت السنون، كان يكتب وأنا أقرأ. ثم عثرنا على دار نشر تقوم بإصدار كتاب كامل لقصص ماكس. دخلنا في مفاوضات مع المحرر. طلبت منّا صاحبة دار النشر مقدمة. فقدمتها لها. لكن دار النشر المعنية تلك أفلست وانهارت.

كان يكتب، وقد مرِضَ جدّاً، لكنه غالبَ المرض وواصل العمل بنشاط. إنَّ ماكس بطبيعته رجل متفائل وهادئ. كان صديقاً لأشخاص كثيرين، بما في ذلك رئيس تحرير مجلة «الشعلة» (أوغونيوك)، أناتولي سوفرونوف - وسوفرونوف هذا كان، حياته كلها، شخصية بغيضة ورجعي مشهور بمعاداته للسامية، وأكبر عدوّ للتقدم، لكنه كما تبيّن لاحقاً، أنه رجل كريم وطيب مع رفاقه القدامى، وحتى مع الموظفين العاملين معه. وإنّي الآن أقنع ماكس بكتابة مذكراته بالتفصيل.

النصوص التي كتبها ماكس هي أبسط ما يكون، وكل شيء فيها صحيح. فالرجل لا يكذب، إنه ليس من ذلك الصنف الذي يكذب.

والآن قررتُ أن أقدِّم إلى الجمهور زميلي ماكس يفريموفيتش

هيندنبرغ، وهو جندي شارك في الحرب في الخطوط الأمامية من الجبهة، وكاتب وصحفي من جماعتنا في برنامج «آخر الأخبار» في إذاعة عموم الاتحاد السوفياتي، لكي يحكم عليه.

كان من المفترض، أن أقول في المقدمة: (إنكم الآن قرأتموها ولكنها بسبب عدم الحاجة ازدادت على مرّ السنين، لذا أنا الآن أنشرها)، والآن، مع الجوهر: مع قصص ماكسيك.

لا تحكموا علينا بشكل صارم: فماكس يبلغ من العمر 92 سنة. إنه مؤلف شاب.

إنه لُقطتي.

ملاحظة نشرت قصص ماكس هيندنبرغ في مجلة «أوكتيابر» (أكتوبر) في العدد 11، لسنة 2004.

المحتويات

بدلاً عن المقابلة الصحفية........................ 5

البداية........................ 21

فيغيرا........................ 23

عائلة آل ياكوفليف........................ 31

بداية الحرب........................ 43

ظروف عائلية........................ 47

كويبيشيف........................ 49

كويبيشيف.وسائل للبقاء على قيد الحياة........................ 55

كيف أُنقِذتُ........................ 59

سيرك دوروف........................ 62

بحثاً عن الطعام........................ 64

الدمى........................ 67

ليلة النصر........................ 70

دار الضباط في المحافظة........................ 71

لغة خدم البلاط........................ 76

مسرح البولشوي........................ 79

إلى الأسفل على السلَّم........................ 81

ملازمة الأدب........................ 85

حفلاتي الموسيقية. السترة الخضراء 88
الصورة 91
حكاية البحار الصغير.................................. 92
حياة أخرى.. 96
فندق «متروبول» 99
لينيتشكا فيغير 103
ماماشا 106
المخيم الصيفي 109
شارع تشيخوف. الجد كوليا............................ 113
محاولة إيجاد مكان 117
دار رعاية الأطفال.................................... 120
أريد أن أعيش...................................... 125
حبات عنب الثعلب غير الناضجة........................ 129
اللُّقطة 150

ليودميلا ستيفانوفنا بيتروشيفسكايا - كاتبة متعددة المواهب: فهي روائية وكاتبة مسرحية وشاعرة وكاتبة سيناريو وفنانة ترسم بالألوان المائية ومخرجة لثمانية من الأفلام المتحركة وملحنة ومغنية وممثلة مسرحية. ولدت في موسكو عام 1938. نالت الكثير من الجوائز الروسية والعالمية على أعمالها السردية والمسرحية. تُرجِمت أعمالها إلى الكثير من اللغات الأجنبية وعرضت أعمالها الدرامية على أفضل المسارح في روسيا والعالم.

«صبية من متروبول» - ليست مذكرات أو محاولة لإجراء مقابلة بعد عشرين عاماً من الصمت، على الرغم من أن الكتاب يبدأ برسالة للمؤلفة تتحدث فيها عن بديل للمقابلة الصحفية. إذ أنَّ الكاتبة قدَّمت سردها على شكل مجموعة من القصص والمقالات القصصية التي كتبتها بدوافع شتّى. ومع ذلك، من خلال وصف الحوادث والمصير الدرامي للشخصيات، تتكشَّف أمامنا تدريجيّاً بشكل جلي القصة الصعبة لقَدَر حياة المؤلفة نفسها.



تكشف لنا الكاتبة في عملها هذا بأسلوبها المُشوِّق الجوانب الخفية للمجتمع الروسي من بداية الثورة إلى مرحلة السبعينيّات من القرن الماضي بجوانبها الإيجابية والسلبية.

«صبية من متروبول» - هي حكايات حقيقية عن حياة مؤلفة هذا الكتاب. بدءاً من الاستعراضات الأدبية الأولى لها في الأفنية بين المنازل مقابل قطعة خبز وهي في سن السابعة من العمر، ومن كتابة القصص الخيالية حول اليد السوداء التي تمتد نحوها في غرفة النوم في دار رعاية الأطفال، والمغامرات في المدرسة والجامعة إلى أول عمل إذاعي، والمسرحيات الأولى. كما يتضمن مواقف هزلية عن حياة المجتمع البوهيمي في الداخل والخارج. إنّه كتاب للأشخاص المبدعين ولأولئك الذين يستكشفون الأدب والمسرح والفن ويستعرضون الكيفية التي رعت فيها صبية صغيرة أحلامها لتغدو كاتبة مرموقة ومعروفة ومحبوبة على المستوى العالمي، ومدى صعوبة الطريق نحو الإبداع الحر غير المحدود.

ISBN 978-9933-6043-5-6

